

الجزء الأول

القرآن الكريم من التنزيل إلى التدوين والترتيل

دكتور
أبو الوفا أحمد عبد الآخر

المكتب المصري الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

نموذج رقم ١٧

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

الأزهــــــر
مجمــع البحــوث الاســـلامية
الادارة العـــامة
للبحــوث والتــأليف والترجمـــة

السـيد / الأستاذ / أحمد أبو الوفا / أحمد عبد الآخر

السـلام عليـكم ورحمـة اللـه وبركاته ــ وبعـد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : (المختار من علوم القرآن)

تأليف ....

نفيد بأن الـكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مـانع من طبعـه على نفقتـكم الخـاصة .

مع التـأكيد على ضرورة العنـاية التامة بكتـابة الآيات القـرآنية والأحاديث النبـوية الشريفـة .

واللـــه المـــوفق ،،،

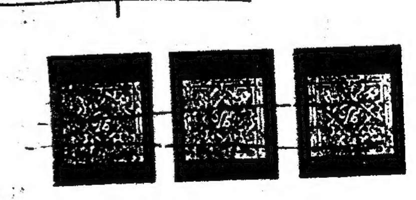
والسـلام عليـكم ورحمـة اللـه وبركاته ،،،

مدير عـام
ادارة البحوث والتـأليف والترجمـة

٩٢/٢/٢٧

تحريرا فى ٢٧/ ٩ / ١٤١٢ هـ
الموافق ٣٠/ ٢ / ١٩٩٢ م





بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

«الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا » والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والرسل الكرام «سيدنا محمد بن عبد الله » المبعوث رحمة للعالمين، والمؤيد من الله سبحانه وتعالى «بالقرآن العظيم»، معجزة خالدة، وحجة بالغة، ودستوراً دائماً، ومنهاجاً شاملاً...

أما بعد...

فإن «القرآن الكريم» : كتاب الله الخالد، وهو معجزة الرسول الكبرى، والتشريع الدائم، ومنبع الهداية، ومصدر السعادة وسلاح العزة...

وهو حجة الله على عباده، وفرقانه بين حلاله وحرامه، وهو الكتاب العظيم الذى لا تنقضى عجائبه، ويعجز الإنس والجان على أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله أو أن يصلوا إلى منتهى فهمه والإحاطة به علما...

ولقد أعلم الله سبحانه وتعالى رسوله الصادق الأمين- ﷺ- بحقائق القرآن، وأمره سبحانه بأن يبينه للناس أجمعين ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]: وامتثل ﷺ فبلّغ الرسالة وأدى الأمانة، وأفاض على صحابته الكرام البررة من نفائس العلوم وحقائقها، وأنواع المعرفة ودقائقها، قرآنا يستظهرونه ويتدبرونه ويفقهونه ويطبقونه، وسنة نبوية يهتدون بها؛ حتى أيقنوا عظمة القرآن الكريم وإعجازه، وأدركوا فضل السنة النبوية وصلاحها، وصاروا بفضل الله وهدى رسوله ﷺ هداة مهتدين وقدوة صالحة للناس أجمعين...

ثم تحرك الزمان، وتعاقبت الأيام والأعوام، وجاءت طبقات العلماء طبقة بعد طبقة، وجيلاً بعد جيل : يتدارسون القرآن العظيم وسيرة خاتم الأنبياء والمرسلين، وينهلون من فيض عطائه، علمًا نافعًا وخلقًا عظيمًا وتشريعًا حكيمًا. وجنّد المسلمون أنفسهم بالإيمان والعلم والإخلاص- حماة مخلصين للدفاع عن الدين والقضاء على الأباطيل وصد الشبهات عن القرآن العظيم

الذى لا يأتيه الباطل ولا ينال منه الحاقد، وقاموا بالدفاع عن السنة المشرفة الضاربة فى أعماق الواقع، المحمولة على أجنحة التواتر- عبر القرون - فى الصدور وفى السطور...

ونشأت علوم كثيرة تخدم القرآن الكريم والسنة المشرفة، تجمعت فى علْمين واسعين هما : « علوم القرآن الكريم »، « وعلوم السنة النبوية ». وأجرى العلماء الدراسات والتحقيقات، وألّفوا المؤلفات المطوّلات منها والمختصرات فى كل موضوع وفن، مما فاق الحصر والإحاطة وكانوا- بعملهم هذا- يريدون الشرح والتوضيح لبلوغ أكبر قدر من المعرفة بالقرآن والسنة، للعمل بهما على أكمل وجه، والمحافظة عليهما من أى إفساد أو تحريف أو اعتداء، وحتى يتقربوا بعملهم هذا إلى الكريم المنان، لينالوا المثوبة والإحسان كما قال سبحانه وتعالى ﴿ هلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

واقتداء بالسلف الصالح، فقد رغبت فى خدمة «القرآن الكريم» بجهد المقلين، وحاجة المفتقدين إلى رضا رب العالمين، فأقدمت على تصنيف كتاب أسميته «المختار من علوم القرآن الكريم» وأنا أعلم - علم اليقين- أن بضاعتى فى هذا السوق قليلة، وقدراتى في هذا المجال ضئيلة ، وموقعى بين أفاضل العلماء والمتخصصين هو في آخر الصفوف، ولكننى أقدمت على الدخول إلى رحاب هذا العمل الفسيح، متوكلاً على الله سبحانه، طامعًا في توفيقه وهداه ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [الزمر:٢٣] ... ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ... ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩] ...

كما أقدمت على تأليف المصنف- ملتمسًا العون من الله- بقدرات الباحث المسلم ومهارته فى توخى الصواب، وتتبع الحقيقة، والحرص على تقديم النافع من العلم، والثابت من القول ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:٢٧] والراجح من الرأى والحرص على الابتعاد عن الظن والتأويل ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [النجم:٢٨] والانصراف عن الآراء

الخلافية، والأقوال الجدلية وتحاشى التفريعات والجزئيات، منشغلين عنها بالأساسيات والكليات، ما أمكننا ذلك حتى نتجنب بذلك الآفات الفكرية الضارة التى بسببها تضلُّ العقول وتنحرف الأفكار، وتشوه المعارف وتختفى الحقائق. ولعلنا بكل ما ذكرنا من أدوات البحث الموهوب منها والكسبى، نحظى بالتوفيق والنجاح من الكريم الفتاح، وندخل فى معية أهل الاختصاص ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١].

وكتاب «المختار من علوم القرآن الكريم» قمت بانتقائه من بين مصنفات علوم القرآن، وراعيت فيه التوسط بعيداً عن الاستطراد المضنى والاختصار المخل، لكى يفى بالحاجة، ويحقق الغاية فى الإحاطة بعلوم القرآن، فى وقت وجيز وجهد يسير، وقد يناسب غالبية القراء بدرجاتهم الثقافية المتفاوتة والمتنوعة.

ومن المؤلفات التى استفدت منها واعتمدت عليها بصفة أساسية «كتاب مناهل العرفان فى علوم القرآن» تأليف العالم الفاضل الأستاذ الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى، رحمه الله رحمة واسعة وجزاه الله عن القرآن والعلم خير الجزاء. وفوق مااقتبسته من مؤلفات علوم القرآن. فقد أضفت مافتح الله به علينا مما سيطَّلع عليه القارئ الكريم ويلمسه الباحث المنصف والعالم المحقق. كما اخترت منهجاً مستقلاً فى عرض الموضوعات وتقديم المباحث مما سيقف عليه القارئ اللبيب.

وجاء كتاب «المختار من علوم القرآن الكريم» فى أبواب وموضوعات غير تقليدية إلى حد كبير. وتندرج تحت الأبواب فصول ومباحث.

وهو يتألف من ثلاثة أجزاء :

الجزء الأول : القرآن الكريم من التنزيل إلى التدوين والترتيل.

الجزء الثانى : إعجاز القرآن الكريم.

الجزء الثالث : وهو من بابين .

الباب الأول : نصوص القرآن الكريم فى ساحة التفسير.

الباب الثانى : المناهج والمواقف الفكرية فى دراسة القرآن.[١] ...

وبعد ... فهذا كتابنا «المختار من علوم القرآن الكريم» أقدمه للقراء الكرام، راجياً منهم الإنصاف فيما أصبت، والنصح والصفح عما أخطأت وقصرت، فالعجز من صفات الإنسان، والعصمة والكمال لله وحده سبحانه وتعالى، ولخاتم رسله وأنبيائه سيدنا محمد ﷺ الذى قال الله فى حقه ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١].

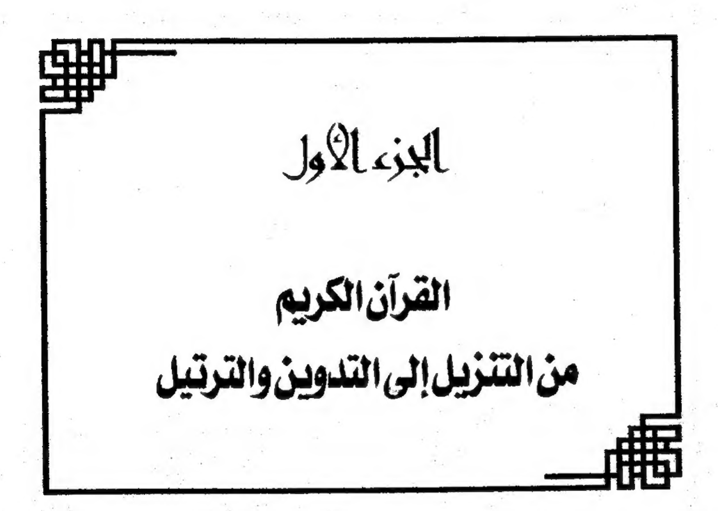
وفي الختام أسأل الله الكريم المنان أن يجعل عملى خالصًا لوجهه الكريم وأن يضعه فى ميزان حسناتى علمًا يُنتَفَع به، وأن يوفقنا على الدوام إلى خدمة عقيدة التوحيد ودين الإسلام، فهو سبحانه ولى الطائعين المتقين وهو نعم المولى ونعم النصير.

وأصلى وأسلم على السراج المنير والهادى البشير سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين .

المؤلف

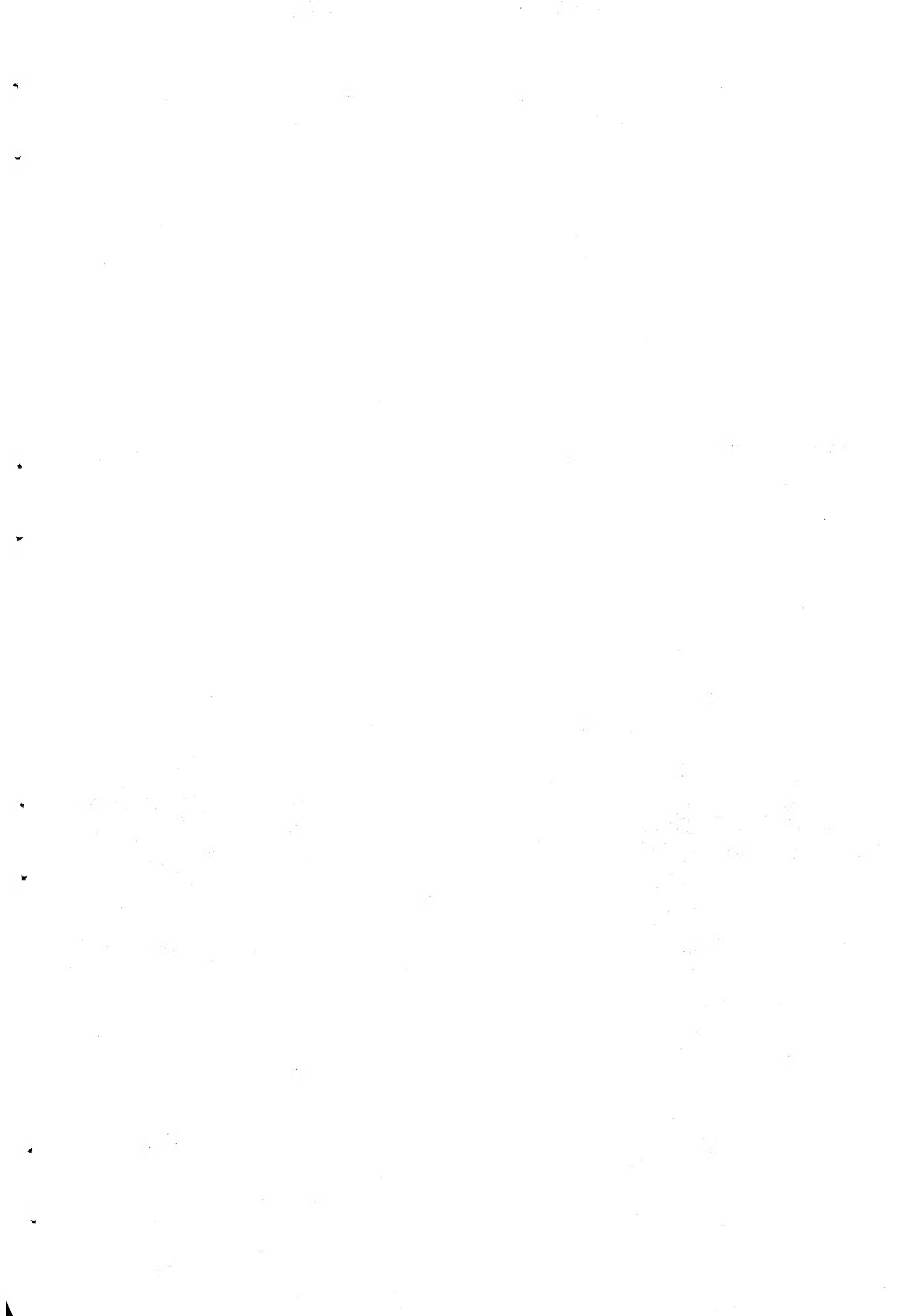
أبو الوفاء أحمد أبو الوفاء

(١) سوف نذكر فى هذا الباب بمشيئة الله مناهج المستشرقين المناهضين للإسلام فى عرضهم للإسلام بعامة والقرآن بخاصة-ولا نقول فى دراستهم لهما-إذ أنهم لا يقدمون مباحث ودراسات بقدر ما يقدمون آراء وادعائيات، كما لم يهتموا بالبحث عن الحقيقة الموضوعية بقدر مااهتموا بالتأويل والاستنباط بما تمليه عليهم عواطفهم ونزعاتهم وأغراضهم ولم يتحلوا بالصدق والإنصاف بقدر ما جنحوا إلى التقول والتلفيق وسوف يتضح ذلك كله فى الباب الرابع.



الجزء الأول

القرآن الكريم
من التنزيل إلى التدوين والترتيل



القرآن الكريم
من التنزيل إلى التدوين والترتيل

مقدمة :

يشتمل هذا الباب على مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من بداية التنزيل إلى أن صار كتابًا مسطوراً أخذه المسلمون متواتراً من فم رسول الله ﷺ : استظهره الصحابة رضى الله عنهم وحفظوه فى الصدور، ودونوه من الصحف التى كانت تكتب بين يديه ﷺ ونسخوه فى المصاحف بشكله ورسمه الذى أراده الله له، مما تحقق نقله متواتراً تلاوة وكتابة من الصحابة إلى التابعين إلى تابعى التابعين، وهكذا إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها. وصدق الله العظيم القائل وهو أصدق القائلين عن هذا الكتاب الكريم :﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:٩] ونعرض الباب فى الفصول التالية :

الفصل الأول

تعريف وتوصيف القرآن الكريم وعلوم القرآن

الموضوع الأول: تعريف وتوصيف القرآن الكريم

للقرآن الكريم تعاريف كثيرة رغم أنه عَلَمٌ قد لا يساغ أن يكون له تعريف. والمقصود من تعريف القرآن الكريم هو توصيفه بأحكم الأوصاف وأقصر العبارات ليستقر مصطلحه ومعناه فى العقل كمُسَلَّمة لفظية فلا يشاركه فى اسمه كتاب آخر. ولكن يصبح حقيقة لفظية ذات مدلول متكامل فلا تحتمل معانى أخرى.

وعند صياغة تعاريف القرآن الكريم خاض العلماء فى موضوعات دقيقة وخطيرة، وفتحوا باب العقل على متاهات المعرفة واستخدموا الآليات الجدلية

للفكر البشرى، وتحدثوا فى أمور جرّت التناطح فى الرأى مما أدى إلى الجدل والخلاف والشقاق، وتوارث المسلمون أحمالاً من التراث وأوزاراً من الصراع الفكرى والمشاحنات المذهبية، وتعرّض بعض العلماء لأخطر المواقف، ومحنة الإمام أحمد بن حنبل معروفة للكثيرين .

وكان للقرآن معانٍ عند المتكلمين، ومعانٍ أخرى عند الأصوليين والفقهاء وعلماء اللغة. ثم اتسعت المعانى لتصبح تفاصيل حساسة تمسُّ العقيدة وتُعرِّض أصحابها لأحرج المواقف. وكان المتكلمون أكثر الناس جدلاً وإطالة فى التحدث عن معنى القرآن الكريم وشاركتهم الطوائف الأخرى فى ذلك.

قالوا : إن القرآن كلام الله، وكلام الله غير كلام البشر، وكلام البشر منه اللفظى المعروف؛ ومنه الكلام النفسى وهو تحضير الإنسان فى نفسه بقوته المتكلمة الباطنية للكلمات التى لم تبرز إلى الجوارح فيتكلم بكلمات متخيّلة يُركِّبها فى الذهن، فهو تلك الكلمات النفسية والألفاظ الذهنية المترتبة ترتيباً ذهنيًا منطبقًا على الترتيب الخارجى»

كذلك القرآن كلام الله- ولله المثل الأعلى - قد يطلق ويراد به الكلام النفسى، وقد يطلق ويراد به الكلام اللفظى، والذين يطلقونه إطلاق الكلام النفسى هم المتكلمون فحسب لأنهم المتحدثون عن صفات الله النفسية... أما الذين يطلقونه إطلاق الكلام اللفظى فالأصوليون والفقهاء وعلماء العربية، وإن شاركهم فيه المتكلمون أيضًا، بإطلاق ثالث عندهم ما يتبين لك بعد ...

وقالوا: إنه كلام الله، وكلام الله قديم غير مخلوق فيجب تنزهته عن الحوادث وأعراض الحوادث.

وقالوا : إنه الصفة القديمة المعلقة بالكلمات الحكيمة من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس... [1] ا. هـ باختصار

(١) مناهل العرفان : ص ٨، ٩، ١٠.

ونورد بعض التعاريف[١] فيما يلى :

* عند المتكلمين :« تلك الكلمات الحكيمة[٢] الأزلية المترتبة فى غير تعاقب، المجردة عن الحروف اللفظية والذهنية والروحية »[٣].

* عند الأصوليين والفقهاء وعلماء العربية : « الكلام المعجز المنزل على النبى ﷺ المكتوب فى المصاحف، المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته »[٤] .

* « اللفظ المنزل على النبى ﷺ المنقول عنه بالتواتر المتعبد بتلاوته »[٥].

* والذين اختصروا وأوجزوا فى التعريف : منهم من اقتصر على ذكر وصف واحد وهو « الإعجاز » ووجهة نظرهم أن الإعجاز هو الوصف الذاتى للقرآن وأنه الآية الكبرى على صدق النبى ﷺ والشاهد العدل على أن القرآن كلام الله.

ومنهج الذى اختصر على وصفين : « هما الإنزال والإعجاز » - ومنهم من اقتصر على وصفى « النقل فى المصاحف، التواتر » لأنهما يكفيان فى تحصيل الغرض، وهو بيان القرآن وتمييزه على جميع ماعداه.

* وسبق أن قلنا بأن تعريف القرآن هو توصيفه بأحكم الأوصاف وأقصر العبارات ليستقر مصطلحه ومعناه كمُسَلَّمة لفظية، وعليه فإننى أقدم التعريف التالى :

« القرآن الكريم : هو علم الله تنزل به الروح الأمين جبريل - عليه السلام - على قلب خاتم الرسل والأنبياء سيدنا محمد ﷺ كلامًا عربيًا معجزاً وتلاه

---

(١) فإذا أردنا تعريف القرآن تعريفًا تحديديًا فلا سبيل إلى ذلك : إلاَّ أن نشير إليه مكتوبًا فى المصاحف أو مقروءاً باللسان فنقول مثلاً : « القرآن هو هذا المكتوب بين دفتى المصحف » أو نقول : هو (بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين .. ثم نستمر فى القراءة حتى آخر آية منه وهى قوله تعالى « من الجِنَّة والناس »)...
هذا هو التعريف الصحيح المحدود للقرآن الكريم ... أما ما عرفه به بعض العلماء من التعاريف المنطبقة بالأجناس والفصول والخواص مثل قولهم. القرآن هو كلام الله تعالى المنزل على محمد (ص) المتعبد بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه فإنما أرادوا به تقريب معناه وتمييزه عما عداه. (التفسير العلمى للقرآن الكريم ص ١٠)

(٢) الحكيمة : أى أنها ليست ألفاظاً حقيقية مصوَّرة بصورة الحروف والأصوات .

(٣) المرجع السابق ص ١١. (٤) المرجع السابق ص ١٢. (٥) المرجع السابق ص ١٣.

الرسول ﷺ وأمر بكتابته والتعبد به، وأخذه الصحابة من فمه الشريف واستحفظوه فى الصدور وفى المصاحف، ونقله المسلمون بالتواتر». وبالنظر فى هذا التعريف يتبين الآتى:

أولاً : التعريف استند إلى النصوص القرآنية فى قوله تعالى : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٣، ١٩٤].

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٩٧].

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر:٢٨].

﴿لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦]. ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٦-١٧].

﴿الم (١) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١، ٢]. ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٣، ٢٤].

ثانيًا : جمع التعريف أهم خصائص القرآن الكريم : علم الله - تنزل وحيًا- كلامًا عربيًا- الإعجاز- التواتر عن رسول الله مشافهة وبالكتابة فى المصحف - المتعبد به.

ثالثًا : أخرج التعريف من القرآن الكريم :الأحاديث القدسية، ولكل قراءة قرآنية غير متواترة، وكل ما هو غير موجود بالمصاحف .

ومما يجب التنبيه إليه هو أن كلمة (القرآن) قد تطلق على الكل ، وقد تطلق على أبعاضه. فيقال لمن قرأ اللفظ المنزل كله : إنه قرأ قرآنًا . وكذلك يقال لمن قرأ ولو آية منه : إنه قرأ قرآناً.

(*) القرآن مصدر على وزن (فعلان) تقول : قرأ يقرأ قرءاً ، وقراءة ، وقرآنا ، وكلها بمعنى التلاوة .. ثم نقل اللفظ بعد ذلك إلى الاسمية فصار علم شخص على كتاب الله الكريم وعلى هذا [illegible] قوله تعالى (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) الإسراء ٩ وهو إشارة إلى أنه كتاب موصوف [illegible]قراءة وقد تحقق هذا وأصبح القرآن محفوظًا بكثرة قراءته على ألسنة المسلمين.

التسميات :

١- القرآن : وهو أشهر الأسماء ، وقد ذكر هذا الاسم فى كتاب الله مايقرب من « سبعين مرة » في آيات متعددة فى سور متفرقة، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج ٢١ . ٢٢].

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة:١٨٥].

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ... ﴾ [الإسراء:٩].

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ [الإسراء:١٠٦].

ومن ذلك الحين ولفظ القرآن عَلَمَ على الكتاب المنزل على الرسول ﷺ ، لم يشترك معه فى هذا الاسم سواه، ولم يسم به شئ آخر.

٢- الفرقان : تسمية للمفعول أو الفاعل باعتبار أنه الكلام الفارق بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:١]. أو مفروق بعضه عن بعض وذلك من قوله تعالى: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ... ﴾ [الإسراء:١٠٦].

٣- الكتاب : وذلك فى قوله تعالى: ﴿ الم (١) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:١، ٢].

٤- الذِّكْر : وذلك فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]. وقوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران:٥٨].

٥- التنزيل : وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء:١٩٢]. نظراً لأنه منزل من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة .. ومن

(*) الكتاب : الأصل فيه أنه مأخوذ من (الكتب) بفتح الكاف وإسكان التاء المثناة، وهو ضم أديم إلى أديم بالخياطة، ثم نقله العرف إلى ضم الحروف بطريق الخط... والكتابة وجمع الحروف، ورسم الألفاظ. وفى تسميته بـ «الكتاب» إشارة إلى أنه مختص بصفة التدوين والكتابة.وقد تحقق هذا من أول نزوله، وأصبح القرآن أكثر الكتب المكتوبة على الإطلاق وأصبح محفوظًا بالتدوين كما هو محفوظ بالقراءة والتلاوة.

السماء الدنيا إلى قلب محمد ﷺ وهذه الألفاظ الأربعة الأخيرة جاءت فى القرآن الكريم وأطلقت فى بعض استعمالاتها على القرآن .

« ولقد تجاوز صاحب البرهان حدود التسمية فبلغ بعدتها خمسة وخمسين ، وأسرف غيره فى ذلك حتى بلغ نيفًا وتسعين كما ذكره صاحب التبيان ، واعتمد هذا وذاك على إطلاقات واردة فى كثير من الآيات والسور وفاتهما أن يفرقا بين ما جاء من تلك الألفاظ على أنه اسم وما ورد على أنه وصف ويتضح ذلك على سبيل المثال فى عدهما من الأسماء لفظ « قرآن » ولفظ « كريم » أخذاً من قوله تعالى «إنه لقرآن كريم» ، وعلى حين أن لفظ قرآن مقبول لكونه اسماً أما لفظ كريم فهو وصف [1] أ. هـ. بتصرف .

الموضوع الثانى: توصيف القرآن الكريم

لا يسع أحد من البشر أن يحيط وصفاً أو فهماً بالقرآن الكريم فهو عِلْم الله ومن ذا الذى يحيط بعلمه سبحانه وتعالى ؟! ...

وفى توصيفنا للقرآن الكريم سوف نكتفى ببعض الشواهد من القرآن الكريم ومن السنة المشرفة ، بالإضافة إلى قول خصوم معاندين من كفار قريش لم يستطيعوا أن يخفوا إعجابهم بالقرآن الكريم فقد كانت قريش أهل فصاحة وبيان ولكن غلب عليهم العناد والاستعلاء.

١- شواهد من القرآن الكريم:

﴿ الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر: ١] .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧].

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء ٨٢].

---

(١) مناهل العرفان ص٨.

﴿ يسٓ ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس: ١-٣].

﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ [ص: ١، ٢].

﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ [ق: ١، ٢].

٢- شواهد من السنة النبوية :

وعن وصف القرآن الكريم يقول النبى ﷺ « كتاب الله فيه نبأ مَنْ قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه، هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به﴾، من قال به صدق ، ومن عمل به أُجِر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هُدِى إلى صراط مستقيم»[1].

٣- ومن أقوال فصحاء العرب من كفار قريش :

* قال الوليد بن المغيرة بعد أن استمع إلى القرآن ، يتلوه النبىﷺ ، موجها حديثه إلى كفار قريش «وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار منى ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده منى ، ولا بأشعار الجن،والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا ، ووالله إن لقَوْله الذى يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلوا وما يُعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته».

ولما عاد المغيرة إلى عناده واستكباره واستجاب لتحريض أبى جهل

---

(١) «رواه الدرامى بسنده عن الحارث الأعور : قال : دخلت المسجد فإذا أناس يخوضون فى أحاديث، فدخلت على علىّ ، فقلت : ألا ترى أناسا يخوضون الأحاديث في المسجد ؟ . فقال : قد فعلوها؟ قلت : نعم . قال : أما إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :«ستكون فتنًا . قلت وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ....» الحديث.

وعصابته لم يجد ما يقوله إلاَّ عبارة طيش وسفه فقال «هذا سحر يؤثر بأثره عن غيره»..

وفي هذا الموقف نزل قوله تعالى ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ﴾ [المدثر: ١١-٢٨].

* وقال عتبة بن ربيعة - وهو من رجالات قريش وأصحاب الرأى فيها ، عندما استمع إلى القرآن ولم يستطع أن يقاوم تأثره بعظمة القرآن وبيانهُ وقوة سلطانه، وقد تلا عليه النبى ﷺ أول سورة فصلت ﴿حم (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ١-٨].

واستمر رسول الله ﷺ فى قراءته حتى بلغ السجدة من السورة فى الآية رقم ٣٨[١] فسجد ، وفى أثناء تلاوته كان عتبة منصتا حتى انتهى رسول الله ﷺ - عاد إلى أصحابه المشركين فأعلنهم بالحقيقة التى لم يستطع إنكارها بينه وبين نفسه قال: إنى سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعونى، واجعلوها بى، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ عظيم...»[٢].

---

(١) ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

(٢) راجع نهاية الإرب للنويرى جـ١٦ ص٢٠٩ - ٢١١.

الموضوع الثالث: التعريف بعلوم القرآن الكريم

كان القرآن الكريم موضع العناية الكبرى من النبى ﷺ وصحابته رضى الله عنهم ومن جاء بعدهم من التابعين وتابعى التابعين حتى عصرنا هذا ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وذلك تحقيقا لقوله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

* ففي عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى عهد الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ، اتخذ الاهتمام بالقرآن أسلوبين أساسيين هما :

الأسلوب الأول : الحفظ والاستظهار، وتلاوة القرآن وكثرة التعبد بتلاوته فى الصلاة. فكان الرسول ﷺ وصحابته رضى الله عنهم يقرءون السور الطوال وأجزاء كبيرة من القرآن فى صلواتهم خاصة وفى نوافلهم فى قيام الليل حتى أنه ﷺ كان يقرأ البقرة ، وآل عمران والنساء فى ركعة واحدة فى صلاة الليل أحيانًا.

وكذلك كان يفعل بعض الصحابة ، كما كانوا يداومون على تلاوة القرآن(١)

الأسلوب الثانى : تدارس القرآن وفهمه والعمل به ، فقد أخذه الصحابة علما وعملا واعتقادا .قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن ويعمل بهن.

وكانت الأصالة العربية وسلامة اللسان العربى تساعد الصحابة على سهولة فهم القرآن وتلاوته. وكان الاعتبار والتدبر وصدق العمل هو مقصدهم من فهم القرآن. ولم تكن لدى الصحابة أدنى مشكلة . لاجتماعهم على لغة القرآن الكريم - فى قراءة القرآن على أحرفه السبعة التى تنزل بها والتى تؤديها الكلمات القرآنية التى كانت معجمة (أى غير منقوطة)، وغير مشكلة ، وقد تلقوا قراءة القرآن مشافهة عن رسول الله ﷺ . كما أنهم لم يخرجوا عن الاهتمامات الجوهرية بالقرآن الكريم وهى : سلامة النطق والتلاوة ، وفهم القرآن بما يحقق ما وراء ذلك من المعارف التى تباعدهم

---

(١) وقرأ ﷺ فى ليلة واحدة وهو وجع السبع الطوال : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والتوبة ... وكان أحيانًا يقرأ فى كل ركعة بسورة منها .. ورخص لعبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن يقرأ القرآن فى خمس .. ثم رخص له أن يقرأه فى ثلاث. صفة صلاة النبى ﷺ ص ٨٧.

عن مقاصد القرآن باعتباره كتاب هداية وإعجاز وتشريع، والتى قد تقذف بهم إلى متاهات العلم وشطحات الفكر ، وصراعات الجدل . لهذا لم يشغلوا أنفسهم بما انشغل به المتأخرون فى دراسة القرآن الكريم مماهو واقع فى مجال الظن ، فإن الظن لا يغنى من الحق شيئًا، ولم ينغمسوا فى المتاهات التى قد تقودهم إلى ما يشبه الترف الفكرى ، وعلى سبيل المثال : فهم لم يكونوا حريصين على معرفة الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور مثل : الم ، حم ، ص، ق، كهيعص ، ولم يسألوا رسول الله ﷺ عنها إذ لو سألوه لتواترت معانيها موقوفة عنه ﷺ ؛ وهم لم ينشغلوا بإيجاد الفوارق بين المكى والمدنى وطرح الآراء الكلامية حول ذلك وأنهم كانوا ملتزمين بالوقوف والتواتر فلم تكن هناك حاجة إلى الخوض فى موضوعات كثيرة مثل : تعريف القرآن ومعناه، وتنزل القرآن ونزول القرآن على سبعة ، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ إلى غير ذلك من الموضوعات التى تتفرع حولها الآراء وتتباين، ويقوم حولها الجدل ويشتد حولها الصراع وتصبح علوم القرآن الكريم ساحة للقتال ومصدراً للخلاف والشقاق، مما يباعدهم عن حقيقة القرآن الكريم ، لهذه الأمور كلها ترفَّع الصحابة وتحرجوا عن الخوض فى دراسة القرآن الكريم بما يشغلهم عن مقاصده أو يحجبهم عن منافعه وفوائده.

وجملة القول أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يعرفون عن القرآن فوق ما عرفه العلماء فيما بعد ، دون ما حاجة إلى ما هو خارج عن المطلوب معرفته لفهم القرآن والعمل به ، وبذلك توفرت لديهم علوم القرآن اللازمة والمفيدة ، وإن لم تكن فنونًا مدونة أو كتبًا مؤلفة وكانت الرواية والتلقين أهم من الكتابة والتدوين .

* وجاءت طبقة العلماء من بعد التابعين وظل القرآن - كذلك - موضع العناية بل موضع التقديس والرعاية، ومن شدة محبتهم وتقديسهم وحرصهم على المحافظة عليه أفاضوا فى دراسته وتوسعوا واستطردوا فى البحث فى جوانب متعددة ، حتى بلغ بعضهم حد الإفراط فوقعوا فى المحظور من الأغلاط مما تشهد عليه أقوالهم وتركوا القاعدة الأصولية اللازمة لكل أمر « لا إفراط ولا تفريط، كما أن « خير الأمور الوسط » قاعدة إسلامية تحكم جميع الأعمال؛ وعلى أية حال فمن اجتهد

وأصاب فله أجران، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر، وإنما الأعمال بالنيات ، فجزاهم الله عنا خير الجزاء ونفع بعلمهم .

* واتخذت العناية بالقرآن الكريم أشكالاً مختلفة من ناحية لفظه وأدائه ، وكتابته ورسمه ، وتفسيره وشرحه... إلخ وقام العلماء المسلمون بالتأليف والتدوين فى هذه الموضوعات وغيرها، ونشأ بذلك الكثير من العلوم الخاصة بدراسة القرآن الكريم وتكون منها ما أسموه (علوم القرآن). وهكذا أصبح بين أيدينا الآن مصنفات متنوعة وموسوعات قيمة فيما نسميه : علم القراءات ، وعلم التجويد ، وعلم النسخ العثمانى ، وعلم التفسير ، وعلم إعجاز القرآن ، وعلم إعراب القرآن ؛ وما شاكل ذلك من العلوم الدينية والعربية مما يعتبر بحق أروع مظهر عرفه التاريخ «لحراسة كتاب الله»(١) أ.هـ بتصرف .

وبما أن الحديث النبوى شارح للقرآن الكريم كما قال تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤] .

فإنه وعلومه تكون فى مقدمة العلوم . وكان (التفسير) من أوائل علوم القرآن التى اشتغل بها العلماء، وأقبلوا عليه باعتباره (أمَّ) العلوم القرآنية لما فيه من التعرض لها فى كثير من المناسبات عند شرح القرآن الكريم .

* ومن الكتب التى ظهرت فى « فن علوم القرآن » كما ورد فى مناهل العرفان :

١- « البرهان فى علوم القرآن لعلى بن إبراهيم بن سعيد، الشهير بالحوفى ، المتوفى سنة ٣٣٠هـ، وهو يقع فى ثلاثين مجلدا ، والموجود منها الآن خمسة عشر مجلدا، غير مرتبة ولا متعاقبة من نسخة مخطوطة.

٢-فنون الأفنان فى علوم القرآن ، والمجتبى فى علوم تتعلق بالقرآن ؛ ألفهما ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، وكلاهما مخطوط بدار الكتب العربية.

٣- جمع القرآن : ألفه علم الدين السخاوى المتوفى سنة ٦٤١ هـ.

٤- المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز : ألفه الوشامة سنة ٦٦٥ هـ .

---

(١) مناهل العرفان ص٤.

٥- البرهان فى علوم القرآن : ألفه بدر الدين الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤ هـ ا.هـ باختصار.

وأخذت علوم القرآن تنمو وتتزايد بفضل جهود علماء المسلمين حتى تم تتويج التأليف فيها بالكتاب الذى ألفه « الإمام السيوطى » وأسماه « كتاب الإتقان فى علوم القرآن » وهو عمدة الباحثين والكاتبين والدارسين لهذا الفن ، ذكر فيه ثمانين نوعا من أنواع علوم القرآن على سبيل الإجمال والإدماج [١] ثم قال بعد أن سردها نوعًا نوعًا : لو نُوِّعت باعتبار ما أدمجته فيها لزادت على الثلاثمائة .

وفى العصر الحديث نشط التأليف وظهرت المؤلفات فى هذا العلم ومنها على سبيل المثال :

«التبيان فى علوم القرآن » ألفه طاهر الجزائرى ، وفرغ من تأليفه سنة ١٣٣٥هـ.

«منهج الفرقان فى علوم القرآن » ألفة الشيخ محمد على سلامة... وتوجد مؤلفات فى بعض مباحث علوم القرآن لكثير من أفاضل العلماء نذكر من بينهم الأعلام المرحومين : الشيخ محمد بخيت، والشيخ محمد حسنين العدوى ، والشيخ محمد خلف الحسينى، إذ كتبوا فى نزول القرآن على سبعة أحرف ، وفى بعض مباحث أخرى . والسيد مصطفى صادق الرافعى إذ ألف فى إعجاز القرآن كتابًا جليلاً.. هذا بجانب المؤلفات العديدة فى تفسير القرآن الكريم، ومنها على سبيل المثال لا الحصر : « **أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن** » تأليف الشيخ محمد الأمين الشنقيطى ، وتفسير للشيخ حسنين محمد مخلوف ، وفى «**ظلال القرآن**» للأستاذ سيد قطب ...

وخلاصة القول أن علوم القرآن كفن مدوَّن ، أظهره « الحوفى » وتتابع العلماء المسلمون فى رعايته وتنميته على مر القرون حتى أصبح على ما هو عليه الآن من استقرار واتساع وتنوع ، وسوف يبقى هذا العلم إن شاء الله فى النمو والاتساع والتنوع ما بقى الإسلام وعقيدته السمحاء، وما بقى المسلمون على طاعتهم

---

(١) المرجع السابق ص٣٠.

ومحبتهم للرسول الخاتم سيدنا محمد ﷺ وما بقى التعظيم والحفظ والاهتمام بالقرآن الكريم المعجزة الخالدة ومنهاج الحياة الأفضل.

• قاعدة منهجية أصولية لدراسة القرآن الكريم :

« قاعدة تكامل الحقيقة »

ونختتم مبحث التعريف بعلوم القرآن بفائدة هامة وهي « قاعدة تكامل الحقيقة » باعتبارها قاعدة منهجية أصولية لدراسة القرآن الكريم ولتكون قاعدة « ضابطًا لعلوم القرآن » ويلتزم بها كل من يريد تقديم دراسات عن القرآن الكريم وتبين القاعدة فيما يلى :

إذا ما توصل العلماء إلى حقيقة كونية فإن أبحاثهم ودراستهم فيما بعد تتجه صوب هذه الحقيقة لتضيف إليها حقائق جزئية جديدة وذلك وفقا للمنهج العلمى في البحث عن المعرفة المنظمة للظواهر والتعرف على العلاقات بينها ، والبحث عن القوانين الكامنة والخارجية التى تنظم كل شئ فى الوجود وتتبع الغائية والكمال والحكمة فى خلق الأشياء ...

والتزامًا بالقاعدة العلمية وهى أن « النتائج الصادقة المتحصلة من استقراء الظواهر يجب التمسك بها ضد كل فرض مضاد »[١].. (فمثلا) فى دراستنا لكوكب الأرض .. الذى نعيش فيه - ثبت للعلماء فى كافة فروع العلوم الطبيعية (حقيقة أن الأرض قد هيأها الله لحياة الإنسان وسخر كل ما فيها له). فحجمها ، وكتلتها ، وبُعدها عن الشمس وسرعة دورانها ، وطبيعة أرضها ، وتضاريسها ، ووجود الماء بها ... إلخ كلها تؤكد هذه الحقيقة ، وعليه فكل البحوث والدراسات يجب أن تتجه نحو هذه الحقيقة لاستجلائها وتأكيدها ولإضافة حقائق جزئية .. وكل دراسة أو نظرية أو فرض يناقض تلك الحقيقة الكونية . فهى مرفوضة لتعارضها مع تلك الحقيقة الكبرى ألا وهى « تهيئة الأرض وصلاحها لحياة الإنسان »...

* فإذا انتقلنا إلى « معجزة القرآن الكريم » وهى حقيقة كبرى » - واقعيًا وتاريخيًا وعلميًا - فإنه من الواجب أن يتمسك العلماء والدارسون من المسلمين

---

(١) طبيعة القانون ص٢١.

بالمنهجية السليمة التى تليق بدراسة هذه الحقيقة الكبرى وأن يطبقوا (قاعدة تكامل الحقيقة) على دراساتهم بحيث إنها تتجه نحو استجلاء وتأكيد «الحقيقة القرآنية» ولا تتعارض معها ، بل إنها تضيف «حقائق جزئية» إلى تلك «الحقيقة الكبرى» وبحيث تصبح الدراسات الناقضة والصادمة « لهذه الحقيقة الكبرى »دراسات غير سليمة ومرفوضة طبقا (لقاعدة تكامل الحقيقة) . وليس من المقبول أن يُحَرِّم علماء الطبيعة حقائقهم العلمية ولا يقبلون فروضا تعارضها ، بينما يتهاون العلماء المسلمون فى الحقيقة القرآنية ، ويتركون دراسات تتعارض معها، فلا يردونها.

*****

الفصل الثاني

نزول القرآن وجمعه وكتابته

يشتمل هذا الفصل على مباحث بها دراسات عن القرآن الكريم بدءاً من نزوله إلى أن صار كتابًا مسطوراً ومصحفًا مطهراً يتلوه المسلمون .

موقوفا عن رسول الله ﷺ - بالتواتر قراءة واستظهاراً وينقله الخلف عن السلف بدقة ومهارة، وصدق وأمانة ، وتقديس ومهابة وحرص ومحافظة، تحقيقا لقوله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ولقد أنعم الله سبحانه وتعالى بالمخترعات تترى لتساير التواتر وتسانده مما جعل حفظ القرآن الكريم أشد تأكيداً ، وأقوى ضمانًا وتوثيقًا ، وصار حفظ القرآن الكريم يتعاظم عاما بعد عام : فمن مخترعات الطباعة المتقدمة صفحات مطبوعة ، وأفلام مصورة ، إلى أجهزة للتخزين والحفظ مسموعة ومقروءة في منتهى الدقة والأمانة ، ولعل مشيئته سبحانه وتعالى، وحكمته وإرادته هي التى أوجدت هذه المخترعات تسخيراً لحفظ كتاب الله ، وتيسيراً لنشره وتعليمه . والناظر في مراحل تواتر الحفظ للقرآن الكريم يجدها متلاحقة ومتصلة، فلم يكد المسلمون يبرعون في الكتابة ويتوسعون في نسخ المصاحف باليد حتى جاءت المطابع ثم تلتها أجهزة التسجيل الصوتية (الحاكي) ، وجاءت بعدها وسائل التسجيل الصوتية والمرئية على عجل، بإتقان وبراعة، خدمةً لكتاب الله العزيز وتسخيراً لحفظه وصيانته.

المبحث الأول

نزول القرآن مفرقا

لا يخفى أن مبحث نزول القرآن الكريم هو من أهم مباحث علوم القرآن إذ أنه يشرح مرحلة هامة وهي التقاء خبر السماء من الله - وحيا - بالرسول المجتبى سيدنا محمد ﷺ ، لينتقل القرآن الكريم إلى عالم المشاهدة بعد أن كان محجوبا في عالم الغيب . العلم بنزول القرآن الكريم أساس للإيمان لأن القرآن من عند الله وأساس للتصديق بنبوة سيدنا محمد ﷺ وأنه رسول موحى إليه.

ولموضوع نزول القرآن جانبان : جانب غيبي يكفى فيه الإيمان والتصديق، وسوف نتعرض له باختصار، والجانب الآخر. هو الجانب الشاهد وهو الذى يجب على المسلم أن يعرفه حق المعرفة بقدر استطاعته ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

الموضوع الأول : معنى نزول القرآن الكريم

النزول : فى استعمال اللغة العربية يراد به الحلول فى مكان ، كما أن (النزول) يطلق إطلاقًا آخر فى اللغة على انحدار الشيء من أعلى إلى أسفل وكلا هذين المعنيين لا يناسبان القرآن الكريم لما يلزم هذين المعنيين من المكانية والجسمية . والقرآن في انتقاله من مكانه الغيبي إلى قلب النبى ﷺ لم يكن شيئًا منحدراً من أعلى إلى أسفل . مشابهة لنزول المطر مثلاً . والأمر يتطلب أن ننتقل بمدلول الكلمة اللغوى المتعلق بالأشياء وما يرتبط به من تصورات الكيف والزمان والمكان إلى مدلول مطلق يعبر عن الحقيقة دون أن يكون له مطابقة بالمدلول المتعلق بالأشياء طالما أن الأمر يتعلق بموضوع غيبى ، وبحيث تدخل الكلمة فى مدلول اصطلاحى يناسب القرآن الكريم ، على ألا يبتعد المدلول الاصطلاحى عن المدلول اللغوي فى المفهوم ودون تجاوز أو مجاز ، فيكون النزول الاصطلاحى فى قوله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] بمعنى الحلول دون تشبيه بالحلول المادى ، وبهذا يكون نزولاً يليق بالقرآن كما يليق بقلب النبى ﷺ . على أن يكون المعنى الحقيقى للنزول هو المعنى الذى يتعلق بالقرآن وقلب النبى ﷺ ويكون النزول المعنى الحسى هو من باب تقريب معانى الكلمات ، أى أن (الكلمة) يكون مرادها الحقيقى ما يتعلق بالمعنويات ، والمراد الآخر أن تكون حقيقة معانيها خارجة عن نطاق القيد الحسى وذلك عند استعمالها في التعبير عن الغيبيات ، وعليه يكون معنى كلمة (نزول) عند تعلقها بالقرآن الكريم، غير معنى (نزول) عند تعلقها بالمطر، مثلاً : فالأول يكون معنى مطلقًا يليق بالقرآن، والثانى يكون حسيا يصور النزول من أعلى إلى أسفل أو الحلول المكانى»[١].

---

(١) فمثلا كلمة (وجه) هى مقدم الشئ وأظهر جزء فيه وهى ذات مدلول معنوى ، ثم انتقلت من هذا المعنى العام لتصبح معنى حسيًا وهو وجه الإنسان . وهذا ما نريد أن نذهب إليه فى هذا الانتقال من المدلول المعنى أو المدلول العام إلى المدلول الحسى وليس العكس أى لا يكون معنى كلمة الوجه أصلها للدلالة على وجه الإنسان ، ثم استخدمت بعد ذلك كمعنى عام للدلالة على(مقدم الشىء) ثم إلى المدلول المعنى وهو أبهى جوانب الشىء ومنه (وجيها فى الدنيا والآخرة) آل عمران ٤٥.

الموضوع الثانى : تنزلات القرآن الكريم

ونقصد بتنزلات القرآن الكريم : انتقال القرآن إلى اللوح المحفوظ ثم إلى السماء الدنيا ثم نزوله وحيًا منجمًا- أى مفرقًا- على النبى ﷺ .

واعلم بأن أكثر ما يتعلق بمراحل هذا النزول أمور غيبية ، فيجب عدم التوسع والخوض فى تفاصيل لا علم لنا بها، لتحاشى الظن فى أمور يحتاج القول فيه إلى العلم والتوقيف، ولتجنب القول بالرأى الذى يؤدى إلى كثرة الجدل العقيم والصراع الفكرى والخصام ، وليس من وراء الخوض فى التفاصيل أدنى فائدة. والمطلوب هو التسليم بالجوانب الغيبية ونفوض حقيقة العلم بها إلى الله سبحانه وتعالى ، وهذا هو شأن المؤمنين الذين قال فيهم رب العالمين فى سياق الحديث عن القرآن الكريم وذلك فى قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ① ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ... ﴾ [البقرة:١-٣].

تنزُّلات القرآن الثلاثة

يمكن الاستدلال بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية على أن القرآن الكريم تنزل على ثلاثة تنزلات.

* ويؤخذ تاريخ نزول القرآن من نفس القرآن العظيم ، فقد تحدد نزوله بشهر بعينه وشاهد ذلك قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقرر نزوله فى ليلة مباركة ، قال تعالى ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر:١] وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ [الدخان:٣]. ثم توالى نزول القرآن وحيا من عند الله سبحانه وتعالى على قلب النبى ﷺ منجمًا - أى مفرقا - والشواهد على ذلك من القرآن الكريم كثيرة منها : قوله تعالى ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦]. وقوله تعالى ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة:٩٧].

وقوله تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ④ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم:٤، ٥].

« وثبت بالإجماع أن نزول القرآن من السماء الدنيا على النبى ﷺ بدأ فى السنة الأولى لبعثته ﷺ، وقد كانت بعثته فى القول المشهور الذى يأخذ به الجمهور بعد أربعين سنة من ميلاده ﷺ وكان ميلاده ﷺ فى عام الفيل على القول المعتمد وذلك يوافق عام ٥٧٠م [١] ا.هـ.

ونقدم التنزلات الثلاثة فيما يلي :

التنزل الأول للقرآن الكريم

وهو التنزل إلى اللوح المحفوظ ، ودليله من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ㉑ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج:٢١، ٢٢]. وهذا التنزل غيبى بحت ، كما أن اللوح المحفوظ - وهو من مخلوقات الله - شيء غيبى وكل ذلك واقع فى علم الله ومشيئته ، ولا يحق لنا أن نخوض مع الخائضين بحثًا فى هذه الأمور الغيبية بل يجب علينا أن نقف عندها مؤمنين وعن معرفة حقيقتها عاجزين . فالتصديق والتسليم أمران مطلوبان فى مثل هذه الأمور الغيبية وذلك التزامًا بالأسس الإيمانية التالية:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] -﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[البروج:١٦]- ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:٢٥٥] - ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة:٢، ٣].

وكذلك من خلال الدليل العقلى وهو أن الإنسان لا يعلم كل موجود فى هذا الكون، وأن وجود المخلوقات فى هذا الكون لا يقع كله تحت التصور الذهنى أو الإدراك الحسى ، وسوف نتحدث عن ذلك بتوسع فى مبحث آخر بعنوان « قدرات الله وعلمه ».

* واعلم أن « حكمة نزول القرآن فى اللوح المحفوظ ترجع إلى الحكمة العامة من

---

(١) منار الإسلام ص ٩ أغسطس ١٩٩٠.

وجود اللوح نفسه وإقامته سجلاً جامعًا لكل ما قضى الله وقدَّر وكل ما كان وما يكون »[١] ا.هـ.

ولا ضير أن يقف الماديون - الذين اقتصر نشاطهم العقلي على المحسوس من الأشياء ، وقد شاهدوا الدنيا من حولهم في المحسوس من الماديات - موقف الجهالة والإنكار، وهم بهذا الموقف القاصر قد ناقضوا حقيقة تكوينهم الفكرى ، وما أودعه الله فيهم من عقل يتطلع دائما إلى المجهول إدراكا من الإنسان بوجود أشياء من حوله ليست واقعة فى دائرة حسه وإدراكه، وقد يدرك بعضها ويظل الباقى غيبا.

ويمكن القول بأن تنزل القرآن إلى اللوح المحفوظ هو بمثابة البداية لظهوره والعلم به وفق مشيئة الله وهو الحكيم العليم.

التنزل الثانى للقرآن الكريم

والمقصود به نزول القرآن الكريم من اللوح المحفوظ إلي السماء الدنيا والشواهد من القرآن على ذلك كثيرة : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ [الدخان:٣] وقوله ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر:١] ومن الثابت أن نزول القرآن على النبي ﷺ كان مفرقا على مدى سنوات بعثته ﷺ ، وليس فى ليلة واحدة ، فتعين أن يكون النزول فى ليلة واحدة الذى أشارت إليه الآيات القرآنية هو ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ...﴾ [الإسراء: ١٠٦] وقد جاءت الأخبار الصحيحة مبينة لمكان هذا النزول - وأنه فى بيت العزة من السماء الدنيا - وهو مكان غيبى ليس للبشر علم به - ومنها أحاديث صحيحة كما قال الأسيوطى، وهى موقوفة على ابن عباس رضى الله عنه:

١- عن ابن عباس أنه قال « فصل القرآن من الذكر ، فوضع فى بيت العزة من السماء الدنيا ، فجعل جبريل ينزل به على النبى ﷺ (أخرجه الحاكم).

٢- عن ابن عباس أيضا أنه قال « أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر » (الحديث)- أخرجه النسائى.

---

(١) مناهل العرفان ص٣٦.

«وكان هذا النزول جملة واحدة فى ليلة واحدة هى ليلة القدر كما علمت لأنه المتبادر من نصوص الآيات السابقة وللتنصيص على ذلك فى الأحاديث التى عرضناها عليك ، بل ذكر السيوطى أن القرطبى نقل حكاية الإجماع على نزول القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا»[1] ا.هـ بتصرف

وعلى أية حال فإن التنزل الثانى من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا هو أيضا من الأمور الغيبية البحتة التى يجب التصديق بها والإيمان بها حسب مقتضيات التفكير العقلى الإيجابى وأساسيات المنطلق الإيمانى التى أشرنا إليها.

التنزل الثالث للقرآن الكريم

والمقصود به: نزول الوحى بالقرآن مفرقًا - أى منجمًا- على النبى ﷺ بأمر من الله سبحانه وتعالى . والشواهد من القرآن على ذلك كثيرة ، ومنها:

قوله تعالى : ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢].

وقوله تعالي: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]. وقوله تعالى ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٧].

* وهذا التنزل الثالث للقرآن الكريم ، هو المرحلة الأخيرة ، وفيها انكشف القرآن للإنسان ولكل مخلوق مكلف باتباع النبى ﷺ. وفى هذه المرحلة تم الالتقاء بين الوحى والتنزيل من جانب وبين التلقى والبلاغ من جانب آخر ، وهى مرحلة من شقّين، شق اختص به الملك جبريل عليه السلام ، وهو شق غيبى ، وشق آخر اختص به النبى ﷺ ، وهو الشق المشاهَد والمعلوم.

ولقد أدرك الصحابة رضى الله عنهم الشق الثاني من التنزل الثالث للقرآن الكريم وشاهدوه وتابعوه بأم أعينهم وبكامل إدراكهم عندما كان الرسول ﷺ يتلقى الوحى

(١) مناهل العرفان ص ٣٨، ٣٩..

ويلتقى بجبريل عليه السلام ، فيُنظَرُ عليه ﷺ، من الأحوال ، ويفيض عنه من آيات القرآن الكريم .. كل ذلك قد جعل الشق الثانى من التنزل الثالث للقرآن الكريم مسجلاً تسجيلاً مفصلاً ودقيقًا على أسس من المشاهدة والتواتر والشيوع خاصة وأن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يمنون أنفسهم ويحرصون على أن يروا الرسول ﷺ عندما ينزل عليه الوحى . وفى الحديث : «عن يعلى بن علي وهو من الصحابة ، كان يقول لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : ليتنى أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحى . وهذا يبين حرص الصحابة على مشاهدة الرسول ﷺ حين تنزل الوحى حتى يشاهدوا هذه اللحظات المباركة ، كما يدل على أن رؤية الرسول ﷺ حين تلقى الوحى ، لم يكن أمراً محظوراً بل كان شائعًا ومرغوبًا.

الموضوع الثالث: الوحـــى

لا جدال فى أن موضوع (الوحى) هو من أعظم الموضوعات وأدقها وأكثرها أهمية وارتباطًا بالقرآن الكريم . فهو يمثل خط الالتقاء والتلاحم بين عالم الغيب وعالم المشاهدة. وبالفهم والاقتناع والإيمان بالوحى يكون الإيمان بأن القرآن من عند الله سبحانه وتعالى وأن الرسول ﷺ قد بعثه الله برسالة وأيده «بمعجزة القرآن» ، فإذا ما تحقق ذلك فإن التداعيات الإيمانية تتلاحق بتصديق الرسول ﷺ والإيمان بكل ما أتى به ، ويصبح المنطق العقلى مسخراً لفهم وإدراك كافة القضايا الغيبية والاقتناع بها وفق آليات التفكير الإيمانى ، وينتقل إلى مرحلة التسليم بالحقائق الغيبية . ومن أجل كل ما ذكرنا من فوائد فسوف نتحدث عن (الوحى) بشىء من التفصيل وذلك فى الجانب الذى يتعلق بنزول القرآن مستندين إلى النصوص الصحيحة والآراء الراجحة. فنقول وبالله التوفيق.

أولا : التعريف بالوحى

* الوحى : معناه فى لسان الشرع أن يُعْلِم الله تعالى مَنْ اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم بطريقة خفية غير معتادة للبشر ويكون على أنواع شتى : منه ما يكون مكالمة بين العبد وربه ، كما كلم الله موسى عليه

السلام ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء:١٦٤] - ومنها ما يكون إلهاما يقذفه الله فى قلب مصطفاه على وجه من العلم الضرورى لا يستطيع له دفعًا ولا يجد فيه شكًا ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:٧] - ومنها ما يكون منامًا صادقًا يجىء تحقق وقوعه كما يجىء فلق الصبح فى تبلجه وسطوعه ، وهو ما حدث لرسول الله ﷺ قبل البعثة : وانظر الحديث «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة في النوم وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح» والحديث أخرجه البخارى ومسلم .

* ومنه ما يكون بواسطة أمين الوحى جبريل عليه السلام - وهو ملك كريم - وذلك النوع هو أشهر الأنواع وأكثرها . ووحى القرآن كله من هذا القبيل ، وهو المصطلح عليه «بالوحى الجلى» قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة:٩٧].

* وقد هبط الملك جبريل بأمر من الله بأساليب وأشكال شتى : فتارة يحدث دون أن يظهر ، وتارة يظهر للرسول ﷺ بصورته الحقيقية دون أن يراه أحد غيره . وقد يظهر بصورة بشرية فيراه الرسول ﷺ ومَنْ عنده من الصحابة ، كما هو ثابت فى الحديث الصحيح الذى جاء فيه « بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ دخل علينا رجل ... »[1].

ومن قبل جاء الملك بصورة بشر للسيدة مريم العذراء ، وشاهدُ ذلك قوله تعالى: ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم:١٧]، كما ظهر لإبراهيم عليه السلام ، ولوط عليه السلام، وشاهدُ ذلك قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ﴾[هود:٦٩] وقوله تعالى ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ [هود:٨١].

وسيظل الوحى موضع الإنكار من جانب أصحاب التفكير المادى، وسيظل

(١) انظر الحديث بالتفصيل فى موضع آخر.

الصراع الفكرى بين المؤمنين والملحدين طالما أن هناك إيمانًا وكفراً وهداية وضلالاً ، والإنسان يقف من الغيبيات موقفين مختلفين : موقف أصحاب التفكير العقلى الإيمانى ، والمسلمات الغيبية ، وموقف أصحاب التفكير العقلى المادى والمسلمات الحسية. ولا يخفى أن الإيمان بالوحى وأساليبه والإيمان بالاتصالات الروحية بالعالم الغيبي ، كل ذلك قائم على المنقول المتواتر عن الغيبيات وعلى الواقع المشاهد فى مجال الاتصالات الروحية والخوارق البشرية، كما أنه من الناحية العلمية العقلانية قائم على منهج التفكير العقلى الإيمانى والمسلمات الغيبية، ومن البدهى القول بأن الإيمان بالله وملائكته واليوم الآخر لا يكون إلا كذلك .

ثانيا : كيفية تلقى جبريل عليه السلام القرآن :

ذلك من أنباء الغيب التى لا يطمئن الإنسان إلى رأى فيها إلا بنصوص موقوفة عن رسول الله ﷺ ، وحيث إن ذلك لم يتحقق تفصيلاً، فيكفينا العلم والاعتقاد بأن الملك جبريل عليه السلام - وهو من الملائكة المقربين - تنزل بالقرآن بأمر من الله سبحانه وتعالى على النبى ﷺ ، وأن مرجع التنزيل هو الله سبحانه وتعالى وحده ، والشاهد على ذلك قوله تعالى : ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢].

ثالثا :الحالة التى كان عليها رسول الله ﷺحال نزول الوحى وتلقى القرآن :

تعطينا الآيات القرآنية ، والسيرة النبوية المشرفة ، والأحاديث والأخبار الصحيحة صورة دقيقة وكاملة عن الحالة التي كان عليها رسول الله ﷺ والأحوال التى كانت تشاهد من حوله حال نزول الوحى وتلقى القرآن وعقب انصراف الوحى عنه ﷺ.

* الصورة من آيات القرآن الكريم :

قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩].

وقوله تعالى : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]

أى : القرآن الكريم وهو ثقيل بجلاله وعظمته وثقيل بما فيه من تكاليف ، وهو

ثقيل فى تنزله على النبى ﷺ وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ [طه: ١١٤].

وقوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤]

* الصورة من الأحاديث الصحيحة مرفوعة أو موقوفة على الصحابة رضى الله عنهم.

١- عن عائشة رضى الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: « يارسول الله ، كيف يأتيك الوحى؟ ، فقال رسول الله ﷺ : أحيانا يأتيني مثل صلصلة[1] الجرس ، وهو أشد على ، فيَفْصِم عنى وقد وعيت ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول.

قالت عائشة (رضى الله عنها) :ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا » أخرجه البخارى ومسلم والموطأ والترمذى واللفظ للبخارى .

٢- من حديث طويل عن عائشة رضى الله عنها قالت : « ... فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : قلت : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذنى فغطَّنى ، حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذنى فغطنى الثانية ، حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ ، فقلت: ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى، فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق:١- ٥] رواه البخارى ومسلم

٣- ومن حديث عن يحيى بن أبى كثير ، قال « ... فقال لي جابر : لا أحدثك إلاّ ما حدثنى رسول الله ﷺ ، قال : جاورت بِحِراء شهراً ، فلما قضيت جوارى

(١) الصلصلة : صوت الأشياء الصلبة اليابسة - فصم عنى : انفصل عنى وفارقنى وعيت الكلام : إذا احفظته وعرفته - ليتفصد عرقا: أى جرى عرقه كما يجرى الدم من الفصاد.

هبطتُ ، فنوديت ، فنظرت عن يمينى فلم أجد شيئًا فنظرت عن شمالى ، فلم أرَ شيئًا ونظرت خلفى فلم أرَ شيئًا ، فرفعت رأسى فرأيت شيئًا ...» رواه البخارى ومسلم.

٤- ومن حديث عمر رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحى يُسمع عند وجهه كدوى النحل ، فأنزل عليه يوما فمكثنا ساعة، ثم سُرِّى عنه، فقرأ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى عشر آيات منها من أولها...» [المؤمنون: ١] رواه الترمذى.

٥- وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : « كان نبى الله ﷺ إذا أنزل عليه كُرِب لذلك وتربَّد وجهه » رواه مسلم وفى رواية « كان إذا أنزل عليه الوحى نكَّس رأسه ونكَّس أصحابه رؤوسهم ، فلما أُبِّل رفع رأسه ورفعوا . وفى رواية «كان إذا أنزل عليه الوحى عرفنا ذلك فيه وغمَّض عينيه وتربَّد[1] وجهه»

٦- عن يعلى بن أمية رضي الله عنه كان يقول لعمر : ليتنى أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحى ، فلما كان النبى ﷺ بالجعرانة وعليه ثوب قد أُظل به عليه ، ومعه ناس من أصحابه فيهم عمر ، إذ جاءه رجل فتضمخ بطيب ، فقال :يا رسول الله كيف ترى فى رجل أحرم فى جُبَّة بعد ما تضمخ بطيب ؟ فنظر النبى ﷺ ساعة ثم سكت - فجاءه الوحى ، فأشار عمر (رضى الله عنه) إلى يعلي أن تعال. فجاء يعْلي، فأدخل رأسه، فإذا هو مُحْمَرُّ الوجه يَغِطُّ لذلك ساعة، ثم سُرِّى عنه ، قال :« أين الذي سألنى عن العمرة آنفا »؟ فالتُمس الرجل فجىء به إلى النبى ﷺ فقال : أما الطيب الذي بك فاغسله ثلاث مرات ، وأما الجبة فانزعها ، ثم اصنع فى عمرتك ما تصنع فى حجك » وراه البخارى ومسلم والترمذى .

٧- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : فى قوله عز وجل: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦] كان النبى ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، وكان مما يحرك به شفتيه . (قال ابن جبير : فقال لي ابن عباس أنا أحركهما كما كان رسول الله ﷺ يحركهما ، وقال فأنزل الله عز وجل ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ

---

(١) تربَّد: الرُّبدة فى الألوان: غبرة مع سواد - (أبل) المريض من مريضه إذا زال عنه، وكذلك المغمى عليه، والمراد زوال ما كان يعرض عند نزول الوحى..

عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٧] قال : جمعه فى صدرك ثم تقرؤه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨] قال : فاستمع له وأنصت ... فكان رسول الله ﷺ إذا أتاه جبريل بعد ذلك ، استمع ، فإذا انطلق جبريل قرأه النبى ﷺ كما أقرأه » أخرجه البخارى ومسلم .

٨- « ٣- (خ م د س[1]- أبو هريرة وأبو ذر رضى الله عنهما) قال : كان رسول الله ﷺ يومًا بارزاً للناس ، فأتاه رجل فقال :يا رسول الله، ما الإيمان ؟ قال : تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله .. (الحديث).. ثم أدبر الرجل. فقال رسول الله ﷺ : « ردوا علىَّ الرجل» فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئًا ، فقال رسول الله ﷺ : هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم » .. وفى أخرى نحوه ، وفى أوله : أن رسول الله ﷺ قال : « سلونى » فهابوا أن يسألوه ، فجاء رجل فجلس عند ركبتيه ... وفى آخرها هذا جبريل أراد أن تُعلَّموا إذا لم تسألوا » هذا لفظ البخارى ومسلم عن أبى هريرة » ا.هـ.

وقائع وبراهين : مما سبق ذكره من النصوص القرآنية والأحاديث نستخرج جملة من الوقائع الثابتة عن أحوال النبىﷺ لحظة تنزل الوحى عليه : ما قبل نزول الوحى مباشرة - وأثناء تلقى الوحى - وعقب انفصام الوحى عنهﷺ .وهذه الوقائع الثابتة تقدم البراهين القاطعة والشواهد المقنعة على أن الوحى المنزل على رسول الله ﷺ كان حقيقة واقعية ولم يكن الوحي أمراً متوهمًا أو خرافة باطلة أو قصصًا من نسج الخيال شاع وتناقلته الأخبار، ونقدم الوقائع والبراهين فيما يلى

أولاً : لم يكن مَلَك الوحى « جبريل عليه السلام » أمراً غيبيًا بحتًا ، بل كان وجوده يقع أحيانًا فى مجال الحس الإنسانى ، فيراه الصحابة عندما يتمثل فى صورة بشر، كما يسمعون له دويًا كدوى النحل فى حالة عدم ظهوره للبصر. كما أن الرسول ﷺ شاهده في صورته الحقيقية.

---

(١) خ : بخارى ، م : مسلم، د :أبو داود ، س : النسائى «جامع الأصول من أحاديث الرسولﷺ ٢١٣ - ٢١٤» : . وانظر فى نفس المرجع ص ٢٠٨ -٢٠٩ ١/ : الحديث رقم (٢) عن يحيى بن يعمر ، عن ابن عمر « قال : حدثنى ابن عمر بن الخطاب.

ثانيا : كان نزول الوحي على رسول الله ﷺ ولقاؤه بجبريل عليه السلام يصاحبه تغييرات ملموسة تطرأ على رسول الله ﷺ ويشاهدها الصحابة وهم جلوس عنده حتى أصبحت هذه الأحوال التى تعترى رسول الله ﷺ من علامات نزول الوحى، فلم تكن تظهر عليه إلاَّ فى لحظات نزول الوحى وفى ذلك يقول الصحابى الجليل عبادة بن الصامت « كان إذا أنزل عليه الوحى عرفنا ذلك فيه » . وهذا مظهر آخر غير مباشر للوحى كان الصحابة يشاهدونه على رسول الله ﷺ، مما يعطى للوحى حقيقة واقعية ومشهداً ملموسًا وأمراً متيقنًا ، ويقينًا لدى الحضور من صحابة رسول الله ﷺ الذين تواترت عنهم الأخبار وانتشرت .

ثالثا : كانت أحواله ﷺ أثناء نزول الوحى عليه وبعد انصرافه عنه تختلف كلية عن كافة الأحوال التى يكون عليها أى إنسان فى غير أحواله البشرية الطبيعية أو في الحالات المرضية :

١- لم يكن حالة من أنواع الصرع ، فالمريض بالصرع أمره معروف لدى الناس من قديم الأزل ، والعرب كانوا على معرفة كافية بالصرع وأنواعه سواء الصادر عن أسباب عضوية أو أسباب شيطانية وحديث المرأة المصروعة التى طلبت الشفاء من رسول الله ﷺ وهو حديث صحيح[1] يشهد بمعرفة العرب لمرض الصرع . فلو أن حالة الرسول ﷺ من جنس الصرع الذى يصيب البشر لأدركه الصحابة رضى الله عنهم ، ولكان مطعنًا عليه وعلى رسالته ﷺ ، ولم يكن ليحظى ﷺ بتعظيم وتوقير ومهابة واحترام كافة الصحابة ممن عرفوا بالحصافة والفطنة والوجاهة والرفعة، والزعامة والقوة فلم يكونوا من المستضعفين والرعاع الذين ينساقون وراء التضليل والخداع، بل كانوا من سادة قريش ثراء وعلمًا ورجاحة عقل وشجاعة ، فلا تنطلى عليهم الخدع ولا تستهويهم الحيل ، ولا ينقادون إلاَّ لمن شاهدوا فيه العظمة والكمال وأدركوا فيه التفوق والسلامة والاحترام؛ فموقف الصحابة مع رسول الله ﷺ وما

(١) أخرج فى الصحيحين – من حديث عطاء بن أبى رباح – قال – قال ابن عباس : « ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ قلت: بلى ، قال: هذه المرأة السوداء ، أتت النبى ﷺ ، فقالت إنى أصرع وإنى أتكشف ، فادع الله لى – فقال : إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوت الله لك أن يعافيك . فقالت: أصبر . قالت فإني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف . فدعا لها » ورواه أيضا النسائى وأحمد والبزار.

كانوا عليه من التعظيم والتوقير لنبيهم ورسولهم ﷺ وهم يرون حاله عند نزول الوحى عليه ، يقطع بأنهم كانوا متيقنين من أن هذا الحال لم يكن من جنس الصرع سواء العضوى منه أو الروحى .

٢- وينفى عنه الصرع أيضًا ، أنه ﷺ كان إذا انصرف الوحى عنه وخرج من غفوته ، تلا على أصحابه آيات القرآن الكريم - وهى على درجات الفصاحة والبيان والإعجاز - بدقة متناهية وحافظة قوية ، وصحوة فائقة ، بل إنه ﷺ كان فضلاً عن تلاوة ما نزل من الآيات ، يقول لكُتَّاب الوحى إذا كانوا حاضرين ، ضعوا هذه الآيات فى مكان كذا من سورة كذا ، مما يبين منتهى الوعى والإدراك، وكل ما ذكرنا من أحواله ﷺ ، الذهنية والعقلية عقب انصراف الوحى عنه تختلف اختلافًا كليًا عما يكون عليه المصروع بعد فواقه من مرضه ، كما تنفى نفيًا قاطعًا أن تكون أحواله أحوالاً مرضية .

٣- ولم يكن حاله ﷺ لحظة الوحى من جنس أحوال المسحور الذى يخرج من طبيعته، ويلازمه السحر ولا ينفك عنه. ولم يكن حاله من أحوال أولئك المجانين الذين يتخبطون فى تفكيرهم وفى أقوالهم وأفعالهم . كما لم يكن من أحوال المتصنعين الذين يمثلون المواقف ، ويؤدون الحيل والحركات ، وهؤلاء سرعان ما ينكشف أمرهم وتظهر حيلهم ولا يستطيعون الاستمرار فى تصرفاتهم ، خاصة إذا كانت دخائل حياتهم يعلمها القريب والبعيد، وأسرار معيشتهم يحرص على معرفتها كل تابع ومريد ، كما كان عليه ﷺ فى شيوع أخباره ، وحرص الصحابة على معرفة دخائل حياته وتقصى أحواله العامة والخاصة حتى يقتدوا به ﷺ ، ويتبعوا سنته.

٤- ولم يكن حاله ﷺ كحال أصحاب الطرح الروحى المعروف بالتنويم المغناطيسى ، أو من جنس حال الحدسيين وأصحاب الخواطر والإلهامات وغيرها من خوارق الذهن وعبقرية الفكر فهذه كلها مواهب توجد كصفات منفردة لدى مَنْ يتميزون بها وهى وإن أبرزتهم فى جانب من جوانب العطاء الفكرى وبصورة ذهنية محصورة ومحدودة ، وجعلتهم فى مصاف أصحاب تلك المواهب الفكرية السابقة الذكر غالبًا ما يكونون من الشخصيات غير المتكاملة ، إما نفسيًا أو جسديًا ، ويكونون ضعاف الشخصية يسهل التأثير عليهم ، ويكونون من الانطوائيين

وأصحاب الرياضات حال وجود تلك المواهب لديهم ، ولا يملكون القدرة على الدعوة والقيادة ولا يستطيعون الثبات أمام التحديات والصراعات ويتغلبون على كل التحديات والخصومات . وبالمخالفة بين أحوال من ذكرنا وبين حال الرسول ﷺ الذى تذكر السير عن شمائله ﷺ بكل الدقائق والتفاصيل : من تكامل الشخصية وعظمتها ، وبراعة القيادة وحكمتها ، وشمول الدعوة وضخامتها وتنوع المعجزات ووفرتها فإننا نصل إلى حقيقة لا لبس فيها ولا غموض، ولا إنكار ، ولا تشكيك.

والحقيقة : هى أن الحالة التى كان عليها رسول الله ﷺ لحظة نزول الوحى ، لم تكن من جنس ما كان وما يكون عليه البشر من الأحوال غير الطبيعية : فطبيعية الأحوال وأعراضها مختلفة ، وسيرة الرسول ﷺ وشخصيته مختلفة ، كما أن عطاءات الوحي وهى آيات القرآن الكريم ، والنتائج المترتبة على هذه عطاءات مختلفة . وإذا كانت المقدمات وهى « تنزل الوحى » قد انتهت إلى أعظم النتائج وهى «رسالة الإسلام»، فإن هذه النتائج العظيمة - وبمنطق عكس - تثبت أن الوحى لم يكن مجرد ظاهرة روحية ، بل هو دعوة حق وتبليغ رسالة من الله تعالى إلى رسوله ﷺ.

رابعاً : ومن الأحوال التى كان عليها ﷺ لحظة تنزل الوحى عليه :

١- كان ﷺ إذا أنزل عليه الوحى وهو جالس ، نكَّس رأسه ، ونكس أصحابه - الجالسون عنده - رؤوسهم فإذا أبل رفع رأسه ورفعوا[1].

٣- « كان صلى الله عليه وسلم يغيب غيبة كأنها غشية وما هى فى شىء من الغشية إن هى إلا استغراق فى لقاء لملك وانخلاع عن حالته الطبيعية »[2] . ولكن شتان بين هذه الغشية وبين الغيبوبة أو الإغماءة أو الصرعة أو الطرح الروحى ، والحالات الأخيرة أمرها معروف لدى العامة ولدى الخاصة من أهل العلم والاختصاص من أطباء وروحانيين وخلافهم .

---

(١) تأمل مشاركة الصحابة لرسولهم وتنكيسهم لرؤوسهم ورفعهم إذا رفع رأسه ﷺ، مما يوحى بالتأسى ولو كان لفعل صادر عنه ﷺ وليس لهم به تكليف ولكنه الحب والتأدب والحرص على المحاكاة من منطلق الطاعة وتلمس الخير والثقة فيه ﷺ.

(٢) مناهل العرفان ص٥٧.

٤- كان رسول الله ﷺ يغط غطيط النائم وماهو بنائم [١] إذ كان يحرك شفتيه وكأنه يردد حديثا يسمعه ؛ ولكن الغطيط كان بسبب الجهد الذى يعانى منه أثناء نزول الوحى عليه وفى الحديث « فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد »وفى القرآن الكريم ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل: ٥].

٥- كان ﷺ يحرك لسانه[٢] ترديداً لما يسمع من مَلَك الوحي : جبريل عليه السلام ، ويشاهد الصحابة تحرك شفتيه الشريفتين بكل تمعن وتدقيق حتى أن ابن عباس رضى الله عنه كان يحاكي ذلك التحريك عند تفسير قوله تعالى ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ . [القيامة: ١٦] ولما نزل قوله تعالى هذا وما يليه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٧ - ١٩] توقف رسول الله ﷺ وسلم عن متابعة سماع الوحى بتحريك شفتيه ، ولاحظ الصحابة ذلك التوقف . وعرفوا أسبابه وهى امتثاله لأمر ربه ومولاه. وفى ذلك دليل على مصداقية الرسول ﷺ فى كل ما يفعله وبأنه مكلف من قبل الله ، ومستسلم لطاعة مولاه.

٦- كان ﷺ يتفصد جبينه عرقا فى اليوم الشديد البرد .

٧- كان ﷺ يسمع أحيانا كصلصلة الجرس ، وهو أشد عليه ويسمع الصحابة عند وجهه كدوى النحل .

٨- كان ﷺ إذا انفصم عنه ملك الوحي وانجلى عنه الوحى يعى ما قاله الملك وقد سمعه منه ورده بلسانه حرصًا على حفظه وكان ﷺ « يجد ما أوحى إليه حاضراً فى ذاكرته منقوشا فى حافظته »[٣] .

وإذا سُرِى عنه ، تلا على أصحابه آيات القرآن التى تنزلت عليه . وأمر كُتَّاب الوحى بأن يكتبوها وكان يمليها عليهم ، ويقول لهم أحيانًا ضعوا هذه الآيات فى مكان كذا فى سورة كذا ، لتحل هذه الآيات فى نظم القرآن المحكم وشكله الدقيق

---

(١) وذلك قبل نزول النهى «لا تحرك به لسانك لتعجل به»

(٢) مناهل العرفان ص ٥٧.

(٣) والوحى كله نزل في اليقظة وما يعبر عنه الرواة من أنه ص أغفى إغفاءه فتصوير منهم للحالة التى كان يأتيه الوحى به» الأخلاق فى علوم القرآن ص ١٠.

فى تتابع آياته وتكوين سوره كما نشاهد ، وكان ذلك يتم عقب انصراف الوحى عنه ﷺ .

٩- ونزل الوحى على رسول الله وهو فى اليقظة دائمًا ولم يأته نائمًا[١].

خاتمة الموضوع :

وبعد .. فهذه طائفة من الحقائق استخلصتها من النصوص الثابتة التى تؤكد مصداقية التنزيل وحيًا من عند الله سبحانه وتعالى أضعها أمام عقول أصحاب الإيمان والإنصاف كما أضعها أمام أصحاب الإنكار والإجحاف حتى يكونوا جميعا على بينة ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

ولا يصرف الفئة المؤمنة عن هذه الحقائق ، وتلك الوقائع – التى شاهدهاجمع من الصحابة رضى الله عنهم وهم صفوة الخلق – بعد سيد الخلق ﷺ – عدلاً وصدقًا وفطنة ورجاحة عقل، لا يصرفهم عنها أفكار الملحدين ، أو دعاوى المبطلين أو تكذيب الحاقدين ، فالخَطْب ليس قضية إنكار ألوهية القرآن وأنه تنزل وحيًا من عند الله سبحانه وتعالى . حسب الأحوال والصور التى وقعت وهى ثابتة ومتواترة ، ولكن الخَطْب أعم وأفدح ،إذ أنه يتعلق بالعقل الإنسانى وآلياته ، وأنماط التفكير فى تقبل الحقائق أو رفضها ، والوقوف أحيانًا عند المحسوسات وعدم الاستجابة إلى المعنويات وفق قواعد المنطق والمسلمات البدهيات ، مما يصنف البشر من حيث اتجاهاتهم الفكرية واستعداداتهم العقلية إلى طوائف ثلاث :

أولاً : أصحاب العقل البدهى : الذين يدركون البدهيات بفطرتهم السليمة ويمنطقون آلياتهم الفكرية بمقتضاها ، ولنا خير شاهد على ذلك فى القول المشهور الصادر عن ذلك الأعرابى الذى سئل ، ما دليلك على وجود الله ؟، فقال قول الفلاسفة العظام بفطرة الإنسان وجوهره « الأثر يدل على المسير ، والبعرة تدل على البعير ، فأرض ذات فجاج وسماء ذات أبراج ألا تدل على الله القدير».

---

(١) « والمراد بالفراش ، نزول الوحى وهو . ﷺ – على فراش النوم قبل أن ينام أو بعد أن يستيقظ .. والوحى كله نزل فى اليقظة، وما يعبر عنه الرواة من أنه أغفي إغفاءة . فتصوير منهم للحالة التى كان يأتيه الوحى بها » انتهى باختصار – الأخلاق فى علوم القرآن ص ١٠.

ثانيًا : أصحاب العقل الجدلى : وهؤلاء يكون حظهم ضئيلاً واستعدادهم ضعيفًا فى تقبل البدهيات ، وتصاب آلياتهم الفكرية بالشك وأكثرهم من الفلاسفة الملحدين ، أو المفكرين الماديين الذين يعجزون عن استنباط البدهيات المعنوية من خلال الوقائع المادية ويعجزون عن إدراك كثير من الحقائق بسبب انحراف آلياتهم الفكرية وعدم القدرة على التحرك نحوها .

فالعلماء الماديون الذين يرون عظمة الخالق فى الكون من خلال أقوى الأدلة والبراهين ، ويدركون دقة التكوين فى كل شيء يدرسونه يلجئون إلى التعليل والتفسير والمحاكاة وتصرف آلياتهم الفكرية عن حقيقة أن هذا كله من بديع صنع الله وبهذا تصبح علومهم ومعارفهم ونتائج تجاربهم التى تشهد على وجود الله .. تصبح بسبب آلياتهم الفكرية الجدلية رافضة لتلك الحقيقة وعاجزة عن إدراك تلك البدهية التى أدركها الأعرابى بفطرته السليمة وآليات فكره البدهية . وقل مثل هذا القول مع الفلاسفة بعلومهم النظرية ، وثقافاتهم الإنسانية ودراستهم للوجود والكون ، فبدلا من أن يقودهم كل ذلك إلى الإيمان بوجود (الله) الواحد سبحانه ويدركون أن الله حق ، وهم المتشدقون بالبحث عن الحقائق فإنهم بآلياتهم الجدلية يتجهون إلى عكس ذلك من خلال آليات عقلهم الرافضة للحقائق والبدهيات .

ثالثا : أصحاب العقل العاطفى : وهؤلاء تتحرك آلياتهم الفكرية ، وتصاغ أفكارهم حسب هواهم وعواطفهم وسلوكياتهم وأخلاقهم فقد يرون الحق باطلاً وقد يرون الصواب خطأ وقد يرون الخطأ صوابًا ، وما أسهل التبرير والتعليل المسيطر على آلياتهم الفكرية . وتنعكس شهواتهم على عقولهم وتفكيرهم فيتطاولون على أعظم القيم والمبادئ وينطقون زوراً وبهتانًا ، ويقولون فحشًا وبطلانًا . وتبتعد بهم آلياتهم الفكرية عن إدراك الحقائق والبدهيات التى تتعارض مع عواطفهم وشهواتهم ، فلا يصلون بهذه الآليات إلى تفهم أدلة وجود الله ، بل قد تعكس هذه الأدلة إلى نقيض الواقع، فيرون الوحي وهماً، ويرون الدين خرافة ويرون الاعتقاد بوجود الله أسطورة نشأت فى الماضى السحيق وأى آليات فكرية هذه التى تتحرك فى الاتجاه المخالف لمعرفة الحقائق والبدهيات . إن هذه الانتكاسة الفكرية سببها أولاً وأخيرًا سيطرة العواطف والشهوات على عقول المصابين بهذه الانتكاسة الفكرية مما يجعلهم

متباعدين ورافضين للاعتقاد بوجود « الله الواحد » وكل ما يتعلق بهذا الاعتقاد من الوحى والرسل والأديان الكتابية . وهم فى موقفهم هذا لا يقيمون للحقيقة وزنًا ولا يخشون من الواقع حجة وبرهانًا، وقد جعلوا (الهوى) إلههم ومعبودهم ، وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ [الفرقان:٤٣].

الموضوع الرابع : تنزل القرآن مفرقا

من المعلوم على وجه القطع واليقين أن القرآن تنزل على رسول الله ﷺ وحيًا منجمًا[1]، ولم ينزل جملة واحدة وذلك لأسرار وحكم وفوائد، ذكرت النصوص القرآنية بعضها وتوصل إلى استنباط بعضها أولئك العلماء ممن أفاض الله عليهم بفيوض المعرفة وتوصلت إليها عقولهم بآليات التفكير العقلى الإيمانى ، وسيظل الكثير من الأسرار والحكم والفوائد المتعلقة بتنزل القرآن مفرقًا ، فى علم الله سبحانه ، يهدى إليه من يشاء من عباده ، جيلاً بعد جيل وعصرا بعد عصر ، وهذا شأن كل مجهول من المعارف وكل مستور من الحقائق وكل غيبى من الأشياء والأمور أخفاه الله عنا بنى الإنسان ويكشف لنا بعضه - بحكمته وقدرته - بين حين وآخر ، وصدق الله العظيم ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

* الأدلة على تنزل القرآن الكريم مفرقا ، منها :

قوله تعالى: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾ [الإسراء:١٠٦].

وقوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ [الفرقان: ٣٢].

مدة تنزل القرآن :

من المقطوع به أن تنزل الآيات القرآنية بدأ مع بعثة الرسول ﷺ حينما نزل جبريل عليه السلام بأوائل سورة «اقرأ» ، واستمر تنزل القرآن طوال بعثته ﷺ ، إلى ما

---

(١) أى مفرقا إلى أجزاء كل جزء يسمى نجما.

قبل انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى بفترة قصيرة. (أى على مدى ٢٣ عاما).

* مقدار الجزء أو النجم :

« واعلم أنه كانت تنزل الآية الواحدة وقد كانت تنزل عدة آيات فقد نزلت عشر آيات مرة واحدة من قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] إلى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠] . وصح نزول بعض آية واحدة ، وهي قوله تعالى في سورة النساء ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥] ومن السور القصار ما كان ينزل دفعة واحدة : كالفاتحة والعصر والكوثر والنصر والإخلاص والمعوذتين ، ومنها ما كان ينزل مفرقا كسورة «اقرأ»، فإن أول ما نزل منها إلى قوله تعالى ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] ثم نزل باقيها بعد ذلك . وكذلك سورة الضحى ، نزل منها أولاً : من قوله تعالى ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ [الضحى: ١] إلى قوله تعالى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥] ثم نزل باقيها بعد ذلك.

ولم ينزل من السور الطوال سورة بتمامها إلا سورة الأنعام ، فقد روى كثير من المحدثين نزولها جملة عن غير واحد من الصحابة والتابعين لأنها مشتملة على المكذبين بالبعث والنشور ، وهى من مقاصد الدين الأساسية التى لا يتوقف نزول آيها على سؤال أو حادثة أو سبب يقتضى إنزالها .«ورجح إنزالها وقعة واحدة الإمام الفخر الرازى والقرطبى وغيرهما من علماء التفسير . أما بقية سور القرآن فقد تنزلت منجمة متفرقة»[1] ا.هـ بتصرف .

* أول وآخر ما تنزل من القرآن الكريم :

تنبيـــه :

لا يخفى أن التعرف على أوائل وأواخر ما نزل من القرآن الكريم يعتبر من المباحث المفيدة التى تظهر مدى عناية المسلمين بالقرآن كما أنها تساعد على معرفة تاريخ التشريع الإسلامى وسيره التدريجى إلاَّ أن هذه المباحث وما تشتمل عليه من آراء حول الترتيب الزمنى لتنزل الآيات القرآنية ليست لها علاقة بترتيب السور

(١) تاريخ المصحف الشريف ١٠ -١٢.

بالمصاحف ، حيث إن هذا الترتيب جاء توقيفيًا عن رسول الله ﷺ ولم يكن متمشيًا مع الترتيب الزمنى لنزول السور ، ونشاهد بالقرآن الكريم سوراً مدنية تعقبها سور مكية ثم تليها سورة مدنية وهكذا جاء ترتيب السور بالمصحف غير خاضع لترتيب النزول للسور ، بناء على أمر الرسول ﷺ فى ترتيب الآيات بداخل السور وترتيب السور بعضها بجوار بعض .

وهذا تنبيه أردت أن أوجهه حتى لا يحدث خلط بين ترتيب نزول آيات القرآن وما دار حولها من آراء وأقوال ، وبين ترتيب الآيات والسور بالقرآن الكريم التى استقرت بأمر النبى ﷺ وأصبحت عليها المصاحف .

* **التنبيه الآخر** : هو أن العلم بترتيب نزول القرآن لم يكن الصحابة فى حاجة إليه بعد أن تم ترتيب الآيات فى السور وتم ترتيب السور بالمصحف بأمر رسول الله ﷺ ، لهذا فإنهم لم يحرصوا على تدوين ترتيب نزول الآيات وظل ذلك كذلك إلى أن بدأ المسلمون التوسع فى دراسة موضوعات متعددة والتعرف على تفاصيل متنوعة عن القرآن الكريم ، ولعدم تدوين الوقائع والتفاصيل التى لم تكن تهم الصحابة، ، وجاء المتأخرون يبحثون فى ذلك وكانت دراساتهم ضربًا من الاجتهاد لهذا تعددت الأقوال وتنوعت الآراء وظهرت الخلافات والترجيحات .

ونزيد التنبيه وضوحا : بأن كل هذه الآراء والأقوال وما بينها من خلافات ليس لها أدنى مردود خلافى على القرآن الكريم لا فى ترتيب آياته ولا فى ترتيب سوره فقد تكامل نَظْمه واستقر شكله على عهد رسول الله ﷺ وبأمر منه، وتم تدوينه فى المصاحف بإجماع الصحابة فى عهد عثمان رضي الله عنه ، وأصبح متواتر الجمع حفظًا فى الصدور وتدوينًا في السطور :

١- **أول مانزل من القرآن على الإطلاق** : هو صدر سورة العلق ، وقد تنزل عليه ﷺ فى غار حراء إعلانا عن بدء بعثته ﷺ ، وهو قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١- ٥].

والأحاديث الدالة على ذلك كثيرة ، منها ما رواه البخارى ومسلم عن عائشة

رضى الله عنها . «وصححه الحاكم فى مستدركه، والبيهقى فى دلائله عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : أول سورة نزلت من القرآن ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:١] تاريخ المصحف الشريف ص ٩٥.

* أما الأحاديث الواردة عن أول ما نزل من القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١] فقد جاء فى بعض رواياتها فى أولها « سمعت النبى ﷺ يحدث عن فترة الوحى ...» وفى أخرى « ثم فتر الوحى عنى فترة فبينا أنا أمشى ..».

٣- آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق : « آخر ما نزل ورد فيه أقوال كثيرة ، والصحيح منها أن آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق قوله تعالى فى سورة البقرة ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢٨١] ، والدليل على ذلك ما أخرجه النسائى من طريق عكرمة عن ... رضي الله عنهما أنه قال : « آخر القرآن نزولا ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] وكذلك أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قال : آخر ما نزل من القرآن كله ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية وعاش النبى ﷺ بعد ذلك تسع ليال «[1] .

* وتجدر الإشارة بأن آية المائدة ، وهى قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وقد نزلت في حجة الوداع قبل أن ينتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى بثلاثة شهور- هذه الآية ليست آخر ما نزل من القرآن ، مع أنها صريحة فى أنها إعلام بإكمال الله لدينه وبيان ذلك هو « أن هناك قرآنا نزل بعد هذه الآية حتى بأكثر من شهرين ولعلك لم تنس أن آية ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] كانت آخر الآيات نزولا على الإطلاق، وأن النبى ﷺ عاش بعدها تسع ليال فقط ، وتلك قرينة تمنعنا أن نفهم أن إكمال نزول القرآن من إكمال الدين فى آية المائدة المذكورة . والأقرب أن يكون معنى إكمال الدين فيها يومئذ هو إنجاحه وإقراره وإظهاره على الدين كله ولو كره

(١) تاريخ المصحف الشريف ص ٩٦ ، ٩٧ .

الكافرون»[١] ا. هـ .فلا علاقة إذا بين إكمال الدين وإكمال نزول القرآن ، والذين ربطوا بين الأمرين فقد خالفوا المتواتر ، وتعجلوا الاستنباط ، والله أعلم .

٤-آخر ما نزل من السور المكية : سورة المطففين ، حسب بيانات المصحف.

٥- آخر ما نزل من السور ، هي سورة النصر ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] حسب بيانات المصحف الشريف ، وذلك باعتبار آخر ما نزل كسورة كاملة .

٥ – أول ما نزل من السور المدنية : سورة البقرة، حسب البيانات الواردة بالمصحف الشريف.

*** أول وآخر ما نزل من القرآن فى الأحكام التشريعية والتعاليم الإسلامية :**

والإحاطة بذلك الموضوع عمل شاق وغاية بعيدة المدى ، ويحتاج ذلك إلى مؤلفات مستقلة ، ويكفينا أن نقدم المثل التالى فى شأن تحريم الخمر [٢] :

نزل فى الخمر آيات قرآنية فى فترات ثلاثة :.

– أول شيء قوله تعالى :﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] . وثانيها ، قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣].

– والثالثة والأخيرة قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

---

(١) مناهل العرفان ص ٩٦.

(٢) يرى بعض العلماء أن تحريم الخمر بدأ بقوله تعالى ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ سورة النحل (الآية ٦٧) كما أن الأحاديث فى النهي عن شرب الخمر كثيرة .

الموضوع الخامس :

الأسرار والحِكم والفوائد فى نزول القرآن مفرقًا

نقصد بالأسرار : الدقائق واللطائف والحكم الخفية .

ونقصد بالحِكَم : ما تحقق من فوائد سواء كانت متعلقة بالقرآن الكريم أو بشخص الرسول ﷺ .

ونقصد بالفوائد : ماكان متعلقًا بالمسلمين أو بسائر المكلفين .

أولاً : حقيقتان :

وقبل أن نتحدث عن هذه الأمور الثلاثة التى تحققت بتنزل القرآن منجمًا (مفرقًا)، فإننى أقدم حقيقتين هامتين ، يستوعبهما التفكير العقلى الإيمانى من منطلق الاعتقاد بشمولية التقدير والعلم الإلهى : فهو سبحانه على كل شىء قدير ، وهو جل شأنه بكل شىء عليم :

الحقيقة الأولى :

وهى أن الأسرار والحكم والفوائد من تنزل القرآن مفرقًا منها ما يذكره القرآن ، ومنها ما يكون اجتهاداً واستنباطًا، غير أن الاستقصاء والإحاطة ليس فى وسع أحد من البشر ، فإذا عرفنا بعضها فسوف نبقى جاهلين بالبعض الآخر، حالنا فى ذلك كحالنا فى كل المعارف التى تظل فى علم الله ويصعب الإحاطة بها واستقصاؤها، ليكون عطاؤه سبحانه بقَدَرٍ بحيث ينال منه المتقدمون والمتأخرون نصيبًا مفروضًا. وعليه فإن الأسرار والحِكَم والفوائد التى سوف نذكرها هى ليست من باب الحصر والاستقصاء ولكن هى جزء مما أعلمنا الله به، ولمن يأتى بعدنا جزء آخر، فعطاء الله للفكر الإنسانى دائم ومتصل ، وعلمه سبحانه عظيم لا ينفد .

الحقيقة الثانية :

وإنما أردت أن أنبه إليها كآية من آيات قدرة الله وعلمه ، فهو سبحانه قد أحاط بما لم يكن وما كان وما سيكون من الحوادث والأشياء وهو سبحانه خالق الأشياء

ومقدر الأفعال ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]. ويقول تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [الحديد:٢٢]، فكل شيء فى علمه سبحانه موجود ، وإنما يقول سبحانه للشئ (كن) فيظهر فى الوجود ونحن نبنى على هذه الحقيقة الكلية (الحقيقة الثانية) التي نعرضها فيما يلي:

لقد تبين أن القرآن نزل جملة واحدة من عند الله ثم تنزل بأمره سبحانه منجمًا على رسول الله ﷺ وكان بعضه يتنزل بحسب الوقائع التى تقتضى نزول ما ينزل من الآيات : إما جوابًا عن سؤال وُجِّه إلى الرسول ﷺ ، أو حُكْمًا لقضية عرضت عليه ، أو رداً على زعم من مزاعم المشركين فى مسائل الاعتقاد والبعث والجزاء، أو نقضًا لمطعن من مطاعن اليهود والنصارى فى الألوهية أو بيانًا لأصول التشريع إلى غير ذلك من الموضوعات التى تنزل الآيات المتعلقة بها ، والتى حفل بها القرآن الكريم.

* إذن فكيف نجمع فى الفهم بين التنجيم للقرآن حسب الوقائع وبين الوجود المسبق لهذه الآيات قبل حدوث الوقائع باعتبار أن القرآن قد نزل من قبل جملة واحدة - كما أسلفنا - وبه تلك الآيات ؟ ليس الجواب شافيًا أو محيراً ، وليس بالقضية اضطراب ، وليس للخلل الفكرى البعيد عن آليات التفكير الإيمانى ، فرصة لإقامة الشبهات.. فالجواب قريب من العقول وهو إيمانى يقينى وعقلى بدهى ويتلخص: فى أن الله سبحانه وتعالى هو المقدر للوقائع قبل حدوثها وهو العالم بكل شيء علمًا مطلقًا فى الماضى والحاضر والمستقبل حيث ينعدم الزمان والمكان ، وتتلاشى كل مظاهر النسبية ، وهو سبحانه بهذا العلم المطلق وهذه القدرة المطلقة «علمٌ وقدرٌ»: وتأمل قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ [النجم:٣٢][١].

وعليه فإن الوقائع وما ستكون عليه الآيات القرآنية المتصلة بهذه الوقائع قد قدَّره الله جملة وتفصيلاً وقدَّر للوقائع وللآيات القرآنية المتعلقة بها أن تكون متزامنة، فالوقائع تحدث والآيات تنزل ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨]: فالجدل الذى كان بين الزوج وامرأته فى واقعة الظهار التى وردت فى سورة المجادلة - وتشريع

---

(١) ويقول المفسرون في تفسير الآية : أى هو جل وعلا أعلم بأحوالكم منكم قبل أن يخلقكم ومن حين أن خلق أباكم آدم من التراب .. » صفوة التفاسير ص ٢٧٧ جـ٣.

تحريم التبنى - وتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة - ووفد نجران من النصارى، وآيات الملاعنة فى سورة آل عمران إلى غير ذلك من الوقائع وما تعلق بها من الآيات القرآنية ، كل ذلك قد قُدِّر مسبقًا فى علم الله وقدرته ، ثم بعد حين أظهره الله سبحانه وتعالى للبشر على أرض الواقع فى حينه وقائع وأحداثًا يعقبها تنزل الآيات القرآنية لتعالج ما وقع وتكون مناسبة لما هو مطلوب . وقد تسبق الآيات القرآنية الوقائع كما فى قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة:١٤٢] وكان ذلك قبل أن يتحول المسلمون عن بيت المقدس، وكقوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا..﴾ [النساء:٩١].

ويقول آخر : فإن الوقائع مقدرة قبل وقوعها وعلم الله بها قائم والقرآن أنزله الله بعلمه جملة واحدة فى عالم الغيب مسجلاً لما سيكون ، فإذا وقعت الواقعة أو كانت ستقع ، تنزلت الآيات القرآنية الخاصة بها .. واعلم أن هذا أمر لا غرابة فيه ، فهو علم الله ومشيئته ، انتقلا من عالم الغيب إلى عالم الواقع المشاهد.

* هذه الحقيقة المتمثلة فى علم الله وإرادته ، والمعبَّر عنها بتنزل القرآن منجمًا حسب الوقائع نستخرج منها دليلاً على أنه من عند الله سبحانه وتعالى أنزله بعلمه، وهو دليل يقبله كل صاحب تفكير عقلى إيمانى ، ويقف أمامه جاهلاً أو منكراً كل صاحب تفكير عقلى مادى ، كما هو شأنه مع كل الأدلة المتعلقة بالغيبيات ، بل إنهم قد يتمادون فى ضلالهم وإنكارهم فيجعلون من أدلة التصديق والإيمان أقوالاً مضادة مهما كان وضوح تلك الأدلة وصحتها ، وفي هؤلاء الضالين المعاندين يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام:٧].

ويقول سبحانه: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

وقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦، ٩٧].

* ونضرب مثلا لتقريب (الحقيقة الثانية) إلى عقول أصحاب التفكير المادى

الذين لا يدركون إلا المحسوسات وأصبحت آلياتهم الفكرية هابطة إلى أرض الماديات وقاصرة عليها . ولنضرب مثلا - ولله المثل الأعلى - بحالة شخص يتولى منصبًا قياديًا ويقوم بوضع خطة متسعة تتألف من مجموعة من الإجراءات والأفعال والوقائع ، فبقدر قدرات القائد المدبر وإمكاناته وسعة اطلاعه وعلمه وسيطرته ، تكون معرفته لدقائق هذه الخطة مكانًا وزمانًا وأشخاصًا وأفعالاً وتحريكًا للأحداث والوقائع أو التنبؤ بما سيقع ، فهو يحدد تعليمات معينة فى أوقات معينة لأشخاص يعينهم وهو يتوقع ما قد يحدث من أمور وما قد يطرأ من متطلبات وذلك فى حالة التنفيذ الدقيق حيث يكون كل ذلك مدونًا بالبيانات والأرقام فى سجلات لا تغادر صغيرة ولا كبيرة تحتاجها هذه المهمة التى يشرف عليها ذلك المخلوق البشرى الذى يسمى رئيسًا أو قائداً أو غير ذلك من مسميات السلطة ، وقد يستبدل ذلك القائد . وكما هو حادث الآن « بجهاز الكمبيوتر » الذى يبرمج بكافة المعلومات ، ليعطى المطلوب من الحلول فى الحاضر والمستقبل فإذا جاء الوقت لتنفيذ مرحلة فى هذه المهمة فإن هذا القائد يكون لديه علم مسبق بها كما تكون لديه التعليمات التى يبلغها لمن يقع عليهم اختياره وهو بقدرته المحدودة ، المحدِّد للوقائع زمانًا ومكانًا وحالاً ، وهو بعلمه البشرى القاصر المطلع على تلك الوقائع العالم بها ،وهو بتنظيمه وإدارته مسجلاً لها فى سجلات خاصة ، حتى تزامن الواقعة والإرشادات .. أليس كذلك أيها الماديون الذين عجزت عقولكم عن إدراك الغيبيات وأصبحت قاصرة على إدراك ذواتكم وما حولكم من المحسوسات؟

فإن سلمتم بهذا المثل ، وقبلتم إسناد العلم والتدبير والإرادة لشخص مثلكم وهو بالنسبة لعلم الله وقدرته لا يساوى إلاَّ العدم .. فلماذا تقف عقولكم جاهلة أو متغافلة ، وأنها لكم مضطربة حائرة ، عن إدراك عظمة الألوهية ، وقدرة الله وعلمه ولماذا لا تدركون حقيقة التنزل ومن يجهل فليبحث وليتعلم ، ومن لم يستح فليفعل وليقل ما يشاء؟!!!.

ثانيا : من أسرار تنزل القرآن الكريم مفرقًا

سنتحدث هنا عن سر واحد من هذه الأسرار وهو قيام التنزل القرآنى المفرَّق دليل على علم الله وقدرته فنقول وبالله التوفيق : لقد تنزل القرآن الكريم على رسول الله

ﷺ مفرقًا حسب الوقائع والحوادث ، بينما هو فى أول أمره نزل جملة واحدة في عالم الغيب كما ذكرنا سابقًا ، قبل أن تقع هذه الوقائع والأحداث.

ويدرك المنصفون هذا السر بآليات التفكير الإيمانى : فهو سبحانه بكل شىء عليم، وهو سبحانه على كل شىء قدير ، وكل شىء قائم فى علم الله قبل وقوعه صغيراً كان أم كبيراً ، حقيراً كان أم عظيمًا ، سراً كان أم علنًا ، فعلم الله وقدرته يتساوى فيها الكم والكيف والأين والزمان لأن النسبية ليست من صفاته سبحانه وتعالى عن الأشباه والأغيار ، فهو سبحانه خالق هذه القوانين ، فلا نسبية عنده ولا كم ولا كيف ولا أين ولا زمان ، فالزمان كله عند الله - ماضيه وحاضره ومستقبله - (كن) والحوادث كلها والمخلوقات بأسرها تقع فى (كن) .. ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

انظر إلى الآيات القرآنية التى كانت تنزل مبينة لحكم الله فى الأقضية أو رداً على بعض الاستفسارات : هل هذه الآيات كانت تنزل تعقيبًا على هذه الوقائع وكأننا فى واقعنا البشرى الذى تقع فيه الحوادث ثم تعقبها الأحكام والتعليمات ، مما جعل الجهلة من أعداء الإسلام أصحاب آليات التفكير المادى يقولون ببشرية القرآن في تعقبه للحوادث وتزامنه مع الاستفسارات ؟! والجواب فى ذلك السر الذى أظهره تنزل القرآن مفرقًا وتحدثنا عنه آنفًا ، وكأن ما ظنه الجهال مطعنًا هو فى حقيقة أمره شاهد صدق ودليل عظمة وإعجاز : وهو أن القرآن جملة والوقائع تفصيلاً كانت قائمة فى علم الله وقدرته ، ثم أظهرها الله فى عالم المشاهدة، أحداثا تقع وآيات قرآنية تنزل بشأنها . وذلك هو سر عظيم من أسرار تنزل القرآن مفرقًا ، وبيان واضح بأن آيات القرآن لم تتألف تبعًا للوقائع والأحداث . فهذه الآيات وإن جاءت تعقيبًا على الوقائع والأحداث والأقضية والاستفسارات فى ظاهر الأمر وواقع الحال إلا أنها كانت موجودة من قبل فى القرآن الذى نزل جملة واحدة فى عالم الغيب ثم تنزل آيات قرآنية مفرقة فى عالم المشاهدة :

* فالصحابى الذى ذهب إلى مكة ليخرج منها قوما من المسلمين المستضعفين وأراد أن يتزوج من مشركة بمكة فأرجأ زوجه حتى يسأل رسول الله ﷺ بعد عودته، فنزل قوله تعالى ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة:٢٢١] لم يكن ذلك

فى حقيقة الأمر مجرد قضية وقعت ثم أعقبتها آيات قرآنية تنزلت حكمًا فيها، إذ أن ذلك لا يتناسب مع قدم القرآن ونزوله جملة واحدة في عالم الغيب باللوح المحفوظ والسماء الدنيا ، ولكن التفسير والبيان يكمن فى تلك الحقيقةالتى تحدثنا عنها وذلك السر الذى أشرنا إليه ، وذلك جانب من جوانب الإعجاز القرآنى المتعلق بالجانب الموضوعى وتنزل القرآن مفرقًا والله أعلم .

ثالثا : من حِكَمْ تنزل القرآن مفرقًا

الحكمة الأولى : تثبيت فؤاد النبى ﷺ :

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان:٣٢، ٣٣]. والأمر لا يحتاج إلى بيان أو كثرة من كلام بأن تنزل القرآن مفرقًا أوعى إلى دوام اتصال النبى ﷺ بالوحى مما لو كان دفعة واحدة ، وأن اتصاله ﷺ بالوحى من خلال تنزل آيات القرآن هو مصدر للثقة واليقين والاطمئنان والأنس بلحظات لقاء الوحى، ونحن نعلم مدى الضيق الذى عاناه النبى ﷺ خلال الفترة الوجيزة التى انقطع عنه الوحى فيها حتى نزل قوله تعالى فى سورة الضحى ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ [الضحى:٥]. ولقد تنزل القرآن مفرقًا ،على طول سنوات البعثة وخلال ٢٣ عاما، ولم ينزل جملة واحدة وذلك لتثبيت فؤاده ﷺ ، وقد جاء ذلك ردًا على الانتقادات الفاسدة والاعتراضات الباطلة التى أثارها الكفار مطالبين أن يكون نزول القرآن جملة واحدة فأبان الله سبحانه وتعالى الحكمة لهذا التنزل المفرق وهى فى حد ذاتها حكمة بالغة وحجة دامغة.

* ولئن كان الرسول ﷺ قد وثق بمولاه ثقة مطلقة واطمأن إلى عنايته ورضاه بما تنزل عليه من الآيات القرآنية الدالة على ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ [الضحى:٥] وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة:٦٧] وقوله تعالى ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ [الفتح:١] وقوله تعالى: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح:٢] وغير ذلك من الآيات القرآنية فإن نزول الوحى كان يشعره بأنه موصول بربه غير مقطوع،

وأنه مستمر فى دعوته غير ممنوع ، وأن بعثته قائمة ورسالته دائمة فهو ﷺ قد ارتبط بالوحى وتنزل القرآن عليه وأصبح ذلك من إشارات التأييد والتثبيت حتى أنه لم يطق مرة انقطاع الوحى عنه حتى نزل قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:٣] ومادام هذا حاله ﷺ فقد كان من لطف الله به ودوام عطفه عليه أن جعل له القرآن مفرقًا ، والوحى متصلاً به ﷺ إلى أن انتهى أجله تزامنًا مع انتهاء بعثته ﷺ

* ولا يخفى على كل فقيه بالسيرة النبوية وعرف سير الدعوة الإسلامية أن حياته ﷺ كانت حافلة بالأحداث الجسام والأمور العظام ، وقد تعرض ﷺ لكل صنوف العناد والعداء والخصومات والاعتداء ، ومر بأقسى الظروف وأخطر المواقف فى كل مراحل الدعوة : فى مكة من قريش وأعوانهم ومعه الفئة المستضعفة من المسلمين ، وفى المدينة من اليهود والأحزاب ومن داخل الجزيرة وخارجها ، ومعه المؤمنون من المهاجرين والأنصار ، ومن هذا نرى أن حياته ﷺ فى دعوته كانت كلها جهاداً وقت أن كان مع القلة المستضعفة ، وبعد أن صار مع الكثرة الغالبة بالمدينة، وقت أن كان بمكة فى مواجهة قريش بجبروتها وسلطانها ، وبعد أن انتقل إلى المدينة فأصبح فى مواجهة اليهود بمكرهم ودهائهم، والأحزاب بقوة تجمعهم واتساع نفوذهم . فالدعوة لم تكن سهلة هينة كدعوة عيسى عليه السلام . ولم تكن كدعوة موسى ، ومن قبله نوح وعاد وثمود الذين قهرهم الله بالعقاب والعذاب ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠].

لهذا فقد كان تثبيت فؤد النبى ﷺ بالقرآن مفرقًا وبالوحى متواصلاً أمراً فى غاية الأهمية لحركة الدعوة واستمرارها وتسلية الرسول وطمأنينته ، ودوام اليقين وتعاظمه.

* ولقد تنوعت الآيات القرآنية فى تثبيت فؤاده ﷺ : فتارة كان التثبيت بإنزال قصص الأنبياء والمرسلين متفرقة فى أزمنة متباعدة بيانًا له ﷺ من الله سبحانه وتعالى بما ينزله من عذاب على أعدائه ، وبما يؤيد به رسله وأنبياءه وأن العاقبة للمتقين رغم ما يصيبهم وأن النصر للفئة المؤمنة مهما طال الزمن وحاق الخطر

﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

– وتارة كان بإنزال الآيات التى تحض على الصبر، والثبات كقوله تعالى ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]. وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وقوله تعالى ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨].

– وتارة تكون الآيات بالبشرى والوعد بالنصر والغلبة للمسلمين: كقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]. ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ١، ٢].

– وتارة كان التثبيت بإنزال آيات الحجج والبراهين التى تدحض أكاذيب الكفار والمعاندين والمعتدين وتنذرهم بسوء العاقبة، وتفضح الخصوم من أهل الكتاب وتكشف عن مفاسدهم وتتوعدهم هم والمشركين والمنافقين، والآيات فى ذلك كثيرة فى القرآن منها: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]. وقوله تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [آل عمران: ١٥١]. وقوله تعالى ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

وقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

« وعلى الجملة فآيات الذكر الحكيم كلها كانت تثبيتا لقلبه الشريف ﷺ ... وهذه الحكمة هي أهم حكَم تنجيم القرآن، ويمكن رجع باقى الحكَم إليها ولذلك اقتصر الله عليها فى الرد على الكفار حين اعترضوا على نزول القرآن مفرقًا »[1].

(١) تاريخ المصحف الشريف ص ١٩، ٢٠.

الحكمة الثانية : الإعجاز والتحدى :

لقد أرسل الله سبحانه وتعالى النبى ﷺ وجعل له القرآن الكريم المعجزة الكبرى الدالة على صدق دعوته ، لهذا فقد جاء القرآن معجزاً فى كل أموره وأحواله : فى نظمه وأسلوبه ، وفى موضوعه وخبره، وفى فعله وأثره : كما جاء معجزاً فى تكوينه وظهوره ، وتنزله مفرقًا فهو جملة واحدة بالملأ الأعلى ثم هو وحى منزل وآيات متفرقة، وهو كتاب محكم ومحفوظ فى قلب الرسول وصدره ومنقول إلى صحفه ثم إلى المصاحف متواتراً عصراً بعد عصر ،وهذه كلها شواهد إعجاز لم تكن بغيره من كتب الرسالات السابقة للإسلام والتى نزلت لا باعتبارها من المعجزات ولكن باعتبارها كتب للتشريع والتعاليم تنقضى بانتهاء الغرض منها ، ولهذا لم يصنها الله من التحريف والتبديل ولم يتكفل بحفظها كما تكفل بحفظ القرآن الكريم ، الذى جعله الله معجزة فى ذاته وحجة على عباده وتصديقًا لخاتم رسله وأنبيائه سيدنا محمد ﷺ.

ولما كان القرآن الكريم شامل الإعجاز ، دائم التحدى منذ تنزله وحيًا إلى قيام الساعة ، فقد جاء كما قلناعلى نسق فريد، وكان تنزله مفرقًا وليس جملة واحدة على عكس كتب الرسالات التى نزلت جملة واحدة.

ونسرد أوجه الإعجاز والتحدى التى تضمنتها الحكمة الثانية فيما يلى:

أولاً : تنزلت الآيات القرآنية متفرقة لتناسب وقائع متعددة ، وتعالج قضايا مختلفة وتتحدث فى موضوعات شتى وذلك على مدى ما يزيد على عشرين عامًا ، وكانت تتنزل لتُضَمَّ إلى آيات أخرى سبقتها وقد تكون مجاورة لها وقد تكون بعيدة عنها فى سور أخرى ، ومع ذلك فقد كانت الآيات بعد انضمام بعضها إلى البعض مهما كان تباعدها الزمنى فى النزول بمثابة وحدات متكاملة فى التأليف متجانسة فى النظم ، فلا تفكك ولا انقسام بل نجوم كلام تجاور نجوم كلام أخرى مع تناسق فى الجرس وعذوبة فى التلاوة ، كما تشكل الآيات المنضمة بعضها إلى بعض مهما كان التباعد الزمنى بينها فقرات بيانية، ووحدات موضوعية وسوراً تستكمل الغرض

وتستوفيه فى تناسب بين الآيات داخل السور، وتناسب بين السور فى تجاورها[١] وتوزيع مناسب للموضوعات على طول القرآن وعدد الموضوعات، وتنزله مفرقا فى ثلاثة وعشرين عاما فتأمل كيف تنزلت الآيات مفرقة ثم أصبحت متجاورة فى نظم معجز وتنسيق مبدع وترتيب يثير الدهشة والإعجاب فسبحان الله الذى خلق فقدر، وكل شىء عنده بمقدار، أليس ذلك من شواهد الإعجاز فى تكوين القرآن الكريم وهو التنزل مفرقًا والذى تضمنته الحكمة الثانية ؟ وكما قال العلماء فى هذا الصدد «أما القرآن الكريم فقد خرق العادة فى هذه الناحية أيضًا : نزل مفرقًا منجمًا، ولكنه تم مترابطًا محكمًا، وتفرقت نجومه تفرق الأسباب، ولكن اجتمع نظمه، ولم يتكامل نزوله إلا بعد (ثلاثة وعشرين عامًا) ولكن تكامل انسجامه بداية وختامًا ... إذن : فالقرآن الكريم ينطق نزوله منجمًا بأنه كلام الله وحده، وتلك حكمة جليلة الشأن تدل الخلق على الحق فى مصدر القرآن! . ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [الفرقان:٦] ا.هـ[٢]. باختصار

* والذين يقومون بالتأليف ويستكملون أعمالهم على مراحل تباعدت أو تقاربت، وسواء كانت مؤلفاتهم قصيرة أم مطولة، فإنك ترى الفقرات لا تشكل وحدة تعبيرية مترابطة عن ناحية النظم كما أن الترابط يكون مرحليًا وجزئيًا فيما يتكون من فصول وأقسام وفقرات .. إلخ، أما القرآن الكريم ورغم تنزله مفرقًا فإنك ترى فيه ترابطًا وانسجامًا ووحدة تجاور من أوله إلى آخره، كما لا ترى فيه اختلافًا بين المطلع والمقطع، قوى الاتصال والترابط آخذ بعضه برقاب بعض فى سوره وآياته وجمله، وصدق الله العظيم القائل ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١].

– قال الشيخ ولى الدين الملوى «ومن المعجز أسلوبه ونظمه الباهر، والذى ينبغى فى كل آية أن يبحث أول كل شىء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم

---

(١) انظر المباحث حول جمع القرآن والمناسبة بين الآيات وبين السور.

(٢) مناهل العرفان ٥٤، ٥٥ .

المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها ؟ ففى هذا علم جم ، وهكذا فى السور يطلب وجه اتصالها لما قبلها وما سيقت له ».

- ويقول الإمام فخر الدين الرازى « ومن تأمل فى لطائف نظم السورة وفى بدائع ترتيبها ، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو معجز أيضًا بسبب ترتيبه ونظم آياته. ولعل الذين قالوا إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك إلا أنى رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار »

- ويقول الزرقانى : « وهنا حقيقة أحب ألا تغرب عن علمك وهى أن هذا الروض الربانى اليافع (القرآن الكريم) يقوم بين جُمله وآيه وسوره تناسب بارع وارتباط الحكم وائتلاف بديع ينتهى إلى الإعجاز، خصوصًا إذا لاحظنا نزوله منجمًا على السنين والشهور والأيام ».

ثانيا : تنجيم القرآن وتنزله في بضع آيات ، والتحدى به بالقدر الذى نزل منه أكثر دلالة على الإعجاز والتحدى مما لو نزل القرآن جملة واحدة وتحداهم الرسول ﷺ بجملته ، حيث إنه فى الحال الثانى يكون التحدى بالكل وبقدر ضخم ، فإذا ظهر عجزهم فى الجزء ، فهم فى الكل أشد عجزاً وبهذا « يقطع عليهم سبل المعاذير التى كان يمكن أن يحتجوا بها لو كان نزوله جملة واحدة . وهذا ما كان ، فقد كانت الآيات تنزل فى فترات من الزمان حسب المقتضيات التى سنقف عليها قريبًا إن شاء الله تعالى . وكان الرسول ﷺ يتحداهم بها ، ويصارحهم بأنهم لن يستطيعوا معارضتها والإتيان بمثلها ليلهب نفوسهم ويثير فيهم الهمة والنشاط ليأتوا بمثلها أو بما يقاربها ، فلم يكن منهم إلا الفشل التام والإحجام المخزى . ومع هذا الفشل وهذا العجز يحكى الله تعالى عنهم أنهم قالوا ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١] ... « ولعمر الحق ما قالوا شيئا ولا قدروا على شىء ولو قدروا ما تأخروا ... أليس إحجامهم عن معارضة بعض آياته مع انفساح المدة وتراخى الأجل أعظم دليل على عجزهم التام عن معارضة القرآن الكريم كله »[1]

(١) تاريخ المصحف الشريف ص ٢٤، ٢٥.

والمقولة التى حكاها القرآن عن المعاندين فى زعمهم وقولهم ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال:٣١] هى مقولة كل مجادل عاجز يتسلح بها ويخفى بها عجزه وفشله فى مواجهته الحق.

الحكمة الثالثة : دره الشبهات ودفع البهتان :

تنزل القرآن آيات مفرقة على مدى ثلاثة وعشرين عامًا ، وعدم نزوله جملة واحدة وهو مظهر من مظاهر الإعجاز فى تكوين القرآن وأسلوب تأليفى يدرأ عن القرآن الكريم بصورة قطعية الشبهات والبهتان بأنه من تأليف شخص وقام الرسول ﷺ بنسبته إلى نفسه . فمن الجائز أن يؤلف شخص كتابًا ويعطيه إلى شخص آخر ينسبه إلى نفسه ، وهذا النسب غير الشرعي فى التأليف أمره معروف وحدوثه ميسور فى حالة ما إذا كان الكتاب كامل التأليف ويكتفى المنسوب إليه نسبًا غير شرعى أن يعلق أنه صاحب الكتاب ولكنه لا يملك القدرة على التبيين ويشرح أو يفسر أو يوضح طالما أن قدراته العقلية وبيانه وكفاءته وعلمه دون مستوى موسوعات الكتاب وأسلوبه .

أما والقرآن لم يكن كتابًا مجملاً ، واستطاع الرسول أن يقوم بشرح القرآن وبيانه ،وكان أقدر العرب قاطبة على تدريسه وتعليمه فقد سقط الاحتمالان - اللذان يمكن الاستناد إليهما فى نسبة القرآن إلى غير رسول الله ﷺ : الاحتمال الأول أن يكون كتابًا كاملاً فيكون لشخص وتسهل نسبته لشخص آخر وهذا لم يحدث؛ لأن القرآن نزل مفرقًا ، والاحتمال الثاني أن يوجد من هو أقدر على فهم القرآن وعلى توضيحه وبيانه وشرحه وتعليمه ومن المقطوع به أن الرسول ﷺ كان أعلم العرب بالقرآن الكريم، وكان الصحابة وكافة المسلمين عالة عليه ﷺ ودون مستواه فى المعرفة بكتاب الله .

* الأمر الثانى : والأهم هو أن القرآن تنزل مفرقًا ونزل وحيًا على مسمع ومرأى

من الصحابة وشاهدوا كيف كانت تنزل الآيات على رسول الله ﷺ، واستمر النزول ما يقارب ثلاثة وعشرين عامًا، وبهذه الصورة فى التأليف لم يكن هناك أدنى احتمال فى وجود من يلقن الرسول ﷺ بحيث يكون ملازمًا له فى كل تحركاته، فى مكة والمدينة فى سفره وحضره، ولا يفتضح أمره ولا ينكشف سره ولا يعرف الصحابة أنه يؤلف القرآن للرسول ﷺ هذا إذا افترضنا جدلاً أن مستوى القرآن فى مقدور فصحاء العرب فيقوم من بينهم أفصحم ليؤلف للرسول ﷺ على مدى فترة البعثة فى مكة والمدينة وكأنه ملقن يقوم بتلقين الرسول على أن يكون بجواره ساعة تنزل الوحى ولديه من الآيات ما يوافق المناسبة حكمًا أو ردًا أو جوابًا ... ولا أدرى بعد ذلك ما نرد به على أولئك الجهال الأغبياء الذين يقولون بأن القرآن مؤلف لرسول الله ﷺ خاصة وهم يدركون جملة من الأمور التى يستحيل معها أنه ينسب القرآن إلى غير الله سبحانه وتعالى منها : نزوله وحيًا مفرقًا على مرأى ومسمع من الصحابة، ومنها، علو قدره وإعجازه ومنها شيوعه وقوة أثره ودوامه. ومنها أنه فى كل العصور يتحدى.

إنها الحماقة والجهالة واللامبالاة في تقديم الرأى وإقحامه على الفكر الإنسانى بأساليب دراسية ملفقة ومناهج علمية مشبوهة سوف نناقشها .

رابعًا : من فوائد تنزل القرآن مفرقًا

لقد حسم القرآن الكريم القول عن فوائد تنزل القرآن وحيًا مفرقًا وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾ [الإسراء:١٠٦].

« أى نزلناه آيات بعد آيات على حسب المصالح لتحكم بين الناس يا محمد ﷺ بما جاء فيه ولتعلم الناس، لأن التعليم والفهم يأتى بتوالى نزول الآيات القرآنية متتابعة متفرقة مفصلة ولا يأتى الفهم بنزول القرآن جملة واحدة »[1].

(١) منار الإسلام ص ٩، ١٠.

الفائدة الأولى : تيسير الحفظ والفهم والعمل :

ليس القرآن الكريم فكراً نظريًا ، يكتفى بتقديم فلسفات ومجموعة من الأقوال والآراء ، وليس كتابًا كسائر كتب القادة والزعماء التى يبثون فيها كمًا من الشعارات وأكوامًا من الوعود والتطلعات كما يبثون فيها « إيديولجيات » تعبر عن رغباتهم وطموحاتهم أمثال (كفاحى) (وفلسفة الثورة) و (الكتاب الأخضر).

يسوقون إليها أتباعهم سوق السوائم ويقهرونهم على احترامها بالقوة . ولم يكن القرآن كتابًا مرحليًا يخص عصراً دون عصر أو مكانًا دون مكان أوجنسًا دون جنس، ولم يكن مجرد كتاب مقدس يحتوى على مجموعة من المواعظ والتعاليم والترانيم التى ترقق القلوب وتسلى النفوس، ولم يكن كتابًا أدبيًا به من القطع النثرية والقصص ليتسلى به القراء ثم يضعونه فى مكاتبهم تراثًا . . . لم يكن القرآن من جنس أى من هذه التصانيف ، ومن يتوهم أو يزعم أنه واحد متميز من هذه التصانيف أو أنه يماثلها مجتمعة فى مصنف واحد فقد جهل وسفه وخاب وخسر ، وجانب الصواب وتعامى عن الحقيقة .

فالقرآن الكريم جاء من الله وحيًا مفرقًا على مدى ثلاثة وعشرين عامًا، وقد تأكد العلم بذلك بالمشاهدة والتواتر من عدول عن عدول ومن جمع عن جمع، وقد حوى من ألوان الإعجاز ما عرف عنه وما لم يعرف بعد، أسلوبًا وموضوعًا وغير ذلك مما سنذكره فى باب الإعجاز القرآنى . وهو كتاب يتعبد به المسلم ويحرص على حفظه وتلاوته.....

وهو كتاب يرسم منهاج الحياة للبشر كافة سلوكًا وأدبًا وتشريعًا ....

وهو كتاب يتحدث عن أمور الدنيا والكونيات كما يتحدث عن أحوال الآخرة والغيبيات .

وهو كتاب خالد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.......

إذن فالقرآن الكريم كتاب يغاير سائر الكتب فى نظمه وموضوعه ومقاصده ،

لهذا كان حريًا أن يعرض على الفكر الإنسانى بطريقة متميزة كى يستطيع المسلمون المعاصرون أن يفهموه ، ويدرسوه ويتعلموه، وأن يحفظوه ويعملوا به ، وحتى يستقر فى العقول والوجدان علماً نافعًا وعملاً صالحًا . ومن خلال تنزل القرآن وحيًا مفرقًا عايشه الصحابة ، تنزل القرآن آيات بينات على مراحل متتابعة وأزمان متقاربة بشوق متجدد وانتظار متكرر ، وكان تنزل الوحى مبعث تفاؤل وثقة واطمئنان وتثبيت لقلوبهم ، فعاشوا بأمل مشرق ويقين فى نصر الله يتزايد من حين لآخر كلما تنزلت آيات القرآن على رسول الله تبشر الصابرين وتطمئن المستضعفين كما تنذر الكفار والمنافقين بأوخم العواقب ، كل ذلك بوعود صادقة من الله سبحانه وتعالى ووعيد قاطع منه سبحانه . وهكذا عاش الصحابة نتيجة لتنزل القرآن مفرقًا على مدى ثلاثة وعشرين عامًا بين الخوف والرجاء ، والأمل والعطاء ، والقول والعمل ، والتنبؤات ووقوعها والبشارات وتحققها . فلم تكن آيات القرآن الكريم وهى تنزل مفرقة والسنة النبوية شارحة لها ، مجرد عبارات جوفاء أو وعود كاذبة أو تطلعات فاشلة . ولا نعتقد أن جيلاً عاش على ما ذكرنا من الأحوال مثل جيل الصحابة رضوان الله عليهم ، ولا نعتقد أن هناك دعوة أو رسالة عاش أصحابها فى كنفها وإيقاعها اليومى المتجدد بتنزل آيات القرآن حقائق تتلى مثل دعوة الإسلام .

وبفضل تنزل آيات القرآن مفرقة أخذ الصحابة كتاب الله « بتمهل وقوة علماً وعملاً واعتقاداً وفى هذا المعنى يقول الصحابى الجليل عبدالله بن مسعود رضى الله عنه «كان الرجل إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن ويعمل بهن».

الفائدة الثانية : مسايرة الحوادث والتشريع(١)

ولا يتبادر إلى الذهن أن مسايرة الحوادث بتنزل آيات القرآن مفرقة معناه المتابعة والتعقيب ، أى أن تقع الحادثة فتتنزل الآيات القرآنية لتعقب عليها وأن الآيات

---

(١) ومسايرة التشريع من أعظم فوائد تنزل القرآن مفرقًا ، ومن يطالع (المناسبة) أى أسباب نزول آيات القرآن الكريم يدرك ذلك بكل وضوح . وانظر على سبيل المثال قوله تعالى ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦] وهى آية مدنية ملحقة بسورة النحل المكية . وقد نزلت عقب موقعة أحد التى قام فيها المشركون بالتمثيل بأجساد الشهداء وكذلك =

القرآنية فى وجودها تالية للحوادث فى وقوعها ، كما يحدث مثلاً فى التشريع الوضعى حيث تحدث الوقائع ، والأحداث وتظهر النوازل فيقوم المشرعون ورجال القانون والحكام بإيجاد الأحكام وسن القوانين فيكون التشريع تعقيبًا على الحوادث والأقضية ، فهذا فهم سقيم وفكر خاطئ وقد سبق أن ناقشنا الموضوع فى مبحثين وقلنا بأن القرآن الكريم نزل جملة واحدة فى عالم الغيب ثم تنزل وحيًا بتقدير الله آيات متفرقة لتعالج القضايا والأحداث وترد على الاستفسارات والمعارضات ،وهى أيضًا كانت مقدرة فى علم الله فكان التقدير بين الأحداث والآيات فى علم الله، ثم ظهرا متزامنين بالتقديم والتأخير بينهما فى عالم المشاهدة والواقع، فالقرآن إذن كان كامل الوجود ، وتنزل الآيات مفرقة هو بمثابة المسايرة للأقضية والأحداث ﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١] فعلم الله وكلامه ومشيئته مترابطة ولا تنفصل بسبب الزمان إذ لا وجود له مع قدرة الله وإرادته

ويمكننا أن نقسم الأحداث التى تنزلت الآيات القرآنية مفرقة لتسيرها إلى ستة أقسام نذكرها فيما يلى باختصار : [١]

القسم الأول : الأقضية والوقائع التى كانت تحدث فى المجتمع الإسلامى فيحتاج المسلمون إلى معرفة الحكم فيها ، فتتنزل الآيات من القرآن الكريم مبينة حكم الله فيها فيصبح الحكم تشريعًا يطبق على الوقائع المماثلة وليست العبرة بخصوص السبب ، فالحادثة تقع وحكم الله يتنزل والتشريع يتضح ، والشريعة الإسلامية

= فعلوا بجسد حمزة رضى الله عنه فبقروا بطنه وأخرجوا أحشاءه ، فلما رأى المؤمنون ذلك اغتاظوا، ورُوى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :لئن أظفرنا الله عليهم لأمثلن بهم . . . والذى يفقه شمائل الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، ويقف على سيرته العظيمة ومن منطلق قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] يدرك يقينًا أن ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام، قد أجراه الله على لسانه ليكون نموذجًا حيًا للتشريع الذى تنزل به الآيات القرآنية ، فيلتزم الرسول به ، ويهتدى المسلمون بهديه صلوات الله وسلامه عليه ، وكأن الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام بمثابة المثل والمثال فى غير خطيئة أو معصية ، فليست العبرة بما يصدر من قول وفعل ولكن العبرة بالتشريع الذى يلتزم ويدعو إليه صلوات الله وسلامه عليه حسب ما يتنزل من آيات القرآن الكريم وهكذا يكون التشريع الواقعى والالتزام الصادق والقدوة والمثل صلوات الله وسلامه عليه .

(١) انظر تاريخ المصحف الشريف ص٢٨ -٣٣.

تتكامل ، وهكذا اقتضت إرادة الله وحكمته وعلمه وقدرته أن تكون آيات التشريع مسايرة للأقضية والحوادث ويصبح للمسلمين كتاب من عند الله عز وجل يحكمون به ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤]

القسم الثاني : الأسئلة التى كانت توجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسلمين أو من غيرهم ، والمقترحات التى كان المشركون يعرضونها فكانت الآيات تتنزل إجابة عن هذه الأسئلة وهذه المقترحات وهذه الأسئلة على قسمين: **الأول** : ما كان يقصد به التثبت من رسالة النبى صلى الله عليه وسلم كالسؤال عن الروح والجواب عنه فى قوله تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء:٨٥] والسؤال عن ذى القرنين والجواب عنه فى قوله تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف:٨٣] إلى آخر الآيات التى وردت فى شأن ذى القرنين فى سوره الكهف. **الثاني** : ما كان يقصد به الوقوف على الحقيقة ومعرفة حكم الله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة:٢١٩] وقوله تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى... ﴾ [البقرة:٢٢٢].

فكان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا وجه له سؤال من المسلمين أو من غيرهم أو اقترح عليه المشركون شيئا ، نزلت الآيات بالرد الشافى

القسم الثالث : الشُّبَه التى كانت تختلج فى صدور المشركين فى معرض إنكار النبوة والبعث وغيرها من عقائد الإسلام وهى كثيرة جداً فى القرآن الكريم وفيه قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا ﴾ [المائدة:٧٦] وقوله تعالى ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) لَّعَنَهُ اللَّهُ ﴾ [النساء:١١٧، ١١٨].

القسم الرابع : لفْت نظر المسلمين إلى تصحيح أغلاطهم التى يخطئون فيها وردِّهم إلى الصواب : وذلك نحو الآيات المتعلقه بغزوة حنين كما جاء فى قوله تعالى

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا... ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٧]. وهذه الآيات تنعى على المسلمين إعجابهم بأنفسهم واغترارهم بقوتهم وتذكرهم بنعم الله عليهم بإنزال الطمأنينة والأمن فى قلوبهم وإنزال الملائكة لنصرتهم ، ثم تهيب بهم أن يثوبوا إلى رشدهم ويرجعوا لربهم.

القسم الخامس: كشف حال المنافقين وهتك أسرارهم وسرائرهم للنبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، ليأخذوا منهم حذرهم وليتقوا شرهم ولا يركنوا إليهم ولا يُسِرُّوا إليهم ولا يتخذوا منهم أولياء . وحتى يتوب من شاء من المنافقين واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ⁽٨⁾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة:٨، ٩] وما بها من الآيات إلى الآية العشرين بالبقرة ﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ [التوبة:٤٨] وقد فضحت سورة التوبة المنافقين فى كثير من آياتها .

القسم السادس: ما تقتضيه أحوال المسلمين فى السلم والحرب ، ومن أمثلته الآيات التى كانت تتنزل فى أوقات السلم لتقرير عقائد الدين وبيان شرائع الإسلام وفضائل الأخلاق والآداب ومحاسن العادات ، وبيان جلائل العبر والسنن الاجتماعيه فى قصص الأنبياء والمرسلين والأمم الماضية ، وكذلك الآيات المتعلقة بشئون الحرب ، كآيات الحث على الجهاد فى سبيل الله دفاعًا عن العقيدة والآيات التى نزلت فى الغزوات سواء كانت فى أثنائها أو بعد انتهائها لتقرير الأحكام المتعلقه بها كالآيات التى نزلت فى غزوة بدر بسورة الأنفال ، والآيات التى نزلت فى غزوة أحد بآل عمران ، والآيات التى نزلت فى غزوة الأحزاب فى السورة التى سميت بهذا الاسم ، والآيات التى نزلت فى الحديبية وهى فى سورة الفتح والآيات التى نزلت فى غزوة تبوك وهى فى سورة التوبة » ا. هـ بتصرف. وليست الفوائد من تنزل القرآن منجمًا (مفرقًا) قاصرة على عصر النبوة وعلى الصحابة الذين عاصروا نزول الوحى ، بل إنها فوائد لكل المسلمين فى كل العصور وكل من بلغته دعوة الإسلام والقرآن ، أخباراً متواترة عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ففائدة التحدى بجزء من القرآن الذى كان مفرقًا، هى تكريس للإعجاز القرآنى ومصدر إيمان متجدد.

وتثبيت فؤاد النبى صلى الله عليه وسلم تنزل القرآن مفرقًا، فيه تكريم وعطف على نبى الإسلام صلوات الله وسلامه عليه، وهذا لا شك يدخل الرضاء والسرور فى نفوس المسلمين على مر العصور لإكرام الله لرسولهم وهم مطالبون دائمًا أن يحبوا الخير والفضل له صلى الله عليه وسلم.

وتيسير الحفظ والفهم والعمل للصحابه رضوان الله عليهم وسلم بتنزل القرآن مفرقًا، قد عاد ويعود على كافه المسلمين بالخير والنفع. فقد أمكن للصحابة أن ينقلوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ما ينفع المسلمين فى أمور دينهم: القرآن الكريم محفوظاً فى الصدور، وتعاليم الإسلام فى العقيدة والعبادات والسلوك والأخلاق والمعاملات، علمًا وعملاً وذلك بفضل تنزل القرآن مفرقًا مما مكّن الصحابة من استيعاب آيات القرآن للعمل بما جاء فيها بكل دقة وإتقان.

خامسًا: تصويب أقوال عن تنزل القرآن مفرقًا: لم يكن تنزل القرآن مفرقًا هو بقصد التدرج التربوى أو التعليمى أو الاعتقادى وبمفهوم الماديين عشاق فلسفة التطور أو حسب ما يقول بعض العلماء المسلمين الذين يشبهون نزول القرآن مفرقًا بالتدرج فى الأفعال ويعللون هذا التفرق بما يوحى بمراعاة بيئة العرب وأحوالهم ويلقى ظلالاً من الشبهة على بشرية القرآن الكريم، فيقولون مثلاً: إن القرآن نزل فى أمة أمية وهم العرب لهذا فقد جاء مفرقا لكى يسهل حفظه، وللتمهيد إلى التخلى عن العقائد الباطلة والسلوكيات السيئة والعادات الذميمة، وهكذا جاء القرآن متدرجًا. أو كما يقول قائل «يعلم كل من درس تاريخ المسلمين من بدء ظهور الإسلام إلى ختام نزوله وأحاط علمًا بالمحن التى أصابتهم والشدائد التى انتابتهم أنه لم يكن من الممكن عادة أن يتفرغوا لدراسة كتاب ممتد النسق بعيد الغاية كالقرآن الكريم لو جاءهم مرة واحدة، فقد كانوا أميين لا يعرفون القراءة والكتابة. ولم تكن أدوات الكتابة ميسورة لدى الكاتبين منهم على ندرتهم . . . ولا من الأموال ما يمكنهم من تنظيم معاهد علمية يدرسون فيها كتاب ربهم ولا من فراغ الوقت وهدوء البال ما يمكنهم من التوفر على حفظ ذلك وفهمه ودراسته، بل أحاطت بهم الشواغل والمحن

من كل صوب . . فلم يكن من الميسور وهذه ظروف حياتهم أن يتفرغوا لحفظ كتاب عظيم كالقرآن لو نزل مرة واحدة [١] ا. هـ باختصار

ويقول آخر عن فوائد تنزل القرآن مفرقًا «تيسير حفظ القرآن على الأمة العربية، وهى كما علمت أمة أمية وأدوات الكتابة لم تكن ميسورة لديهم . . . والتمهيد لكمال تخليهم عن عقائدهم الباطلة وعباداتهم الفاسدة ، وذلك بأن يرضوا على هذا التخلى شيئًا فشيئًا بسبب نزول القرآن عليهم كذلك شيئًا فشيئًا »[٢] ا.هـ بتصرف. هذه الأقوال وأمثالها تعلل التنجيم والتنزل المفرق ، وكأن القرآن الكريم ابن بيئته ووليد الظروف والأحوال التى تنزل فيها ، ولهذا فإنها أقوال خطيرة فضلاً عن كونها تعليلات هزيلة ولا تصمد أمام الحقائق والوقائع .

ونرد على تلك الأقوال بالآتى :

١- كان القرشيون بخاصة والعرب بعامة الذين عاصروا نزول القرآن رغم أميتهم المحصورة فى عدم معرفة القراءة والكتابة أهل فصاحة وبلاغة بسليقتهم ، وأصحاب فطنة وذكاء بفطرتهم ، فلم تكن الأمية إلا قصوراً كسبًا فى ثقافتهم ، ولكن تفكيرهم وفكرهم وإدراكهم كان عالى المستوى ، ويشهد بذلك ما ينقل عن أشعارهم ولقاءاتهم الثقافية ، وندواتهم ، وأسواقهم العلمية التى كانوا يقيمونها كل عام ، كما يشهد بذلك رقى لغتهم العربية وما يظهر عليها من البلاغة والبيان ، وقد تنزل القرآن بها قرآنًا عربيًا ، ولا يمكن أن توجد أمة ذات مستوى رفيع فى اللغة والتخاطب إلاً ويكون ذلك دليلاً على ارتفاع مستوى التفكير بها . فلم تكن قريش ومن حولها من العرب منحطة فكريًا أو متخلفة عقليًا وإن كان حظها فى القراءة والكتابة كان ضعيفًا أى كانت أمة أمية ، علميًا بأن الأمية كانت ظاهرة ثقافية متفشية فى العالم ، فلم تكن معرفة القراءة والكتابة على درجة من الأهمية كما هو فى العصور المتأخرة . ولم يكن هناك ربط بين الأمية والجهل ، فلربما كان الشخص فى الماضى لا يعرف القراءة والكتابة ولكنه واسع الأفق حاد الذكاء يحفظ من الأشعار والأمثال مالا يحفظه كبار المثقفين الحاذقين للقراءة والكتابة فى عصرنا الحالى .

---

(١) تاريخ المصحف الشريف ٢١، ٢٢.

(٢) مناهل العرقا ص ٤٨، ٤٩.

ولهذا فقد كانت قريش ومن حولها من العرب رغم بساطة أساليبهم التعليمية أقدر على فهم القرآن من أولئك المنتسبين إلى أعلى معاهد التعليم فى حاضرنا ومستقبلنا ، يشهد بذلك استيعابهم للقرآن وفهمهم لمعانيه وإدراكهم لمقاصده ، وتفقههم فى أحكامه وتعاليمه فالتنجيم (أى نزول القرآن مفرقًا) جاء صفة من صفات التنزل ، لا بسبب أمية العرب ، ولكن لتحقيق فائدة التلقى والفهم والعمل بالقرآن على دفعات ميسرة دون إرهاق أو تعجيز .

٢ - أما عن إمكانية العرب فى الكتابة فلم تكن متدنية إلى درجة تنعكس على طبيعة نزول القرآن كما يقول بسطاء الفهم والتعليل : بأن نزول القرآن مفرقًا كان لعدم توفر إمكانية الكتابة ومستلزماتها لدى كُتَّاب الوحى الذين كانوا قلة من المسلمين ، فهذا هراء منهم ولا يصح أن يقال ، وسقطة لا تصدر إلا عن البسطاء أو الخبثاء على حد سواء . فمواد الكتابة التى كانت معروفة ومألوفة كانت موجودة وكان فى مقدور المسلمين اقتناءها وفيهم الأغنياء أمثال أبى بكر وعثمان رضى الله عنهما . ولا يجوز عقلاً أو لا يصح نقلاً أن يقول أحد بأن أدوات الكتابة كانت من الندرة بحيث انعكس ذلك على نزول القرآن فتنزل مفرقًا لإتاحة الفرصة للرسول عليه الصلاه والسلام أن يقتنى ما يفى بالغرض من أدوات الكتابة وهى لا تتعدى قِطَعًا من الرقاع أو اللخاف أو غير ذلك مما كان شائعًا وموجوداً، كما أن كتبة الوحى كانوا كثيرين ووصلوا إلى أربعين فى مكة والمدينة وهم بخلاف آخرين غيرهم كانوا يعرفون القراءة والكتابة ، فإذا كان تنزل القرآن مفرقًا بسبب ضعف إمكانيات الكتابة فى بدء البعثة والمسلمون قلة ، فلماذا لم يتغير أسلوب نزول القرآن بعد أن تحسنت الأحوال واتسع نطاق الإسلام وأصبح فى الإمكان توفير أدوات الكتابة بعد أن توفر المال ، بحيث يتنزل ما تبقى من القرآن جملة واحدة .

٣ - أما عن القول بنزول القرآن منجماً (مفرقاً) وذلك للتدرج فى تربية الأمة العربية وإخراجهم على مهل مما كانوا عليه من العادات السيئة والأخلاق الذميمة والاعتقادات الفاسدة ، فهذا قول باطل فلم يتنزل القرآن مفرقاً ليساير أحوال العرب وحتى يكون مسايراً للمادية الجدلية ، والتطور الاجتماعى والاقتصادى كما يقول أصحاب الفلسفات المادية ، ومن الواضح أن القرآن تنزل وفى بدايتة آيات قرآنية

تعلن عن عقيدة التوحيد وتنذر الكفار ، وتتوعد الخصوم ، وتهدد المعتدين دون تدرج فى العقيدة أو مداراة أو تلطف مع المشركين وإن شئت فاقرأ فى أوائل ما تنزلت من السور القرآنية : -

قوله تعالى ﴿ فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم:٨، ٩].

وذلك فى سوره القلم ، وهى ثانى السور القرآنية

وقوله تعالى ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدثر:٨-١٠].

وقوله تعالى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [المسد:١-٥].

وقوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الكافرون:١، ٢].

وقوله تعالى فى تسفيه عبادة الأصنام ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ [النجم:٢٣].

إلى غير ذلك من الآيات المنتشرة فى أوائل السور وفيها مواجهة صريحة وقوية ضد عبادة الأصنام والشرك والدعوة إلى التوحيد وتوعد الكفار بأسوأ العواقب وعذاب جهنم.. إلخ فأين إذن التدرج فى الدعوة إلى نبذ الكفر والضلال وإلى اعتناق عقيدة التوحيد والدخول فى دين الإسلام ؟ !! وأين التدرج فى دعوة الكفار إلى ترك ما هم عليه من الضلال، والقرآن من أوله رسائل تحذير وتصحيح ودعوة صريحة وحازمة دون تدرج إلى نبذ الشرك وإلى عبادة الله الواحد . ؟ ولقد كانت العقيدة أول المقاصد القرآنية وأعظمها وهى جديرة بالاهتمام والتقدير على ما سواها من مقاصد الحياة وهى مفتاح التربية والتوجيه ، فمن صلحت عقيدته وأسلم وجهه لله سهلت تربيته وتوجيهه إلى كل الأعمال الصالحة ، وتيسير صرفه عن كافة العادات السيئة والشريعة والأحكام منبعثة عن العقيدة وخاضعة لها ، ولهذا فلم يكن هناك تدرج للقرآن تراعى فيه أحوال العرب وظروفهم المعيشية ومزاجهم

الاعتقادى ، وإلا لكانت العقيدة والمعتقدات أولى بالتدرج لأنها تمس صميم الفكر ومستقر العادات ومركز الخوف والرجاء ومناط العمل لدى القوم الذين تنزل القرآن فى زمانهم ، وظهرت الدعوة بين ظهرانيهم ، ولم يحدث ذلك كما سبق أن قلنا ، ولهذا فقد كانت أولى شكواهم من الرسالة الجديدة ومنتهى غضبهم أن الرسول عليه الصلاة والسلام يتلو قرآنًا يسب آلهتهم ، ويسفه أحلامهم ، وذهبوا شاكين الرسول عليه الصلاة والسلام إلى عمه أبى طالب قائلين له إن ابن أخيك سفه أحلامنا وسب آلهتنا.

أما التدرج فى آيات الأحكام والتشريع فلم تكن علته مراعاة أحوال العرب اجتماعيا ، بل إن تنزل القرآن مفرقا هى طبيعة أصيلة فى نزول القرآن اقتضتها حكمة الله سبحانه وتعالى ، كما أن أسلوب الدعوة التدريجى وتبليغ التعاليم بمقدار وليس دفعة واحدة هو أسلوب عظيم وهام فى مناهج الدعوات ودعوة الرسالات وإصدار التشريعات لجميع البشر فى كل العصور وعلى أى مستوى اجتماعى أو اقتصادى أو ثقافى .

فالتدرج سنة من سنن التربية والتوجيه التى اختارها الله لعباده وجعل لذلك القرآن مفرقا لكن هناك تلازم بين نزول الآيات ووجوب العمل بها مع مراعاة التيسير والرحمة ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وليست هذه السنة الإلهية قاصرة على مجتمع دون مجتمع ، ولكنها مناسبة لكل المجتمعات على حد سواء ، وليست فى التشريع والأحكام ، ولكن فى شتى الأمور حتى فى الرزق والعطاء ،فإن التدرج مطلوب والطفرة مرفوضة ، ويقول الله تعالى ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ [الشورى:٢٧].

ومما سبق نرى أن تنزل القرآن مفرقا لم يكن معللا بعلل مؤقتة قاصرة على العرب المعاصرين للبعثة وحسب بيئتهم وأحوالهم وإلا لكان ذا طبيعة بشرية ، والقرآن مبرأ منها ومترفع عنها ، وما يظن أنه تدرج لمراعاة ظروف العرب فى الجاهلية هو ظن آثم فالتنزل القرآنى المفرق هو وجه من أوجه الإعجاز القرآنى وكماله ، وهو أسلوب . ليس فيه مراعاة لأحوال عرب الجاهلية وإلاَّ لم كان موقفه الحازم والتعجل ضد معتقداتهم ؟ ولم كانت دعوته السريعة إلى عقيدة التوحيد من البداية إلى النهايه ؟

أضف إلى ذلك أن التدرج لم يكن إيقاعا بطيئا فى كل الأمور ، بل كانت هناك أمور تأخذ حركة إيقاع سريعة :

فالزنا ، وقتل الموؤودة وأكل الميتة إلى آخر هذه العادات السيئة نهى عنها الإسلام فى بداية الدعوة وتنزلت بشأنها آيات القرآن متلاحقة حتى إن جعفر رضى الله عنه فى هجرته إلى الحبشة وكان ذلك فى أوائل البعثة عرض على النجاشى ملخصا لمبادئ الإسلام التى تنزلت متلاحقة وفى إيقاع سريع فى سورة الأعراف وهى من أوائل السور وهذا دليل على سرعة الإيقاع[1].

إذن لا يحق لأحد أن يقيم استقراء ويبنى قاعدة أصولية للتدرج من واقع تنزل القرآن بالتعاليم والأحكام ، فتقول (مثلا) إن العبادات لم تأت دفعة واحدة ، إذن فهذا تدرج !! وأن الخمر لم يصدر فيه تحريم قاطع دفعة واحدة ، إذن فهذا تدرج . . وأن الجهاد شرع متأخرا ، إذن فهذا تدرج . . !! وهكذا فكل تعاليم الإسلام كانت متدرجة، ويقول بأن سبب التنجيم هو لمراعاة التدرج ويبنى على التدرج مراعاة أحوال العرب فى الجاهلية وقت تنزل القرآن وكأن القرآن تفرقت آياته ، والتشريع تدرجت أحكامه ، لظروف العرب وأحوالهم . وكأن القرآن جاء على مزاج العرب ، وكأن الرسول عليه الصلاة والسلام حرص على المناسبة بين البيئة العربية وتفرق القرآن وحاشا لله أن يكون فى تقديره وعلمه وحكمته مراعاة الأمزجة والأحوال وهو الذى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر:٩٤] وعلينا معاشر المسلمين أن نتحاشا الفهم والتعليل بذلك الفكر المادى القاصر وذلك المنطق السببى ، وكأننا نقف من أوامر الله تعالى وأفعاله موقفنا من أفعال العباد فى التعليل وهذا موقف مرفوض وفهم خاطئ ولا يجوز أن يعلل أحد التنجيم القرآنى بهذه العلل وحاشا لله أن تكون تصرفاته من قبيل مراعاة الأحوال والأمزجة وطباع الناس وأهوائهم والرسول عليه الصلاة والسلام يقول وهو الصادق (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) ويقول صلوات الله وسلامه عليه حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات) إلى آخر تلك الشواهد من القرآن والسنة التى تبين

---

(١) الأعراف من السور المكية وقد نزلت جملة واحدة وبها تسفيه للشرك و دعوة إلى التوحيد ونهى وتحريم للفواحش جميعها وتوعد للكفار .

حزم الإسلام فى التصدى للفساد وإصدار التعاليم والأحكام من خلال آيات القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة . وقد اتضح لنا أولاً وأخيراً سرعة الإيقاع القرآنى فى مواجهة العقائد الفاسدة، وسرعة الإيقاع القرآنى فى مواجهة العادات الضارة ، واستمرار العطاء القرآنى فى كافة أمور الحياه : تعاليم وأوامر وأحكامًا بإيقاع حكيم وحازم وميسر، ويقول تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨] ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

ولم يكن تنزل آيات القرآن الكريم مسايراً للحوادث بمقدار زمنى ثابت ، فربما تنزلت الآيات رداً على استفسار، أو حكمًا فى قضية أو بيانًا لحكم شرعى أو مواجهة لمواقف : فى الحال أو بعد ساعات أو أيام أو حتى أكثر من ذلك كآيات البراءة من حديث الإفك الذى خاض فيه المنافقون .

****

المبحث الثانى

جمع القرآن الكريم وتدوينه

مقدمة :

يشكل المبحث الثانى (جمع القرآن وتدوينه) ، مع المبحث الأول (نزول القرآن الكريم) أهم الأجزاء فى علوم القرآن وفى تاريخ العقيدة الإسلامية ، حيث إنه يتأسس عليها التيقن بأن القرآن الكريم الذى بين أيدينا وفى صدور الحفظة هو كما تنزل وحيًا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بحفظه وكتابته وقد وصلنا موقوفًا عنه صلى الله عليه وسلم بالتواتر محفوظًا فى الصدور وفى المصاحف ولهذا يجب التدقيق فى نقل الأخبار التاريخية عن موضوع الجمع والكتابة ، كما يجب الاختصار والاقتصار على القدر النافع من المعلومات ، فالاختصار الصحيح خير من الاستطراد المخلوط بالسليم والسقيم، والإجمال دون الوقوع فى الأخطاء خير من التفصيل مع ارتكاب الأخطاء ، ولنا فى المنهج القرآنى فى سرد القصص والأخبار التاريخية الأسوة والقدوة ، فقد جاء القصص القرآنى محكم المعانى وخاليًا من التفاصيل الموجودة بكثرة فى كتب العهد القديم لليهود ، والنصرانية وهى تفاصيل تؤدى أحيانًا إلى الاضطراب والتناقض ، كما أنها تفاصيل ممجوجة وغير مفيدة . وسوف نلتزم بالمنهج القرآنى فى الاختصار معتمدين على النصوص السليمة وروايات النقاد والآراء الراجحة مع تحاشي الروايات التى يوجد بها اضطراب أو التى تتورط فى ذكر تفاصيل ليس لها دليل كالتى تقول «إن القرآن كان فى صحائف وراء فراش النبى صلى الله عليه وسلم ، ومنها ما يمعن فى التفاصيل فيقول إن هذه الصحائف جمعت فى خيط أو أن عليًا بن أبى طالب رضى الله عنه حزمها فى ثوب أصفر»[1].

---

(١) تاريخ الكتاب الإسلامى ١٠٠.

ويجدر التنبيه إلى أن البحث فى جمع القرآن الكريم وتدوينه الذى انشغل به الباحثون من العلماء المسلمين وغيرهم كل على قدر جهده وفهمه وحسب نواياه وأمانته ، لا يضيف جديداً إلى (جوهر الحقيقة):

وهى أن القرآن الكريم محفوظ من التحريف بحفظ الله سبحانه وتعالى له ، وهو ينتقل من عصر إلى عصر موقوفًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتواتر ، محفوظًا فى الصدور مدونًا فى المصاحف أو كما يقول أحد المتخصصين [١] فى تاريخ الكتاب الإسلامى « وبذلك نجد القرآن نقل إلينا بطريق التواتر قراءة وكتابة من وقت نزوله حتى الآن ، فهو يفيد القطع واليقين بصحته دون شك أو خلاف فيجب العمل بما ورد به ولا يجوز العدول عنه »[٢].

غير أن البحث فى جمع القرآن الكريم وكتابته قد يلقى الضوء على هذه الحقيقة فتزداد وضوحاً لدى البعض ، كما تعرض تلك الحقيقة بشكل أو بآخر بما يناسب عشاق الثقافة الإسلامية وقد تلبى المباحث الرغبات النفسية والفكرية لدى الكثيرين حسب قاعدة الاقتناع ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]. وقد تشكل المباحث بوجه عام دراسات علميه يستفيد منها غير المسلمين الذين يبحثون عن الحقائق ويجتهدون إلى التعرف على الإسلام والقرآن فيجدون بغيتهم فى تلك المباحث .

****

(١) هو الدكتور محمود عباس حمودة الأستاذ بقسم المكتبات والوثائق كلية الآداب جامعة القاهرة وجامعة قطر .

(٢) تاريخ الكتاب الإسلامى ص ١٠٣.

ونعرض موضوعات المبحث فيما يلى :

الموضوع الأول: تاريخ الكتابة والكتاب العربى

أولا : أدوات ومواد الكتابة منذ العصر القديم:

لم يخرج العرب فى مجال الكتابة عن القاعدة الحضارية الأصولية وهى استخدام المواد المشتقة من صميم البيئة التى عاشوا فيها ، ومثلهم كمثل سائر الأمم الذين سلكوا هذا المسلك : فالمصريون القدماء استخدموا نبات البردى فى صناعة ورق البردى والكتابة عليه ، والسومريون بأرض الرافدين استخدموا الألواح الطينية المجففة وكذلك البابليون والأشوريون - والصينيون استخدموا الألواح الخشبية كما استخدموا الحديد - واستخدم الرومان واليونان قديمًا لحاء الشجر والخشب المدهون بطلاء أبيض أو المكسو بالشمع ولا يزال مستعملا فى الحبشة حيث يكتب عليه المسلمون هناك. كما استخدم المصريون فيما بعد الأقمشة القباطى وهى نوع من النسيج، كانوا يكتبون عليه. والرق وهو الجلد الرقيق استخدم للكتابة عليه فى بلاد عدة من أقدم العصور حيث توجد الأغنام ويسهل الحصول على الجلود.

«وقد مرت المواد التى كان العرب يكتبون عليها بتطورات وتغييرات عبر السنين، وكان منها :

١ - العُسُب:[١] وكانت أكثر شيوعاً واستعمالاً فى الكتابة نظراً لتوفرها وسهولة الحصول عليها فى مثل تلك البيئة الصحراوية ، والعسب جمع عسيب وهو جريد النخلة الذى لا يتجاوز طوله نحواً من قدم ونصف إذا يبس ونزع خوصها.

٢ - الكرانيف: جمع كرنافة، وهى أصل السعف العريض الملتصق بجذوع النخلة.

٣ - العظام : كتبت العرب على عظام الجمال والأغنام (الأكتاف، والضلوع خاصة العريضه منها) واستعملها العرب فى فجر الإسلام، وكانت من المواد التى كتب عليها القرآن، وكتب عليها مستندات قيمة، حتى النصوص الأدبية، وفى دار الكتب العربية نموذج من الأكتاف عليه قائمة أسماء .

---

(١) العسب : بضم العين والسين ، جمع عسيب ، وهو جزء النخل العريض ، كانوا يكشفون الخوص ويكتبون فى الطرف العريضة .

٤- الجلود «الأديم - القضيم» وقد استخدمها العرب فى الكتابة قبل الإسلام، وعليها كتبت الرسائل التى بعث بها النبى صلى الله عليه وسلم إلى الملوك، وكانوا يسمونه أديمًا، وهو الجلد الأحمر المدبوغ وقد انتشرت دباغة الجلود انتشاراً واسعًا جنوبى الجزيرة العربية ولا سيما حينما بدأ الفرس يبنون المدابغ فى اليمن.

٥- اللخاف[١]: وهى الحجارة البيض الرقاق وقد كتب العرب عليها

وإن أقدم ما كتب عليه العرب منذ ظهور الإسلام : الجلود والأقمشة وأشهرها النسيج المصرى الذى كان يسمى القباطى ، وكتب عليه المعلقات السبعة قبل الإسلام، وإذا تعذر ذلك كتبوا على الخشب أو العظام أو قطع الفخار .

وقد طور العرب صناعة الورق وخطوا بها خطوات واسعة فى طريق الإتقان والجودة. ويقول (آدم ميتز) إن الكاغد - أى الورق - الذى نقل العرب صناعته من الصين قد نال على أيدى المسلمين التغيير الهام الذى يعتبر حديثًا فى تاريخ العالم»[٢] ا . هـ باختصار.

ثانيا : الكتابه العربية وتطورها فى الإسلام :

كان للعرب تراث شعرى واهتمام بذلك الجانب الأدبى ، وكانت لهم أسواق ولقاءات أدبية. وكانوا أهل فطنة وذكاء ، وكانوا يحترفون التجارة على نطاق واسع خاصة المقيمين بمكة والمدينة ، ومع هذا القدر الحضارى الذى انتقلوا به من البدائية إلى الحضرية فإن حظهم من الكتابة والخط كان ضعيفًا، حتى أن الأمة العربية قبل الإسلام كانت موسومة بالأمية وجاء الإسلام يتحدث عن أمية العرب فى قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢].

والحكمة أرادها العليم الحكيم منذ بعث فيهم ومن أنفسهم وللعالم أجمع نبيًا أميًا لا يقرأ ولا يكتب كما قال سبحانه ﴿ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ

(١) قال الخطابى : اللخاف هى صفائح الحجارة .

(٢) تاريخ الكتاب الإسلامى : انظر ص ٥٩ - ٨٥.

الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]. وقد حدد الرسول صلوات الله وسلامه عليه معنى الأمية فى قوله »

«نحن أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب»

وكأن الله سبحانه وتعالى قد أراد بإرسال النبى الأمى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم « بالقرآن الكريم قمة الإعجاز البيانى وإعطائه جواً مع الكلم فى مواعظه وحكمه أن تكون « الأمية » دليل صدق ، وشاهد حق على أن « القرآن الكريم » ذا النظم والبيان المعجز، جاء به ذلك النبى الأمى صلوات الله وسلامه عليه الذى لم تكن لديه دراية بالكتابة ويقول الحق سبحانه وتعالى ﴿وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨] - وفى الحديث عندما جاء الملك وقال له اقرأ قال صلوات الله وسلامه عليه « ماأنا بقارئ »

ويجمع الباحثون على أن الكتابة[١] نشأت وتطورت فى أرض الوطن العربى القديم ، وأن مراحل إيجاد الأبجدية تم على أرض العربية القديمة سواء أبجدية سيناء أو أبجدية جبيل ، وإذا ما تجاوزنا الكتابة القديمة كالهيروغلوفية وتطورها والمسمارية فإننا عثرنا على عدد من الكتابات العربية القديمة ، والخط الآرامى[٢] يعتبر أحد الخطوط العربية ، إذ تفرع عنه الخط النبطى[٣] الذى يعتبر أقرب ما يكون إلى الخط العربى ، عند أول اتصال حروفه العربية بعضها ببعض. ومن المحقق أن أول أشكال الخط العربى : النسخى والكوفى ، فأولها متخلف عن الخط النبطى وقد تعلمه العرب من الأنباط فى حوران أثناء رحلاتهم إلى الشام ، وثانيها متخلف عن الخط السريانى تعلمه العرب من العراق قبل الهجرة بقليل ، وكان يعرف - أى

(١) علينا أن نفرق بين اللغة وبين الخط والكتابة ، فإذا كانت الكتابة العربية قد تأخرت فى الظهور، وإذا كان العرب قد تأخروا فى تعلم الكتابة ، فإن اللغه العربية ليست كذلك فهى لغة عريقة وهى ذات أصول عميقة ضاربة فى أعماق التاريخ حتى إنها تعتبر أما لسائر اللغات عند بعض الباحثين، وهى ذات قدرات فائقة ودقة بالغة فى التعبير والبيان، وذات مفردات واشتقاقات تتفوق بها على جميع اللغات القديمة والمعاصرة [انظر التفاصيل فى لغة القرآن].

(٢) الآرامية لغة سامية فى سوريا وما يحيط بها من مناطق سادت فى القرون الأولى قبل المسيح وبعده

(٣) النبط هم قبائل عربية فى شمال الجزيرة العربية ، أخذوا عن الخط الآرامى ، وأصبح لهم خط معروف باسمهم وكتابته تسمى الكتابة النبطية التى تطورت وأصبحت تعرف باسم «الكتابة العربية».

الخط الكوفى - قبل الإسلام (بالحيرى) نسبة إلى الحيرة وهى مدينه غرب العراق، وهما الحلقه الأخيرة من مسلسله .

وعندما اقتبس العرب الخط من الأنباط والسريان كان خاليًا من الحركات والإعجام ، فالحركات فيه والإعجام حادثة فى الإسلام .

وبقى الخط العربى على حالته القديمة حتى زمن بنى أمية ، فتطور . وكثر عدد المشتغلين به فى عصر العباسيين ، وتقدمت صناعة الخط كسائر العلوم التى اشتهر بها المسلمون ، وتنافس الكُتَّاب فى تجويد الخط ، فزادت الخطوط العربية على عشرين شكلا، وصار للحروف قوانين معروفة بين الخطاطين .

وكان لنزول القرآن الكريم باللغة العربية والخط العربى وانتشار الإسلام أثر واضح فى التأثير على لغات البلاد التى دخلها الإسلام ، فكتبت تلك اللغات بالخط العربى ومنها :

١ - اللغة التركية : الطورانية - التركية العثمانية - التترية . . إلخ .

٢ - اللغات الهندية : الأوردية ، الكشميرية . . الخ .

٣ - اللغات الفارسية .

٤ - اللغات الإفريقية : البربرية ، النوبية ، السواحلية الحوسية ، الحبشية .. إلخ[1] ا . هـ بتصرف

وهكذا تطورت الكتابة العربية والخط العربى حتى وصلت بالقرآن وعظمة الإسلام إلى ما نشاهده الآن من روعة الخط وجماله خاصة الخط الذى كتبت به المصاحف فى الماضى، ومن يطالع المصاحف الأثرية يشاهد جمال الخطوط حتى كادت أن تصبح فنًا رفيعًا وجميلاً ، ولقد كانت المصاحف الشريفة مجالاً لفن الخطوط وتجويدها

وشذ عن قاعدة الأمية « وهى عدم معرفة القراءة والكتابة » فئة من أهل مكة . وكادت تتفق كلمة المؤرخين على أن قريشًا فى مكة أخذت الخط عن حرب بن أمية ابن عبد شمس « فتعلمها جماعة من أهل مكة منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى

---

(١) تاريخ الكتاب الإسلامى ص ٨٩ - ٩٦.

وطلحة .. إلخ فكثر سواد الكاتبين من قريش قبل الإسلام إلى حد ما ... «وبقيت الكتابة محصورة فى أفراد قلائل فى الجزيرة إلى أن هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فشجع الكتابة وحث على تعليمها بجميع الوسائل. ومما يدلنا على هذا أنه صلى الله عليه وسلم، لما انتصر على قريش فى غزوة بدر وأسر منهم سبعين رجلاً من صناديد قريش وغيرهم جعل على كل واحد من الأسرى لفكاكه من الأسر قدراً من المال، وعلى كل من عجز عن الافتداء بالمال إن كان ذا دراية بالكتابة أن يعلمها عشرة من صبيان المدينة، فلا يطلق سراحه إلا بعد تعليمهم. وبذلك راجت سوق الكتابة بالمدينة وأخذت فى الذيوع والانتشار فى سائر الأنحاء. ولذلك لم يتم القرآن نزولاً حتى كان للنبى صلى الله عليه وسلم أكثر من أربعين كاتبًا»[(١)].

ولقد وُجد عدد يحذق الكتابة قبل الإسلام ولكنه نذر يسير بجانب تلك الكثرة الغامرة من الأميين ، ثم جاء الإسلام ، فحارب الرسول عليه الصلاة والسلام فيما حارب أمية العرب ، وعمل على محوها وطفق الإسلام يعلى من شأن الكتابة ويرفع مقامها . وهذه أوائل الآيات التى تنزلت يشيد الله تعالى فيها بالقلم الذى هو أداة الكتابة وذلك فى قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٣-٥] كما يقسم الحق سبحانه وتعالى بالقلم لإعلاء شأنه وشأن استخدامه أداة للكتابه، وذلك فى قوله تعالى ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم:١، ٢].

الموضوع الثانى

جمع القرآن الكريم على عهد النبى (صلى الله عليه وسلم)

جمع القرآن الكريم : عبارة تطلق على معنيين :

١- حفظ القرآن واستظهاره .

٢- كتابة القرآن كله حروفه وكلماته وآياته وسوره .

ولقد تحقق كلا المعنيين فى عهده صلى الله عليه وسلم وبالتوقيف الدقيق عنه

(١) تاريخ الصحف الشريف ص ٦ ، ٧.

صلوات الله وسلامه عليه : من فمه الشريف عن الوحى مباشرة مستظهراً وحافظًا إلى كُتَّاب الوحى ليكتبوه أمامه كما يمليه عليهم وإلى مسامع أصحابه ليحفظوه كما تلاه عليهم لفظًا وترتيلاً، مع حرصهم الشديد على قراءته كما سمعوه عنه صلى الله عليه وسلم حتى إن الواحد فيهم كان يتمسك بماسمعه فيقول « أقرأنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم »

ولقد قرأ صلى الله عليه وسلم القرآن فى الصلاة وخارج الصلاة وقرأه أصحابه عليه ، كما قرأه الصحابة بعضهم على بعض. وكانت تتم مراجعات سنوية للرسول عليه الصلاة والسلام مع ملك الوحى (جبريل) فى عرضة سنوية لما تنزل من القرآن الكريم بالترتيب الذى استقرت عليه الآيات والسور . وقبل انتقال النبى صلى الله عليه وسلم وقعت عرضتان مع جبريل عليه السلام للقرآن كله(١).

ونزيد القول تفصيلاً فيما يلى :

أولاً : كان الوحى يتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ذكرنا سابقاً فيلقى ملك الوحى آيات القرآن الكريم على قلبه الشريف ويسمعه بأذنيه كلامًا فيردده بلسانه الشريف مستعجلاً على حفظه إلى أن أمره الله سبحانه وتعالى بألا يتعجل على حفظه بترديد ما يسمعه ووعده سبحانه بأن عليه «جمعه وقرءانه» فأصبح يستمع لما يوحى به من القرآن دون أن يردده، وتحقق وعد الله للرسول عليه الصلاة والسلام بحفظه واستظهاره فى صدره الشريف، فكان لا يتركه الوحى إلا وقد وعى كل آيات القرآن الكريم واستظهرها .

ثانيًا : كان صلى لله عليه وسلم ، بعد انصراف الوحى ، يقرأ على أصحابه ما تنزل من آيات القرآن الكريم ، ويدعو كُتَاب الوحى ليكتبوا ما تنزل من القرآن « فكان صلى الله عليه وسلم يدعوهم ويملى عليهم ما أوحى إليه ، إن كان سورة دلهم على موضعها مما سبقها ، وإن كان آية أو آيات دلهم على مكانها فى السورة التى هى منها ومضى الأمر على ذلك طيلة حياة النبى صلى الله عليه وسلم.

---

(١) روى البخارى عن فاطمة رضى الله عنها أنها قالت «أسر النبى صلى الله عليه وسلم إلى أن جبريل كان يعارضنى، بالقرآن كل سنة مرة وأنه عارضنى العام مرتين ولا أراه إلا حضر أجلى».

وكان كُتَّاب الوحى من خيرة الصحابه: فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية، وأبان بن سعيد، وخالد بن الوليد، وأبى بن كعب وزيد بن ثابت، وثابت بن قيس وغيرهم. وكانوا يكتبون فيما يسهل عليه من العسب واللخاف والرقاع[١] وقطع الأديم وعظام الأكتاف والأضلاع، وكانت هى أدوات الكتابة الشائعة بين العرب وكان يوضع المكتوب فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهكذا لم يمض العهد النبوى إلاَّ والقرآن مجموع على هذا النمط.

روى عن ابن عباس أنه قال «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزلت عليه دعا بعض من يكتب فقال: ضعوا هذه السورة من الموضع الذى يذكر فيه كذا وكذا» «وعن زيد بن ثابت قال «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع»... وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبى صلى الله عليه وسلم، وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل عليه السلام ، فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان يقول : ضعوا كذا فى موضع كذا»[٢]. «وكان النبى صلى الله عليه وسلم شديد الاهتمام بكتابة الوحى وإثباته محلاً ومحفوظًا كما نزل»[٣]. وكان كُتَّاب الوحى فى مكة والمدينة كما ذكرنا من خيرة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثالثًا : كان الصحابة يتسابقون ويتنافسون فى حفظ ما يوحى إلى النبى صلوات الله وسلامه عليه من آيات القرآن الكريم، ومدارسته فى مجالسه التى كان صلى الله عليه وسلم يعلمهم فيها أمور دينهم فى دار الأرقم لما كانوا فى مكة وفى المسجد النبوى ومجالسه المتعددة، لما كانوا بالمدينة.

وكان بعض الصحابة يكتبون لأنفسهم من القرآن ما يتيسر لهم كتابته ، دون النظام وذلك كصحائف خاصة بهم بقصد التعليم والمراجعة ، ويكتبون بجوار الآيات القرآنية بعض المعانى، لهذا لم تكن صحائف الصحابة نصوصًا قرآنية مجردة

---

(١) الرقاع جمع رقعة وقد تكون من جلد أو ورق .

(٢) مناهل العرفان ص ٢٤٠.

(٣) تاريخ الكتاب الإسلامى ص ١٠٠.

ومنظمة بل كانت أشبه بالمذكرات ... ولكنهم أولاً وأخيراً كانوا يعتمدون على الحفظ والاستظهار .

وقد أصبح صحابة رسول الله بتوجيهاته صلى الله عليه وسلم يعايشون القرآن الكريم فى معظم أوقاتهم: يعايشونه فى صلاتهم وفى حفظهم وتلاوتهم له فى ليلهم ونهارهم، يعايشونه فى دراستهم له وفى معرفة أحكامه وفى شئون حياتهم، لهذا أقبل الصحابة على حفظه واستظهاره بقدر ما أوتوا من الجهد باعتباره منهاج حياتهم، خاصة وقد علموا ما فى تلاوته وحفظه من عظيم الأجر والمثوبة وقد ورد فى ذلك أحاديث كثيرة منها :

قوله صلى الله عليه وسلم «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

وقوله صلى الله عليه وسلم «مثل القرآن إذا تعاهده صاحبه وقام به فى أثناء الليل والنهار كمثل الإبل المعقولة إذا تعاهدها صاحبها أمسكها وإذا خلى عنها ذهبت كذلك صاحب القرآن»[١].

كل ذلك دفع الصحابة إلى الإقبال على حفظ القرآن الكريم، فمنهم من حفظه كاملاً، وحفظ بعضهم الكثير أو اليسير حسب استعدادهم

رابعًا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فى الصلوات من السور والآيات ما بين القليل والكثير . وفى كتب السيرة تفصيل لذلك .

«وفى صلاة الليل كان أحيانًا يطيل القراءة، وكان يبالغ فى إطالتها حتى قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه :

«صليت مع النبى صلى الله عليه وسلم ليلته، فلم يزل قائمًا حتى هممت بأمر سوء، قيل وما هممت؟ قال: هممت أن أقعد وأذر النبى صلى الله عليه وسلم[٢] رواه البخارى ومسلم» .

وقال حذيفة بن اليمان : «صليت مع النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فافتتح (البقرة) فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى فقلت : يصلى بها فى (ركعتين)، فمضى

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه .

(٢) صفة صلاة النبى صلى الله عليه وسلم ص ٨٦ .

فقلت: يركع بها، ثم افتتح (النساء) فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً ، إذا مر بآية فيها تسبيح يسبِّح ، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ ثم ركع »[١]. (الحديث): مسلم والنسائي.

« وقرأ ليلة وهو وجع السبع الطوال[٢] «وكان أحيانًا يقرأ في كل ركعة بسورة منها »[٣].

وكان الصحابة يتأسون به صلى الله عليه وسلم .

أما عن تلاوة القرآن فقد كانوا يقرأون الكثير منه وكانوا يتسابقون في ذلك ويبالغ بعضهم في الإكثار من التلاوة حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث - (أي ثلاث ليال):

عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله قال له «اقرأ القرآن في كل شهر، قال: قلت: إني أجد قوة، قال: فاقرأه في عشرين ليلة، قال: قلت: إني أجد قوة، قال فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك» - البخاري ومسلم .

« ثم رخص له أن يقرأه في خمس » النسائي والترمذي وصححه «ثم رخص له أن يقرأه في ثلاث» البخاري وأحمد «ونهاه أن يقرأه في أقل من ذلك ، وعلل ذلك في قوله له:

« من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه » أحمد بسند صحيح .

وقائع وبراهين على استظهار القرآن وكتابته منذ بداية تنزله

١- واقعة دخول سيدنا عمر رضي الله عنه على أخته قبل إسلامه ومشاهدته للصحيفة التي كانت معها ، وبها سورة طه ، وكان خباب بن الأرت في منزل زوجها يعلمها القرآن ، فإذا كانت هذه المرأة المسلمة وزوجها على هذا القدر من

---

(١) المرجع السابق ص ٨٧ [السبع الطوال] البقرة - آل عمران - النساء - المائدة - الأنعام - الأعراف - التوبة.

(٢) المرجع السابق ص ٨٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٨٨ .

الاهتمام بدراسة القرآن ولديها صحف بها سور منه فما بالك بالصحابة المقربين الملازمين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، واعلم أن هذه الواقعة كانت قبل إسلام سيدنا عمر رضى الله عنه وفى فترة السرية مما يدل على اهتمام المسلمين بكتابة القرآن ودراسته منذ بداية البعثة النبوية .

٢- استشهاد سبعين صحابيًا وهم أهل بئر معونة وكانوا يسمون (القراء) لحفظهم القرآن الكريم، فإذا كان هذا العدد قد فقدوا فى حادثة واحدة، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد أرسلهم فى مهمة تعليمية لتحفيظ القرآن لبعض المسلمين بعيداً عن المدينة المنورة، فكم يكون عدد باقى القراء فى المدينة المنورة الذين استبقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، علمًا بأن هؤلاء السبعين كانوا قد أرسلوا إلى جهة واحدة ولم يكونوا مرسلين إلى عدة جهات بالجزيرة العربية أو إلى الأقطار الخارجية مما يدل على وفرة عدد القراء مما أتاح لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرسل منهم هذا العدد إلى جهه واحدة.

٣- زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام كن يحفظن القرآن الكريم وذلك بتوجيه من الله سبحانه وتعالى فى قوله تعالى :﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

٤- فى موقعة اليمامة على عهد خلافة أبى بكر رضى الله عنه استشهد عدد من الحفاظ مما يدل على استمرارية توفر الحفاظ من بين الصحابة، وأن الحفاظ كانوا من المجاهدين، ولم يكونوا من القاعدين المتفرغين للحفظ، ولم يعطلهم كونهم من طائفة المحاربين أن يكونوا من فئة الحفظة ولم يشغلهم الجهاد فى سبيل الله، أن يكونوا من حفظة كتاب الله.

«ومن هنا كان حفاظ القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعاًغفيراً، منهم: الأربعة الخلفاء وطلحة وسعد وابن مسعود وحذيفة، وسالم مولى حذيفة وأبو هريرة وابن عمر وابن عباس وعمرو بن العاص وابنه عبدالله ومعاوية وابن الزبير وعبدالله ابن السائب، وعائشة وحفصة وأم سلمة وهؤلاء كلهم من المهاجرين رضى الله عنهم. وحفظ القرآن من الأنصار فى حياته صلى الله عليه وسلم:

أبى بن كعب ، ومعاذ ابن جبل، وزيد بن ثابت وأبو الدرداء ومجمع بن حارث وأنس بن مالك ، وأبو زيد ...[١].

«فإذا جاء بعد ذلك روايات تقول: إنه لم يجمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أربعة أو ستة نفر من الأنصار كان المقصود قطعًا من هذه الروايات ليس الحفظ، وإنما الكتابة الخاصة لهم ليكون مدونًا بين أيديهم، فالمقصود أنه لم يكتب القرآن لنفسه ويحتفظ به عنده كله إلا هذا العدد، أما حفظ القرآن ودراسته، فكان عند أعداد ضخمة من الصحابة، وكان يموج بهم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كأنه خلية نحل[٢].

وإذا جاءت روايات تتحدث عن جمع القرآن بالحفظ أو الكتابة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بما لا يتفق مع الوقائع الثابتة والروايات الراجحة، وحالة التواتر للقرآن الكريم استظهاراً وكتابة فإنه تكون بالقطع روايات ضعيفة أو قاصرة الدلالة أو خفية المعنى بما ترتب عليه سوء فى الفهم ويحتاج إلى تدقيق فى النظر والفهم[٣] فإذا كان من الثابت أن الرسول عليه الصلاة والسلام استظهر القرآن، وكان يحفظه حال تنزل الوحى عليه، وكان من الثابت أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان حريصًا على كتابة الآيات القرآنية عند نزولها وكان يباشر ذلك بنفسه ويمليه على كتبة الوحى، وكان من الثابت أن الصحابة حرصوا على استظهار القرآن، وكان بعضهم يستعين على ذلك بكتابة صحائف خاصة به، وكان من الثابت أن مواد الكتابة كانت متوفرة لدى العرب حسب ما كان معروفًا لديهم وأنه كان يوجد من بين الصحابة أغنياء، أمثال أبى بكر وعثمان رضى الله عنهما، وكانوا يستطيعون شراء ما يلزم من هذه المواد ويقدمونها إلى الرسول عليه الصلاه والسلام، فإذا كان ذلك كذلك، فما بال القوم يكثرون الحديث والنقاش والجدل فى موضوع جمع القرآن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم، وكأن جمع القرآن أمر مستحيل، وعمل متعذر لا

---

(١) مناهل العرفان ص ٢٣٥

(٢) دراسات قرآنية ص ٧ .

(٣) يجب أن نفرق بين طوائف ثلاثة : حفظة القرآن من الصحابة وهم كثيرون والذين كتبوا المصحف كاملاً واحتفظوا به إلى عهد سيدنا عثمان وكانوا قلة وطائفة مَنْ كانوا يقرءون القرآن.

تقوى عليه تلك العصبة المؤمنة ولماذا يتهافت بعض المسلمين منضمين إلى الجهلة الباحثين من الخصوم والحاقدين على روايات ضعيفة تتعلق بجمع القرآن، واللجوء إلى استنباطات فاسدة وتأويلات خاطئة ؟! وكيف يتغاضون عن الحقائق والوقائع والأخبار الصحيحة والواقع الملموس وكلها تقطع بأن جمع القرآن حفظاً وكتابة متواتر وموقوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وخلاصة القول : أن الرسول عليه الصلاة والسلام انتقل إلى الرفيق الأعلى، وكان القرآن جميعه محفوظاً فى الصدور استظهاراً بقراءاته المختلفة يحفظه جمع من الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «وكان مكتوبًا كله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت كتابته ملحوظ فيها أن تشمل الأحرف السبعه التى نزل عليها »(١).

توضيح : أما عن الصحابة السبعة الحفظة وهم :

عثمان بن عفان، على بن أبى طالب، أبى بن كعب، زيد بن ثابت، عبدالله بن مسعود ، أبو الدراء، أبو موسى الأشعرى،: فإن ذلك ما ذكره الذهبى عن الصحابة الذين كانوا يقرءون القرآن فى طبقات القراء، ونقله السيوطى فى الإتقان، ولهذا فيجب علينا أن ندقق فى معرفة المقصود بالصحابة الحفظة: هل هم الحفظة استظهاراً وكانوا كثرة أم هم أصحاب المصاحف أم هم القراء الذين كانوا يقرءون حتى لا نخلط فى الفهم، فإذا ذكرت الروايات كما جاء فى البخارى مثلاً بأن الذين يحفظون القرآن من الصحابة سبعة، فعلينا أن ندقق النظر ونفهم بأن هؤلاء السبعة ليسواهم جميع الحفظة بل هم خيرة الحفظة أو من كانوا يقرءون القرآن حتى تستقيم الرواية مع روايات متعددة تفيد كثرة الحفظة من الصحابة.

****

(١) مناهل العرفان ٢٤١ .

الموضوع الثالث: الصحف النبوية للقرآن الكريم
(الشكل والمضمون)

من المقطوع به أن الرسول عليه الصلاة والسلام انتقل إلى الرفيق الأعلى تاركًا القرآن الكريم مكتوبًا فى الصحف . وكانت مواد الكتابة للصحف النبوية من جنس مواد الكتابة المألوفة والشائعة والمتعارف عليها فى التدوين .

ومن المؤكد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأمر بكتابة الآيات القرآنية، وكان كُتّاب الوحى من الكثرة، وكان صلى الله عليه وسلم يملى على كُتّاب الوحى ما تنزّل من الآيات القرآنية ويأمرهم بوضع الآيات فى موضعها ، فيقول لهم صلوات الله وسلامه عليه: «ضعوا هذه السورة بجانب تلك السورة، وضعوا هذه الآية بإزاء تلك الآية»[1]. وكان صلى الله عليه وسلم شديد الاهتمام بتسجيل ما يُوحَى إليه من آيات القرآن الكريم ، شديد الحرص على مباشرة التسجيل ومراقبة كُتّاب الوحى «فكان صلوات الله وسلامه عليه يدعوهم ويملى عليهم ما أُوحى إليه إن كان سورة دلهم على موضعها مما سبق وإن كان آية أو آيات دلهم على مكانها فى السورة التى هى منها ، ومضى الأمر على ذلك طيلة حياة النبى صلى الله عليه وسلم[2] حيث إن القرآن ظل يتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أقل من شهر قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى .... وهذا ما تضافرت الأحاديث الصحيحة على بيانه، وهو قدر مناسب من المعلومات على تدوين «الصحف النبوية للقرآن الكريم» وهو قدر من المعلومات يمكن الاكتفاء والوقوف عنده دون اختلاف أو تضارب فى الآراء، وهو أيضا قدر كافٍ من المعلومات للتيقن بأن أصول القرآن الكريم وهى الصحف النبوية كانت موقوفة على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولكى يكون العلم بتاريخ المصحف الشريف بقدر أكبر، فإن الأمر يحتاج إلى مزيد من الدراسات من جانب أهل الاختصاص من علماء الأمة الإسلامية الأفاضل حتى

---

(١) تاريخ المصحف الشريف ص ٤١ .

(٢) دراسات قرآنية ص ٥ .

يمكن الاقتراب من التصور المناسب لما كانت عليه الصحف النبوية للقرآن الكريم، وعلى قدر علمى فإن هذا الموضوع لم ينل القدر المناسب من الاهتمام من جانب المتخصصين فى الدراسات الوثائقية، وتاريخ الكتاب العربى أما المشتغلون بعلوم القرآن، فإنهم فى دراساتهم يدورون حول الموضوع ولا يقدمون الدراسات المنهجية والوثائقية ولهذا نجد أنفسنا أمام مجموعة من الآراء تجعلنا أمام تصورات غير واضحة أو مضطربة، ومرد ذلك راجع إلى انعدام النظرة الشمولية فى فهم المعلومات والتوفيق بينها للخروج بتصور مناسب لما كانت عليه «الصحف النبوية للقرآن الكريم والاكتفاء بفهم المعلومات فهمًا مجزءاً. وسوف يتضح قولنا عند عرض دراستنا للموضوع. وقبل عرض الدراسة يلزمنى لفت النظر إلى أن وضع التصور المناسب لما كانت عليه الصحف النبوية للقرآن الكريم هو من واجب علماء المسلمين المشتغلين بالدراسات الوثائقية التاريخية، وتاريخ الكتاب الإسلامى، فهم أقدر الباحثين على وضع الإطار العام للتصور المناسب والذى يقربنا من الواقع والحقيقة.

تصورات للشكل وللمضمون

سوف أقوم بمحاولة لوضع تصورات - للصحف النبوية للقرآن الكريم ، معتمداً على الأحاديث والأخبار الصحيحة التالية :

١- عن زيد بن ثابت قال: «كنا عند رسول الله نؤلف القرآن من الرقاع، وكان هذا التأليف عبارة عن تركيب الآيات حسب إرشاد النبى صلى الله عليه وسلم[١].

٢- ويقول زيد بن ثابت - حينما أمره سيدنا أبو بكر رضى الله عنه بجمع القرآن-: فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال».

٣- والعبارات التى تذكر مواد الكتابة التى كانت صحف القرآن النبوى مؤلفة منها، عبارات متنوعه ومنها: «نؤلف القرآن من الرقاع» - «كان مفرقًا فى الرقاع والأكتاف» «فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف»[٢].

---

(١) مناهل العرفان ص ٢٤٠ .

(٢) اللخاف هى الحجارة الرقاق ، كانت كالصحيفة تصلح للكتابة والبقاء ، وكذلك سعف النخيل بكشط الخوص عنه ، ويكتبون فى الجزء العريض منه بعد أن يصقلوه ويهذبوه فيكون أشبه بالصحيفة ، وقل مثل هذا فى عظام الأكتاف .

«وكانوا يكتبون فى العسب واللخاف والرقاع وقطع الأديم وعظام الأكتاف والأضلاع -«وكانوا يكتبون ذلك فى الصحف والألواح والعسب».

٤- عن ابن عباس «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزلت سورة، دعا بعض من يكتب فقال ! ضعوا هذه فى الموضع الذى يذكر فيه كذا وكذا».

أولاً : تصورات للشكل

١- كانت الآيات القرآنيه تكتب على مواد الكتابة المتاحة من عسب ولخاف ورقاع وعظام ... إلخ

٢- كانت الصحف مكتوبة بطريقة يسهل معها الرجوع إلى تلك الصحف سواء من ناحية الكتابة، أو من ناحية ترتيب الصحف حيث إن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يأمر كُتّاب الوحى بأن يلحقوا آيات قرآنية نزلت متأخرة بآيات قرآنية سابقة لها، وكان ذلك يتطلب الرجوع إلى الصحف السابقة وفى الحال، وهذا لا يتيسر إلا إذا كانت الصحف من مواد كتابة يسهل ترتيبها وحفظها، وكانت الصحف منسقة فى الحفظ بحيث يسهل استخراج ما يكون مطلوبًا منها إذا دعت الحاجة.

إذن فالأمر يتطلب أن تكون الصحف على شكل يسهل ترتيبه والرجوع إليه وهى «اللخاف أو الرقاع أو العسب التى تكون معدة للكتابة ».

٣- يدعم تصورنا للشكل، قول زيد بن ثابت «فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال» فتكون العسب واللخاف هى مواد الكتابة التى كانت عليها فى الأكثر الصحف النبوية للقرآن الكريم. بجانب الرقاع المشار إليها فى الحديث عن زيد «كنا نؤلف فى الرقاع، كما يدعم تصورنا انتشار الصحائف القرآنية لدى الصحابة وكانوا يحملونها وينتقلون بها من مكان إلى آخر للمدارسة ومنها الصحيفة التى كانت مع أخت سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كما أسلفنا. ولن يتأتى ذلك إلا إذا كانت الصحائف من مواد الكتابة التى يسهل حملها واستخدامها.

٤- وإذا رجحت الدراسات أن الصحف النبوية للقرآن الكريم كانت اللخاف أو

العسب فى الأكثر، فماذا تكون أحجامها وكمياتها؟ ونجيب على ذلك التساؤل فيما يلى:

أولاً، نحن نتصور أن اللخاف كانت كالصحيفة رقيقة تصلح للكتابة. وأن العسب كانت رقيقة ومصقولة كما هو المعتاد. وبهذا نستبعد الخيالات السخيفة والأقوال المبتذلة والشبهات المضللة بأن القرآن كان مكتوبا على أحجار، للإيهام بضخامة مواد الكتابة ووضع تصورات باطلة عن الكم الضخم من الأحجار التى كتب عليها القرآن ثم الانتقال إلى تعذر الاحتفاظ بهذه الأحجار أو عدم صحة أن يكون القرآن قد كتب.

وندفع هذه الخيالات الباطلة بقولنا : إن اللخاف وهى الحجارة الرقاق التى تشابه فى سمكها ما هو معروف «بألواح الأردواز» التى كانت شائعة إلى عهد قريب، وسمكها تقريبا ٢سم . وحيث إن المصحف يتألف من حوالى ٥٠٠ صفحة أى ٢٥٠ ورقة فيكون المطلوب من ألواح اللخاف ٢٥٠ صحيفة، فإذا كان سمك الصحيفة ٢مم، فيكون مجموع سمك الصحف [٢٥٠ صحيفة × ٢ مم] ٥٠٠ مم أى ٥٠ سم وهو سمك مجموع الصحف النبوية للقرآن الكريم على فرض أنها كلها من ألواح اللخاف وهذا الكم من اللخاف بهذا الحجم هو ٥٠ سم فى السمك ، فما هو إذن وجه استغراب حجم الصحف ولو كانت كلها من اللخاف ؟! .

٥- وإذا رجحت الأبحاث أن مواد الكتابة كانت فى أكثرها من الرقاع - أى من جلد أو ورق - فقد سهل تصور الشكل والحجم الذى كانت عليه الصحف النبوية للقرآن الكريم، ومن المعلوم أن رسائل النبى صلى الله عليه وسلم كانت تكتب على الرق[1] كما كتب عليه صحف القرآن الكريم فى عهد أبى بكر رضى الله عنه، وكذلك المصاحف العثمانية، ولهذا يمكننا أن نتصور أن كثيراً من أجزاء الصحف النبوية للقرآن الكريم كان مكتوبًا على الرق، خاصة فى العهد المدنى، أسوة بالرسائل النبوية وفى قول زيد بن ثابت ما يفيد ذلك «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع».

---

(١) الرق المدبوغ كان منتشراً بالجزيرة العربية كما أسلفنا .

وفى حالة الترجيح باستخدام العسب فى كثير من الصحف النبوية للقرآن الكريم فلا بد من محاولة التوصل إلى التوصيف المناسب لألواح العسب حسب التصور المناسب وذلك بالرجوع إلى بعض النماذج الأثرية التى شاع استعمالها فى هذه الحقبة، وهذه مهمة الباحثين الأفاضل الذين يقومون بجد وإخلاص لعمل الدراسات العلمية حول تاريخ المصحف الشريف بدءاً بالصحف النبوية وعبر مختلف العصور ، مع الاهتمام بالدراسات المتعلقة بالشكل .

٦- أما عن حالة الصحف فى تفرقها وكما يقولون: «وهكذا انقضى العهد النبوى السعيد والقرآن مجموع على هذا النمط بيد أنه لم يكتب فى صحف ولا مصاحف بل كُتب منثوراً بين الرقاع والعظام ونحوها مما ذكر»[١] فلن يخرج عن كون هذه الأصول النبوية للقرآن الكريم والتى كانت مكتوبة فى صحائف مختلفة الأنواع من لخاف وعسب وخلافه لم تكن مجموعة معًا كجمع الكتاب أو الصحف التى تكون من مواد واحدة ، أى أنها لم تكن على شكل كتاب يضم الصحائف جميعها ولكن هذه الأصول كانت متجاورة ومرتبة ترتيباً دقيقاً مما يسر لكُتَّاب الوحى استخراج ما كانوا يحتاجون إلى الرجوع إليه عندما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرهم بإلحاق آيات، بآيات سبقتها، ولن يتيسر لهم ذلك إلا إذا كانت تلك الأصول فى حالة ترتيب وتنسيق دقيق. وبهذا أيضًا سهل الرجوع إلى هذه الأصول النبوية للقرآن الكريم حين أراد أبو بكر وعمر وسائر الصحابة نقلها فى صحف، فأصبحت مكتوبة على مواد للكتابة موحدة وأصبحت بين الدفتين.

أما التناثر بمعنى الشتات والبعثرة كما يتبادر إلى الفهم من قولهم[٢]«بل كُتِب

---

(١) مناهل العرفان ص ٢٣٩، ٢٤٠.

(٢) ومثل هذا القول يتردد فى موضوعات جمع المصحف الشريف مما يتسبب فى سوء الفهم والبلبلة .... ومن ذلك «وأما المعنى الثانى (أى جمع المصحف بالكتابة) فقد تحقق فى حياته صلى الله عليه وسلم أيضًا بكتابته وتدوينه بين يديه ،وإن كان مبعثراً فى الأحجار والرقاع وغيرها كما سبق» [انظر تاريخ المصحف ص ٤٦] ويقول الإمام أبو عبدالله المحاسبى «كتابة القرآن ليست بمحدثة فإنه صلى الله عليه وسلم كان يأمر بكتابته ولكنه كان مفرقًا فى الرقاع والأكتاف وغيرها» وبهذا ينساق فى القول بالتفرق والتناثر .. غير أنه يضرب مثلا يدفع الفهم الخاطئ على تلك العبارات فيقول «فإنما أمر الصديق بنسخها [أى نسخ ما هو مكتوب فى الأصول النبوية] من مكان إلى مكان، وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت فى بيت رسول الله ﷺ فجمعها جامع وربطها حتى لايضيع منها شىء» انتهى .

منثوراً وبما يوحى بسوء الحفظ بقولهم «وكان متفرقاً فى اللخاف والعسب» ... فكلها أفهام خاطئة وتصورات فاسدة يجب استبعادها بالكلية لأن ذلك لا يستقيم مع حرص الرسول عليه الصلاة والسلام على تدوين القرآن وجمعه وحفظه ولا يستقيم مع ما يثبت من الروايات بأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يطلب من كُتَّاب الوحى أن يُلحِقوا بعض الآيات حين نزولها بآيات سابقة لها مما يحتاج للرجوع إلى ما كان مكتوبا فى بعض الصحائف بيسر وإتقان ، ولا يكون ذلك ممكنًا إلا إذا كانت الأصول منسقة ومرتبة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد ظلت كذلك إلى أن استلمها سيدنا أبو بكر وهى على حالتها من الجمع والترتيب ، والقرآن فيها مكتوب بكامل سوره وترتيب آياته.

ثانيا : تصورات للمضمون

وأعنى بالمضمون ما كانت تحمله الصحف النبوية للقرآن الكريم من الآيات القرآنية والسور، من ناحية ترتيب الآيات فيما بينها وترتيب السور بعضها بجوار بعض. والمتأمل فى النصوص والروايات الواردة فى هذا الشأن والخاصة بإلحاق الآيات بعضها ببعض بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام لتتكون منها السور، يجزم بأن القرآن كان متكامل المضمون من حيث تلاحق الآيات فى السور، ومن حيث تكامل السور ،وهذا ما تدل عليه الأخبار الصحيحة .

وليس بالضرورة أن تكون الآيات التى ألحقت بآيات أخرى بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام مكتوبة بعدها مباشرة، ولنا أن نتصور عمليات إلحاق غير متتابعة الكتابة أو عمليات إلحاق متتابعة الكتابة أى أنه تلحق الآيات مع الآيات السابقة لها بحيث تليها مباشرة فى الكتابة أو تلحق بها بحيث لا تليها مباشرة فى الكتابة، وتكون مكتوبة فى موضع آخر مع الإحالة إلى موضعها الأصلى.

وربما كان تركيب السور (بنسخة الوحى) حسب النزول، أى أن السور كانت مرتبة ترتيبًا زمنيا ولم تكن بالترتيب الحالى الذى استقر عليه أخيراً ترتيب السور فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وجاء توقيعها وهذا الترتيب الزمنى للسور أى حسب نزولها ذكرته الروايات على وجه التقريب لاعلى وجه القطع ولم تكن معرفته ذات أهمية بالنسبة لحالة المصحف من حيث المضمون حيث إن الترتيب حسب النزول

قد نسخ بالترتيب الحالى[1] الذى استقر عليه القرآن كما قلنا توقيفًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتداء من الفاتحه والبقرة وآل عمران والنساء . وانتهاء بالإخلاص والفلق والناس. وإذا تصورنا أن ترتيب كتابة السور كان ترتيبًا زمنيًا وأن إلحاق الآيات لم يكن بالتتابع المكانى فى الكتابة فيمكننا أن نتصور (المضمون) الذى كانت عليه الصحف النبوية للقرآن الكريم وقولهم « ولكنه كان مفرقًا فى الرقاع والأكتاف ... وقولهم « وإن كان مبعثراً فى الأحجار والرقاع وغيرها ».

وعنها تم نسخ الصحف فى عهد سيدنا أبى بكر مع مراعاة الترتيب الذى أمر به الرسول عليه الصلاة والسلام، ومراعاة كتابة الآيات الملحقة بجوار الآيات الملحقة بها.

وهذا الذى حدث فى ترتيب القرآن وجمعه من اللخاف والرقاع وغيرها هو ما كان قد استقر عليه القرآن الكريم بأمر الرسول، وما كانت عليه العرضات النبوية مع جبريل عليه السلام ومنها العرضتين الأخيرتين قبل انتقاله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى.

وخلاصة القول :

أنه من حيث (المضمون) كانت الآيات بالصحف النبوية للقرآن الكريم ثابتة الإلحاق والترتيب ، وأن السور القرآنية كانت تامة ومن هذه الأصول تم نسخ الصحف فى عهد أبى بكر وذلك فيما يسمى بالجمع الثانى للقرآن الكريم .

الموضوع الرابع:

(كتابة القرآن الكريم) على عهد أبى بكر رضى الله عنه

واصل الصحابة رضى الله عنهم اهتمامهم بالقرآن الكريم ، وقد ظهر ذلك جليًا فى عهد سيدنا أبى بكر رضى الله عنه فيما تحقق من نسخ الأصول النبوية للقرآن الكريم فى المصحف وهذا ما يسمى (الجمع الثانى للقرآن الكريم) ونبين ذلك

---

(١) تأكد ترتيب سور القرآن وآياته بما عليه المصحف الآن من خلال تكرار تلاوة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقرآن حسب هذا الترتيب ، ونقله الصحابة والتابعون قراءة بهذا الترتيب ، وكتابته كما هو بالمصحف الحالى الذى وصلنا بالتواتر كتابة منذ أن نسخه عثمان رضى الله عنه عن النسخة البكرية المنقولة عن صحف النبى عليه أفضل الصلاة والسلام .

أولاً : تُجْمع الروايات على أن سيدنا عمر رضى الله عنه اقترح على سيدنا أبى بكر بأن يجمع القرآن من الأصول النبوية « فتردد أبوبكر أولاً لأن ذلك أمر محدث لم تكن له سابقة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم. وكان أبو بكر أحرص الناس على اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومجانبة كل ما لم يفعله، ولكنه بعد نقاش مع عمر رضى الله عنه اقتنع بصواب رأيه، وتجلى له وجه المصلحة فيه، وعلم أن ذلك الجمع وإن لم يفعله الرسول ﷺ هو من أكبر وسائل حفظ القرآن الكريم وصيانته من الضياع .. فأقدم على تنفيذ رأى عمر رضى الله عنه مراعاة لتلك المصلحة، فأرسل إلى زيد بن ثابت يدعوه إلى كتابة القرآن الكريم وجمعه فى مكان واحد[1]ا. هـ بتصرف:

وفى ذلك يروى البخارى فى صحيحه أن زيد بن ثابت[2] رضى الله عنه قال:

« أرسل إلى أبى بكر مقتل أهل اليمامة (أى عقب استشهاد القراء السبعين فى واقعة اليمامة) فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر رضى الله عنه:

« إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحر (أى اشتد) يوم اليمامة بقراء القرآن وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى مواطن أخرى فيذهب كثير من القرآن وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن . قلت لعمر: كيف نفعل ما لم يفعل رسول صلى الله عليه وسلم. قال: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال، ما كان أثقل على مما أمرنى من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعنى، حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة

---

(١) كان من أشهر الصحابة إتقانا لحفظ القرآن الكريم كله ووعيًا لحروفه وأداء لقراءته وضبطًا لإعرابه ولغاته وكان مداومًا لكتابة الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد العرضة الأخيرة للقرآن ، وكان ورعًا كامل الدين والعدالة مأمونًا على القرآن فاجتمع فيه من المزايا الكثير .

(٢) تاريخ المصحف الشريف ص ٤٦ .

التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع أحد غيره ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة:١٢٨]. حتى خاتمة براءة. فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر فى حياته ثم عند حفصة بنت عمر».

ثانيًا: لما شرع زيد رضى الله عنه فى جمع القرآن بأمر أبى بكر رضى الله عنه ، اعتمد على المصدرين الأساسيين اللذين قام عليهما حفظ القرآن بالتواتر استظهاراً وكتابة ، وهما :

١- صحف النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت ببيت النبوة ، وهى الأصول، وهى بمثابة التسجيل الكامل للقرآن الكريم بآياته المتتابعة مجاورة أو إلحاقًا. وسوره المتكاملة وقراءاته .

٢- القرآن المحفوظ فى صدور الصحابة استظهاراً[١]، ومن بينهم القراء أى الحفظة وكان عدد الحفظة كثيراً كما ذكرنا آنفًا، وخاصة أن حفظ القرآن كان أمراً مطلوبًا، وعملا مرغوبا ، وهدفًا ساميًا يسعى إليه الصحابة ، وكانت الظروف تساعد على الإقبال على الحفظ كما بينا سابقًا. ولهذا فإن المصدر بالحفظ كان لا يقل أهمية عن المصدر المكتوب وكلاهما - كما قلنا من قبل - مصدران موقوفان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن فمه الشريف مشافهة إلى الصحابة .

ثالثاً : تشير الروايات إلى أن عمر رضى الله عنه طلب من بعض الصحابة أن يأتوا بما تلقوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن وذلك حين البدء فى الجمع والتدوين، ولعل ذلك الطلب من عمر رضى الله عنه كان على سبيل الاستقصاء والتثبت بمطابقة المكتوب بعضه على بعض ، ولعل السبب هو جمع ما كان بأيدى الصحابة من النسخ الخاصة بهم والتى كانوا يكتبونها لأنفسهم كمذكرات. يدونون فيها النصوص القرآنية ، وما يحتاجونه من شروح أو تفاسير أو ملاحظات

---

(١) استظهار القرآن بدقة متناهية وكأن الحفظ بمثابة تسجيل للنص ، هو ظاهرة فكرية اختص بها القرآن دون سواه ، ونحن نشاهد مدى إتقان الحفظة لكتاب الله حتى أن الحافظ الجيد لا يخطئ حتى فى حرف واحد ، وإذا أخطأ أحد الحفظة فهناك من هو أحفظ منه ويستطيع أن يرده فى الحال وبسرعة ، فإذا كانت ظاهرة الحفظ فى عصرنا الحالى وبعد مضى ما يزيد على أربعة عشر قرنا بهذه الدقة والانتشار فماذا كانت عليه فى الصدر الأول ، لابد أن تكون فى أعلى درجات الإتقان .

أو كانت فيها السور غير مرتبة وكانت مكتوبة حسب ترتيب النزول ، ولكل هذه الاختلافات التى كانت موجودة بالصحف الخاصة الموجودة لدى بعض الصحابة كان لابد من جمع تلك الصحف والتخلص منها حتى لا تكون مصدراً لأية آراء غير سليمة أو استنباطات فاسدة ليس فى عصر الصحابة والتابعين الذين أجمعوا على ما فعله سيدنا أبو بكر، ولكن فى العصور المتأخرة عندما يحدث التباعد الزمنى بين الأجيال مما يؤدى إلى سوء الفهم .

رابعاً : «ولقد راعى زيد فى كتابة الصحف أن تكون مشتملة على ما ثبتت قرآنيته بطريق التواتر، واستقر فى العرضة الأخيرة وأن تكون مرتبة الآيات والسور جميعًا. وأن تكون مجردة عما ليس بقرآن من شرح أو تأويل.

وتم جمع القرآن على هذا النحو من صدور الحفاظ ومما كتب بين يديه عليه السلام»[(١)].

خامساً : بهذا الذى ذكرناه تم جمع القرآن كتابة (للمرة الثانية) على عهد أبى بكر رضى الله عنه فى صحف مجموعة معًا، وحفظها الخليفة أبو بكر رضى الله عنه إلى أن مات ثم انتقلت إلى الخليفة عمر بن الخطاب إلى أن مات، ثم انتقلت إلى حفصة أم المؤمنين وابنة عمر رضى الله عنها إلى أن طلبها الخليفة عثمان رضى الله عنه لينسخ منها المصاحف وردها مرة أخرى إلى حفصة رضى الله عنها.

تصورات الشكل والمضمون

تعتبر «الصحف النبوية للقرآن الكريم»(صحف الوحى) هى بمثابة الأصول للقرآن الكريم. ومنها تم نسخ الصحف فى عهد أبى بكر رضى الله عنه، وهذه الصحف الأخيرة المطابقة لصحف الوحى تماما هى بمثابة « صحف المستندات والمحفوظات» التى أجمع عليها الصحابة . وظلت محفوظة إلى أن نسخت فى المصاحف على عهد الخليفة عثمان رضى الله عنه أو بمعنى آخر فإن «الجمع فى عهد أبى بكر رضى الله عنه عبارة عن نقل القرآن جميعه وكتابته فى [تجمع واحد بين دفتين وهو متلاحق الآيات ومرتب السور حسب العرضة الأخيرة] ومقتصراً فيه على ما ثبتت قرآنيته

---

(١) تاريخ المصحف الشريف ص ٤٩.

الآيات ومرتب السور حسب العرضة الأخيرة] ومقتصراً فيه على ما ثبتت قرآنيته بطريق التواتر. وكان الدافع إلى جمعه هو الاحتياط والمبالغة فى حفظ القرآن خشية موت حملتـه وحفاظه »[١].

الفرق بين كتابة القرآن فى العهد النبوى ، وكتابته فى عصر الخليفة أبى بكر رضى الله عنه ويمكن تلخيصه فيما يلى:

١- تمام ترتيب الآيات فى سورها بدلاً من الإلحاق الذى كان يأمر به النبى صلى الله عليه وسلم بقوله «ضعوا هذه فى الموضع الذى يذكر فيه كذا وكذا».

٢- اختلاف مادة الصحف، فبعد أن كانت الأصول النبوية» للقرآن الكريم مكتوبة على مواد مختلفه: من العسب، واللخاف، والرقاع .. إلخ أصبحت مكتوبة فى صحف من مادة واحدة، ويغلب أن تكون من الرق، وكانت الصحف متجاورة وبين دفتين، وبهذا أخذت شكل الكتاب .

الموضوع الخامس:

(كتابة القرآن الكريم) على عهد عثمان رضى الله عنه

يمكننا بكل موضوعية أن نعتبر الجمع القرآنى فى عهد الخليفة عثمان رضى الله عنه، هو «جمع التدوين والنشر» وبهذا يكون القرآن الكريم قد جمع وكتب لمرات ثلاث، وفى كل مرة كان الجمع يتم فى ظروف خاصة ليحقق أهدافًا خاصة إتمامًا وتوثيقًا لجمعه وحفظه :

فكانت الصحف النبوية للقرآن الكريم، هى بمثابة «جمع الوحى» أو بمثابة (الأصول) التى تلقاها النبى صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام عن الله سبحانه وتعالى، وبها تأصل القرآن كتابة بجانب تأصله استظهاراً وحفظًا فى الصدور.

وكانت صحف القرآن الكريم على عهد الخليفة أبى بكر هى بمثابة «الوثائق» التى تحقق حفظ القرآن الكريم كوثائق يسهل الرجوع إليها وهى بين دفتين.

وكانت الصحف القرآنية على عهد الخليفة عثمان ، هى المرحلة الأخيرة.

---

(١) تاريخ المصحف الشريف ص ٥٧.

فى تدوين القرآن الكريم ، وأصبحت تأخذ اصطلاحاً وهو (المصحف)[١] ، [٢] وبها تحقق النشر والانتشار . وصدق الله العظيم القائل ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

السبب فى نسخ المصاحف على عهد عثمان رضى الله عنه:

تقتضى حكمة الله دائماً أن يجعل سبحانه وتعالى للمسببات أسباباً وأن يجعل للأفعال دوافع وغايات ، وهذه من سنن الله فى أفعال العباد .

ولقد أراد الله سبحانه وتعالى وبمقتضى علمه وحكمته ، وتحقيقاً لإرادته ووعده أن يحفظ كتابه العزيز (القرآن الكريم) ، فهيأ الأسباب التى تدفع خيرة المسلمين من صحابة النبى ﷺ إلى أن يقوموا بما يحقق ذلك الحفظ .

فلما استحرَّ القتل فى حفظة القرآن من صحابة رسول الله ﷺ فى موقعة اليمامة عام اثنى عشر للهجرة ، وفيها دارت رحى الحرب بين المسلمين وأتباع مسيلمة الكذاب ، شرح الله صدر أبى بكر وعمر وطائفة من الصحابة إلى تدوين القرآن، فكانت كتابته فى عهد الخليفة أبى بكر فى (نسخة وثائقية) يسهل الرجوع إليها.

وفى عهد الخليفة عثمان رضى الله عنه كان الصحابة قد تفرقوا فى الأمصار - إثر دخول الإسلام إلى كثير من الأقطار - يعلمون الناس القرآن الكريم ، ويفقهونهم فى الدين ، وكان كل منهم يقرئ الناس بالقراءة التى تلقى بها من النبى ﷺ ، حيث

---

(١) الفرق بين الصحف والمصحف : أن الصحف جمع صحيفة ، وهى القطعة من الورق أو غيره يكتب فيها. والمصحف هو جامع الصحف ، فهو يلاحظ فيه دفتاه ، وهما جلداه اللذان يتخذان لجمع أوراقه ، وضبط صحفه فلا تتبعثر ، وهذا معناهما فى أصل اللغة . أما فى الاصطلاح فالمراد (بالصحف) الأوراق المجردة التى جمع فيها القرآن فى عهد الصديق وكانت مرتبة الآيات مفرقة السور ، لم يرتب بعضها إثر بعض . والمراد (بالمصحف) الأوراق التى جمع فيها القرآن مع ترتيب آياته وسوره جميعا فى عهد عثمان رضى الله عنه « انتهى من الفتح لابن حجر .

(٢) «المصحف فهو بزنة اسم المفعول من أصحفه أى جمعه فى الصحف ، فكأن المصحف ملحوظ فى معناه اللغوى دفتاه وهما جانباه أو جلداه اللذان يتخذان جامعاً لأوراقه ، ضابطاً لصحفه ، حافظاً لها » مناهل العرفان ص ٣٩٤ .

إن القرآن تنزل على سبعة أحرف[١]، واتبع أهل كل مصر الطريقة التى تلقوا بها عن الصحابى الذى نزل بمصرهم : فأهل الشام يقرءون بقراءة أبى بن كعب ، وأهل الكوفة يقرءون بقراءة عبد الله بن مسعود ، وغيرهم يقرأ بقراءة أبى موسى الأشعرى وهكذا ... فلما بدأت الأمة الإسلامية تتسع وكان ذلك « فى السنة الثانية أو الثالثة - على اختلاف الروايات ، من خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه سنة خمس وعشرين من الهجرة اجتمع أهل الشام وأهل العراق فى غزوة أرمينية وأذربيجان وكان فيمن غزاها مع أهل العراق حذيفة بن اليمان ، فرأى كثرة اختلاف المسلمين فى وجوه القراءة ، وسمع ما كانت تنطلق به ألسنتهم من كلمات التجريح والتأثيم حين اختلافهم فى أوجه القراءة ، فاستعظم ذلك حذيفة وأكبره ، ففزع إلى عثمان خليفة المسلمين رضى الله عنه وأخبره بالذى رأى »[٢] وقد أفزع ذلك بعض الصحابة وخشى سوء العاقبة إذا تمادى الناس فيما هم فيه .

«على أن الذى يجب أن ينبه إليه فى هذا المقام أن النص المكتوب واحد فى جميع هذه الحروف[٣] ، وإنما المقصود به طريقة النطق حسب لهجات العرب المختلفة ، وقد تواردت أحاديث كثيرة تفيد أن القرآن نزل على أكثر من لهجة ليسهل على العرب الانتفاع بالقرآن على اختلاف لهجاتهم[٤] » ... اهـ باختصار .

أضف إلى ذلك أن الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن لم تكن معروفة كلها لأهل تلك الأمصار ، ولم يكن من السهل أن يعرفوها كلها حتى يتحاكموا إليها فيما يختلفون ، إنما كان كل صحابى فى إقليم يقرئهم بما عرف فقط من الحروف التى نزل عليها القرآن ، ولم يكن بين أيديهم مصحف جامع يرجعون إليه فيما شجر بينهم من هذا الخلاف فى قراءة القرآن[٥]

---

(١) انظر المبحث عن تنزل القرآن على سبعة أحرف

(٢) تاريخ المصحف الشريف ص ٥٢

(٣) كانت الآيات غير منقطة أو مشكلة - توقيفاً عن رسول الله ﷺ - مما جعل النص المكتوب واحد، مع تنوع طريقة النطق فى الكلمة الواحدة .

(٤) دراسات قرآنية ١٣ ، ١٤ ، ١٥

(٥) مناهل العرفان ص ٢٤٩

خطوات التنفيذ وقواعد كتابة المصحف :

لقد رأى عثمان رضى الله عنه بثاقب فكره - بعد أن عرض الأمر على أعلام الصحابة - أن يكون للمسلمين مصاحف يرجعون إليها ، تحمل الأحرف السبعة حسب ما هو موقوف عن رسول الله ﷺ ووارد بالصحف البكرية المنقولة عن صحف القرآن النبوية والتى كانت محفوظة عند أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها بعد وفاة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه .

وشرع عثمان رضى الله عنه بتنفيذ القرار الحكيم حوالى أواخر عام أربعة وعشرين هجرية حسب الآتى :

١- أرسل عثمان رضى الله عنه إلى أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، وبعد أن فرغ منها ردها إليها مرة أخرى .

٢- عهد عثمان رضى الله عنه فى نسخ المصاحف إلى أربعة من خيرة الصحابة وثقات الحفاظ وهم : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام رضى الله عنهم . وكان (زيد) على رأس الذين اختارهم عثمان لنسخ القرآن لأنه هو الذى نقل القرآن من الصحف فى عهد أبى بكر ، ولأنه كان أشهر كتاب الوحى للنبى ﷺ وأكثرهم اهتماماً بالقرآن.

٣- كان نسخ المصاحف بإشراف الخليفة عثمان رضى الله عنه ومعه أعلام الصحابة من المهاجرين والأنصار ، وكانوا لا يكتبون شيئاً إلا بعد أن يعرض على الصحابة جميعًا.

٤- كتبوا مصاحف متعددة وقصدوا اشتمالها على الأحرف السبعة التى نزل عليها القرآن الكريم ، وكانت خالية من النقط والشكل تحقيقاً لهذا الغرض . فالكلمات التى اشتملت على أكثر من قراءة وخلوها من النقط والشكل يجعلها محتملة لما اشتملت عليه من قراءة، كتبوها برسم واحد فى جميع المصاحف وذلك

نحو ﴿فتبيَّنوا﴾ [الحجرات: ٦]. فى سورة الحجرات. أما الكلمات التى وردت على قراءتين أو أكثر وتجريدها من النقط والشكل لا يجعلها محتملة لما ورد فيها من القراءات لم يكتبوها برسم واحد فى جميع المصاحف ، وإنما كتبوها فى بعض المصاحف برسم يدل على قراءة ، وفى بعضها برسم آخر يدل على القراءة الأخرى نحو « وأوصى بها إبراهيم » فى سورة البقرة : رسمت فى بعض المصاحف بواوين قبل الصاد ، ومن غير ألف بينهما « ووصى بها إبراهيم » .

« وإنما لم يكتبوا هذا النوع من الكلمات برسمين معاً فى مصحف واحد خشية أن يتوهم أن اللفظ نزل مكرراً بقراءة واحدة، وليس كذلك بل هما قراءتان نزل اللفظ فى إحداهما بوجه، وفى الثانية بوجه آخر من غير تكرار فى واحد منهما.

وكذلك لم يكتبوا هذه الكلمات برسمين أحدهما فى الأصل والثانى فى الحاشية لئلا يتوهم أن الثانى تصحيح للأول وأن الأول خطأ. على أن كتابة أحدهما فى الأصل والآخر فى الحاشية تحكم وترجيح بلا مرجح.

والذى دعا الصحابة إلى سلوك هذا النهج فى كتابة المصاحف أنهم تلقوا القرآن عن رسول الله ﷺ بجميع وجوه قراءاته وحروفه التى نزل بها . فكانت هذه الطريقة أدنى إلى الإحاطة بالوجوه التى نزل عليها القرآن الكريم ، وحينئذ لا يقال إنهم أسقطوا شيئاً من قراءاته لأنها كلها منقولة متواترة عن رسول الله ﷺ »(١).

٥- صار تركيب السور حسب ما انتهت إليها العرضات واستقر عليه القرآن على عهد رسول الله ﷺ وهو ما عليه الترتيب الآن فى المصاحف، فقد كانت السور مرتبة بالصحف النبوية والصحف البكرية حسب النزول، ولكنها كانت قد استقرت على الترتيب الذى عليه الآن توقيفاً عن رسول الله ﷺ.

٦- بعد أن أتم عثمان رضى الله عنه نسخ المصاحف ، عمل على إرسالها إلى الأقطار ، وأمر أن تحرَّق الصحف الموجودة لدى الأفراد ، والتى كانت بمثابة نسخ

(١) تاريخ المصحف الشريف ص ٥٤ ، ٥٥.

خاصة ، وقد دونها أصحابها من باب التذكرة والدراسة وكان بها ما يعن لهم من شروح وملاحظات ، مما قد يخشى من وجودها فيما بعد - بهذه الصحف الخاصة - إحداث الاضطراب فى نصوص القرآن الكريم وقد كان عثمان رضى الله عنه حكيماً فى أمره بإحراق هذه النسخ الخاصة لما فيها من الشروح والملاحظات الزائدة عن النصوص القرآنية ولقد استجاب الصحابة رضى الله عنهم الذين كانت لديهم صحف خاصة بهم ، وحرقوا هذه الصحف، والتزموا بالمصحف الإمام وقد أجمع عليه كافة الصحابة ، والتف المسلمون حوله إلى يومنا هذا .

وأصح الأقوال عن عدد المصاحف التى أمر عثمان رضى الله عنه بكتابتها، أنها ستة : مصحف للبصرة ، وآخر للكوفة وثالث للشام ورابع لمكة وخامس للمدينة وسادس حبسه عثمان لنفسه وهو المدنى الخاص ، ويسمى (مصحف الإمام)، ولعل إطلاق هذا الاسم عليه لأنه الذى نسخ أولاً ومنه نسخت المصاحف الأخرى .

موقف المسلمين من المصحف العثمانى :

عندما أمر عثمان رضى الله عنه بنسخ المصاحف كما ذكرنا من قبل ، وقف منه الصحابة جميعاً موقف التأييد والمؤازرة ، واستجابوا لندائه فاجتمعوا على (المصحف الإمام) وتخلصوا من كافة الصحف الخاصة التى كانت لدى بغضهم[١] تماماً كما يفعل المسلمون باستبدال بعض نسخ المصاحف بما هو أكثر إتقاناً فى الشكل والطباعة والخلو من الطباعة وكانت نتيجة هذه الاستجابة السريعة واضحة فى سرعة انتشار المصاحف العثمانية بالأقاليم التى أرسلت إليها المصاحف ، فقد أقبل عليها المسلمون ، ووقفوا منها موقف القبول والإكبار ، لأنهم علموا أن نسخ هذه المصاحف كان عن إجماع من أصحاب رسول الله ﷺ .

وقد كان عثمان رضى الله عنه ، حكيماً وموفقاً عندما أرسل إلى الأمصار مع كل مصحف إماماً عدلاً ضابطاً تكون قراءته موافقة لما فى المصحف الذى أرسل إلى

---

(١) هذه الصحف التى كانت لدى بعض الصحابة وعليها عبارات وملاحظات لهم ولم تكن وفق الترتيب التوقيفى هى بمثابة مذكرات قرآنية » خاصة .

كل مصر ، إيماناً منه بأن القرآن الكريم إنما يعتمد على التلقى والأخذ من أفواه الشيوخ خلفاً عن سلف، وثقة عن ثقة وإماماً عن إمام: فأمر زيد بن ثابت أن يقرئ بالمصحف المدنى، وبعث عبد الله بن السائب مع المصحف المكى والمغيرة ابن شهاب مع الشامى، وأبا عبد الرحمن السلمى مع الكوفى وعامر بن قيس مع البصرى.

« ثم نقل التابعون عن الصحابة فقرأ أهل كل مصر بما يوافق مصحفهم تلقياً عن الصحابة الذين تلقوه من فى رسول الله ﷺ »(١).

موقف المسلمين من التدوينات القرآنية الخاصة :

عندما استقر الصحابة على المصحف الإمام الذى تم نسخه فى عهد الخليفة عثمان رضى الله عنه بإشراف الصحابة ، أصبحت المدونات الخاصة بالقرآن والتى كانت فى حوزة بعض الصحابة غير ذات موضوع خاصة وقد كانت غير مستوفية للشكل القرآنى من حيث ترتيب السور الذى انتهى إليه القرآن فى آخر العرضات توقيفاً عن رسول الله ﷺ. ولقد تركها أصحابها واستبدلوها بالمصحف الإمام وأصبحت تلك المدونات الخاصة فى طى النسيان ، ولم تنل من التابعين ومَنْ جاءوا بعدهم أى اهتمام.

ثم جاء فريق من العلماء لأغراض شتى يبحثون عن هذه التدوينات الخاصة التى تركها أصحابها ولم تكن معروفة إلا لديهم، وفى سبيل النبش لجأوا إلى أخبار وروايات وأقاويل واهية وضعيفة نتيجة لتوقف العلم بهذه التدوينات. وطالعتنا فى قرون متأخرة دراسات عن هذه التدوينات الخاصة وكيف كان ترتيب السور بها، وماذا كانت تحويه من شروح وملاحظات، وكلها كما قلنا أخبار ضعيفة لا سند لها من الصحة القائمة على التواتر حفظا أو تدوينا.

ولقد أصبح الخوض فى الحديث عن هذه التدوينات القرآنية الخاصة ضرب من الظن وضرب من العبث العلمى حيث إن هذه التدوينات ليست لها من الأساس أهمية لا فى تاريخ المصحف ولا فى أى جانب من جوانبه، حتى أنها منذ تدوين المصحف

---

(١) تاريخ المصحف الشريف ص ٦٠ .

الإمام اختفت معالمها على أيدى أصحابها بإتلافها أو إحراقها لعدم الحاجة إليها. والآن وبعد مضى عدة قرون جاء نفر يتحدثون عن هذه التدوينات الخاصة حديث الواثق المتيقن، وفى سبيل التمكين لأهدافهم، يقدمون دراسات براقة تارة باسم (المصاحف)، وتارة يذكرون ترتيب السور بالكامل وكأن الدارسين قد نقلوها متواترة عن أصحابها، وتارة توثق وعن طريق نسبة بعض القراءات الشاذة إليها وكأنها مراجع قرآنية يُعمل بها، وكل هذه الأقوال ضعيفة وهى فى حق القرآن أفعال باطلة وكل من يظهر حرصه على إحياء هذه التدوينات إنما يفعل ذلك لا من باب الحرص على تدوين تاريخ المصحف الشريف ولكن من باب الإيحاء الخبيث بوجود الاختلاف فى تدوين المصحف والتشويش والبلبلة حول تاريخ المصحف وكل هذه المحاولات الفاسدة تتحطم أمام حقيقة التواتر والانتشار والحفظ التى تميز بها القرآن الكريم.

بيان وبرهان :

١- عندما أتمَّ عثمان رضى الله عنه نسخ المصاحف من أصول الصحف التى نسخت فى عهد أبى بكر رضى الله عنه ؛ كان من الضرورى رفع كل ما عداها من الصحف الخاصة التى كانت موجودة لدى بعض الصحابة وقد كتبوها حسب قدراتهم الفردية لتكون بمثابة نسخ تعليمية يتدارسون فيها ويرجعون إليها ، ولم تكن هذه الصحف الخاصة منسوخة عن الأصول النبوية بل كانوا يكتبونها سماعاً ويضيفون فيها بعض الشروح والملاحظات وعندما دعا عثمان رضى الله عنه إلى حرق كل ما عدا المصحف الإمام ، فقد أراد أن يحمل المسلمين على الجادة فلا يأخذوا إلا بتلك المصاحف التى توفرت فيها من المزايا والإتقان ما لم يتوفر فى الصحف الخاصة. وهذا أمر مطلوب فى كل التدوينات حيث تكون النسخ الموثقة والمتقنة هى النسخ المعتمدة والأولى بالاستخدام.

٢- لم يبق من صحف القرآن الكريم إلا النسخة البكرية التى اعتمد عليها

عثمان فى نسخ المصاحف وكان قد أخذها من أم المؤمنين حفصه رضى الله عنها ثم ردها إليها بعد الانتهاء منها .

وفى رد عثمان رضى الله عنه للصحف البكرية إلى حفصة رضى الله عنها دليل قاطع على مطابقة المصحف الإمام لهذه الصحف البكرية إذ لو كان عثمان قد خالف الصحف البكرية لما كان ردها إلى حفصة رضى الله عنها حتى لا يكون بقاؤها دليلاً قائماً على تلك المخالفة ولأمر بحرقها حتى يخفى معالم الاختلاف بين مصحفه وصحف أبى بكر رضى الله عنه .

إذن فإن رد عثمان للصحف البكرية إلى أم المؤمنين حفصة دليل قاطع على مطابقة المصاحف العثمانية للصحف البكرية كما أن رد الصحف البكرية إلى حفصة رضى الله عنها ، وأمره بإحراق ما عداها دليل على حكمة التصرف وسلامته ، فقد أبقى عثمان رضى الله عنه على الأصول المعتمدة وهى الصحف البكرية وأمر بحرق النسخ الخاصة باعتبارها نسخ غير معتمدة وليست مطابقة للأصول المجردة من الشروح والملاحظات التى كان يدونها أصحاب تلك الصحف الخاصة على هوامش كتاباتهم[١] وكأنها مذكرات قرآنية.

والعاملون فى مجال التأليف وتحقيق التراث يدركون ما يحدث من المشاكل بسبب وجود نسخ مكررة لأصل من الأصول التراثية ، خاصة إذا كانت هذه النسخ غير دقيقة وبها من الأخطاء والإضافات الزائدة عن الأصل . وهم يعلمون

---

(١) موضوع حرق نسخ الصحف التى كانت لدى بعض الصحابة وكذلك نسخة المصحف البكرية التى ردها عثمان إلى حفصة وظلت لديها إلى عهد مروان بن الحكم .. هذا الموضوع استهوى فكر بعض الكتاب خاصة المستشرقين وخصوم الإسلام ، فصاروا يرددونه فى مؤلفاتهم بمناسبة وبدون مناسبة ، رغبة فى إشاعته لأسباب يعلمها الله ، وعلى سبيل المثال فقد وجدناه مذكوراً فى كتاب وكأنه جاء إقحاما وفى غير موضعه ، وهذا النهج معروف فى التأليف لتحقيق إيماءات فكرية معينة . وكما رفض ابن مسعود فى البداية إحراق مصحفه تنفيذاً لأمر عثمان . رفضت حفصه تسليم مصحفها (صحفها) إلى مروان بن الحكم ليحرقها . حتى إذا توفيت أخذها وأحرقها مسوغا ذلك بقوله : (إنما فعلت هذا لأن ما فيها قد كتب وحفظ بالمصحف الإمام . فخشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب فى شأن هذا المصحف مرتاب) ص ١٠٦ من كتاب « سماحة الإمام الدكتور الشيخ شمس الدين الفاس - قطب الصوفية فى القرن العشرين] والكتاب مجرد سيرة شخصية - ويتحدث عن التصوف .....] .

خطورة استمرار بقاء تلك النسخ بجوار الأصل، مما يسبب على المدى البعيد مشقة فى تحقيق النسخة الأصلية وتمييزها عن الأصل. وما يحدث أيضاً من الخلافات والانشقاق وتعدد الآراء وتباين المواقف والجدل الذى يدور حول الأصل والنسخ المنقولة عنها مما يجعل عدم وجود هذه النسخ المنقولة عن الأصل أمراً مستحسناً عند من يقومون بتحقيق التراث. وكأن أمر عثمان بإحراق ما عدا الأصل من نسخ الصحف التى كانت لدى بعض الصحابة هو من قبيل المحافظة على الأصل والتخلص مما عداه.

خاتمة:

١- بالنظر والتأمل فيما سبق بيانه عن جمع القرآن بالحفظ استظهاراً والتوثيق كتابة نرى أنه تحقق منذ بدء تنزل القرآن وحيا، أعلى درجات الإتقان المشمولة بالجد والإخلاص والإيمان، لهذا فقد اجتمع لجمع القرآن وحفظه استظهاراً وتدوينا: دقة الأداء، وصدق الاعتقاد، وقوة الإيمان، والنقل عبر التاريخ محمولاً على أجنحة التواتر استظهاراً وكتابة.

وما تذكره الروايات الضعيفة والأخبار الموضوعة والآراء العقيمة والأقوال المشبوهة، نتيجة سوء الفهم للنصوص، أو نتيجة الخلل الفكرى، أو بسبب سوء القصد، فلن يستطيع أن يقلل من عظمة ودقة جمع القرآن الكريم موقوفاً عن رسول الله ﷺ بدءاً من نزول الوحى إلى وقتنا هذا وإلى أن تقوم الساعة، متواتراً بالاستظهار والتدوين، وهذه حقيقة يجب أن يؤمن بها المسلمون وغير المسلمين وهى تقوم على أرض الواقع كشمس الضحى لا تخفيها أتربة التضليل والخداع.

٢- ولقد كان تكرار جمع القرآن الكريم فى العهود الثلاثة: العهد النبوى، والعهد البكرى، والعهد العثمانى، بمثابة الحفظ المتكرر ليصبح القرآن الكريم فى حصن حصين من أى عبث أو تحريف، ولكى تصبح أصالته ومراجعته أموراً ثابتة ومستقرة:

- فكان جمع القرآن فى عهد النبى ﷺ بمثابة التسجيل الآنى والمباشر من فم

رسول الله ﷺ عقب تنزل القرآن وحياً، بإملائه للآيات القرآنية على كتاب الوحى عقب تنزلها، وتحفيظه ﷺ الصحابة هذه الآيات. ولم يكن هناك تمهل أو تباطؤ فى التدوين أو الاستظهار، وبذلك تحققت أصالة التدوين فى أعلى درجاته وبطريقة تفرد بها القرآن حتى أصبح جمعه يمثل جانباً من جوانب إعجازه ويمكن أن نطلق عليه: «إعجاز التسجيل».

- وكان جمع القرآن على عهد أبى بكر رضى الله عنه بمثابة إتمام تسوير السور كتابة وذلك بتدوين آيات السورة بعضها بجوار بعض، بعد أن كان بعضها ملحقاً بالآخر، وكذلك إعادة ترتيب السور كتابة حسبما انتهى إليه أمر الرسول ﷺ بالعرضات وجمع القرآن فى صحائف بين دفتين ليكون كتاباً محفوظا. واستكمل التدوين على عهد أبى بكر بالتدوين على عهد عثمان فى شكل المصاحف التى سبق الحديث عنها وتحقق انتشارها فى الأمصار. ونطلق على هذين التدوينين « إعجاز التدوين ».

وبذلك يكون جمع القرآن قد اشتمل على إعجازين هما: « إعجاز التسجيل »، « وإعجاز التدوين ». وذلك بجانب « إعجاز الاستظهار » الذى تمثل فى إقبال المسلمين على استظهار القرآن بصورة لم يسبق لها مثيل لأى كتاب على مدى التاريخ[(١)]، وفى كل العصور ومن كل الطوائف. وبهذا كله تحقق الحفظ للقرآن الكريم من الضياع أو النقصان أو التحريف، وصدق الله العظيم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

---

(١) فى مبحث مطول تحدث صاحب كتاب مناهل العرفان عن : الدواعى والعوامل التى توافرت فى الصحابة حتى استظهروا القرآن والحديث النبوى وتثبتوا فيهما . وقد ذكر بضعة عشر عاملاً توافرت فى أصحاب الرسول الأكرم ﷺ حتى حفظوا الكتاب والسنة ومنها : أنهم كانوا باعتبارهم أميين ، يعتمدون على حوافظهم وذاكرتهم - وكانوا أمة يضرب بها المثل فى الذكاء وقوة الحافظة .حبهم الصادق لله ولرسوله ﷺ والترغيب فى الإقبال على حفظ كتاب الله - بلاغة القرآن مما جعلهم يقبلون على حفظه - منزلة الكتاب والسنة من الدين - ارتباط كثير من كلام الله ورسوله بوقائع وحوادث وأسئلة ، من شأنها أن تثير الاهتمام وترغب فى الحفظ -اهتداء الصحابة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ . (انظر البحث بالتفصيل ص ٢٨٢ - ٣٠٨) .

الموضوع السادس

رسم المصحف

(أو) رسم المصحف العثمانى[١]

رسم المصحف : هو الوضع الذى استقرت عليه المصاحف العثمانية متواتراً عن صحف النبى ﷺ - فى كتابة كلمات القرآن وحروفه حيث توجد الحروف ببعض الكلمات تخالف منطوق هذه الكلمات « ورسم المصحف » يُعنى أساساً بحال كتابة الكلمات مخالفة لمنطوقها.

وقد تحقق ذلك فى رسم المصحف العثمانى « حيث وجدت بها حروف كثيرة جاء رسمها مخالفاً لأداء النطق وذلك لأغراض شريفة ... »[٢] وقد وضعوا لرسم المصحف قواعد « حصرها علماء الفن فى ستة قواعد وهى الحذف ، والزيادة ، والهمزة ، والبدل ، والفصل والوصل ، وما فيه قراءتان تقرأ على إحداهما .

(قاعدة الحذف) خلاصتها أن الألف تحذف من ياء النداء نحو ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١].

(قاعدة الزيادة) خلاصتها أن الألف تزاد بعد الواو فى آخر كلمة اسم مجموع أو فى حكم المجموع مثل «بنوا إسرائيل» وبعد الهمزة المرسومة واوا نحو ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ﴾ فإنها ترسم هكذا : ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ﴾ [يوسف: ٨٥].

(قاعدة الهمزة) خلاصتها أن الهمزة إذا كانت ساكنة ، تكتب بحرف حركة ، ما قبلها نحو «ائذن» « البأساء» ، أما الهمزة المتحركة فإن كانت أول الكلمة واتصل بها حرف زائد كتبت بالألف مطلقاً .. وإذا كانت بالوسط فإنها لا تكتب بحرف من جنس حركتها نحو تسأل ، سُئِل ... وإن كانت متطرفة كتبت بحرف من جنس حركة ما قبلها نحو « سبأ » «لؤلؤ» ...

---

(١) عندما نقول « رسم المصحف » أو « رسم المصحف العثمانى » فإننا نعنى بالضرورة رسم الصحف النبوية للقرآن الكريم التى نُقلت عنها « الصحف البكرية » بنفس الرسم وهذه نقلت عنها المصاحف العثمانية بنفس الرسم ، ولهذا لزم التنبيه .

(٢) مناهل العرفان ص ٣٦٢ / جـ ١ .

(قاعدة البدل) خلاصتها أن الألف تكتب واواً للتفخيم فى مثل الصلاة والزكاة والحياة ... إلخ .

(قاعدة الوصل والفصل) خلاصتها أن كلمة (أن) بفتح الهمزة توصل بكلمة (لا) إذا وقفت بعدها ويستثنى من ذلك عشرة مواضع منها (أن) لا تقولوا... وكلمة (من) توصل بكلمة (ما) إذا وقعت بعدها ... إلخ .

(قاعدة ما فيه قراءتان) خلاصتها أن الكلمة إذا قرئت على وجهين تكتب برسم أحدهما كما رسمت الكلمات الآتية بلا ألف فى الصحف : مالك يوم الدين ، يخادعون الله .. وكلها مقروءة بإثبات الألف وحذفها[1].

وقد تحدث العلماء عن الحِكَم والفوائد لهذا الرسم ، كما تكفل علماء الرسم - أى رسم المصحف - ببيان خصائص الرسم العثمانى ومزاياه ، فارجع إليها إن شئت . وممن عنوا بالكلام على رسم القرآن وحصر تلك الكلمات التى جاء خطها على غير مقياس لفظها الإمام « أبو عمرو الدانى » الذى ألف فيه كتابه المسمى (المقنع)، ومنهم العلامة أبو عباس المراكشى إذ ألف كتاباً أسماه «عنوان الدليل فى رسم خط التنزيل».

ويدعو البعض إلى كتابة المصحف حسب القواعد العامة للإملاء دون التقيد بقواعد الرسم العثمانى، وحجتهم أن قواعد الإملاء فيها تيسير على المبتدئين فى تعلم القرآن الكريم ، وهم يريدون مثلاً أن يستبدلوا كلمة (طه) القرآنية بكلمة (طاها) الإملائية، ولفظ الجلالة (الله) بلفظ (اللاه) الإملائى.. إلخ ولقد تبنى هذه الفكرة فى الماضى بعض المسلمين الذين يغلب الرأى على تفكيرهم، ويميلون إلى الابتداع ولا يحرصون على النقل والاتباع، متعللين برفع الحرج عن المبتدئين فى قراءة القرآن الكريم، ولكنهم فشلوا فى دعوتهم ، ولم يستطيعوا أن يحققوا فكرتهم.

---

(١) مناهل العرفان باختصار شديد من ص ٣٦٢ - ٣٦٥ / جـ١ ونلفت النظر إلى أن المقصود برسم المصحف وهو ما ذكرناه هو خلاف المقصود بشكل الحروف أى خطوط الحروف التى قد تكون كوفية وبها تكتب المصاحف دون تقيد بالخطوط الأولى التى كتب بها المصحف والمصاحف على عهد الصحابة لأن رسم المصحف توقيفى وله دلالاته ومغزاه ، أما خطوط المصحف فقد جاز فيها الاجتهاد (المؤلف).

ومن جنحوا إلى هذا الرأى: ابن خلدون فى مقدمته، ومن تحمس له القاضى أبو بكر[١] فى الانتصار إذ يقول ما نصه «وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئا، إذ لم يأخذ على كُتَّاب القرآن وخطاط المصاحف رسماً بعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ما عداه، إذ وجوب ذلك لا يدرك إلاَّ بالسمع والتوقيف وليس فى نصوص الكتاب ولا مفهومه أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز إلاَّ على وجه مخصوص وحد محدود لا يجوز تجاوزه، ولا فى نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه، ولا فى إجماع الأمة ما يوجب ذلك ولا دلت عليه القياسات الشرعية..» أ.هـ.

وجوب الالتزام بالرسم العثمانى فى كتابة المصحف الشريف:

غير أن جماهير العلماء من السلف والخلف يرون وجوب الالتزام بالرسم العثمانى فى كتابة المصاحف الشريفة:

- روى السخاوى بسنده أن مالكاً رضى الله عنه سئل : أرأيت من استكتب مصحفاً أترى أن يكتب على ما استحدث الناس من الهجاء ؟ فقال لا أرى ذلك ، ولكن يكتب على الكتبة الأولى . قال السخاوى : والذى ذهب إليه مالك هو الحق .

- وقال الإمام أحمد بن حنبل : تحرم مخالفة خط مصحف عثمان فى واو أو ألف أو ياء أو غير ذلك .

- وجاء فى حواشى المنهج فى فقه الشافعية ما نصه : كلمة «الربا» تكتب بالواو والألف كما جاء فى الرسم العثمانى ، ولا تكتب بالياء أو الألف لأن رسمه سنة متبعة .

- وجاء فى المحيط البرهانى فى فقه الحنفية ما نصه « إنه ينبغى ألا يكتب المصحف بغير الرسم العثمانى » .

- وقال البيهقى فى شعب الإيمان : من كتب مصحفاً ينبغى أن يحافظ على الهجاء الذى كُتب به تلك المصاحف .

---

(١) القاضى أبو بكر الباقلانى .

- «ونقل الإمام الجعبرى وغيره إجماع الأئمة الأربعة على وجوب اتباع رسم المصحف العثمانى»[١].

وقد فند العلماء أقوال من جنحوا إلى جواز استخدام قواعد الإملاء فى كتابة القرآن، ومن جملة ما قالوه عن رسم المصحف: «أنه توقيفى لا تجوز مخالفته، وهذا مذهب الجمهور . واستدلوا بأن النبى صلى الله عليه وسلم كان له كُتَّاب يكتبون الوحى ، وقد كتبوا القرآن فعلاً بهذا الرسم - وأقرهم الرسول على كتابتهم ومضى عهده صلى الله عليه وسلم والقرآن على هذه الكتْبة ، لم يحدث فيه تغيير ولا تبديل . بل ورد أنه صلى الله عليه وسلم كان يضع الدستور لكُتَّاب الوحى فى رسم القرآن وكتابته ومن ذلك قوله لمعاوية وهو من كتبة الوحى « أبق الدَّواة ، وحرِّف القلم ، وانصب الباء ، وفرِّق السين ، ولا تعوِّر الميم وحسن الله، ومُدَّ الرحمن ، وجود الرحيم ، وضع قلمك على أذنك اليسرى ، فإنه أذكرُ لك » ثم جاء أبو بكر رضى الله عنه فكتب القرآن بهذا الرسم فى صحف ، ثم حذا حَذوه عثمان رضى الله عنه ، فى خلافته ، فاستنسخ تلك الصحف فى مصاحف على تلك الكتبة وأقر أصحابُ النبى عمل أبى بكر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين ، وانتهى الأمر بعد ذلك إلى التابعين وتابعى التابعين ، فلم يخالف أحد منهم فى هذا الرسم . ولم ينقل أن أحداً منهم فكر أن يستبدل به رسماً آخر من الرسوم التى حدثت فى عهد ازدهار التأليف ونشاط التدوين وتقدم العلوم ، بل بقى الرسم العثمانى محترماً متبعاً فى كتابة المصاحف لا يمس استقلاله ولا يباح .

وملخص هذا الدليل أن رسم المصاحف العثمانية ، ظفر بأمور كل واحد منها يجعله جديراً بالتقدير ووجوب الاتباع : تلك الأمور هى إقرار الرسول صلى الله عليه وسلم ... وإجماع الصحابة - وكانوا أكثر من اثنى عشر ألف صحابى ، ثم إجماع الأمة عليه بعد ذلك فى عهد التابعين والأئمة المجتهدين .

وأنت خبير بأن اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم واجب فيما أمر به أو أقر

(١) تاريخ المصحف الشريف ص ٨٥ .

عليه... وانعقادُ الإجماع على تلك المصطلحات فى رسم الصحف دليل على أنه لا يجوز العدول عنها إلى غيرها »[١] ا . هـ

نتيجة : ومما سبق ذكره ترى أن « رسم المصحف » قد استقر وتواتر بدءاً من الرسول عليه الصلاة والسلام إلى عصرنا هذا ، وقد حظى بالإجماع فى كل العصور رغم نشاز الرأى لقلة من المسلمين الذين يرون أن رسم المصحف اصطلاحى وليس توقيفيًا ، وهم مخطئون فى تأويلهم هذا « وإذا ثبت أن الرسم القديم الذى كتبت عليه المصاحف قد حظى بإقرار الرسول صلى الله عليه وسلم وإجماع الصحابة عليه - ورضا أئمة الصدر الأول - وهم خير هذه الأمة - عنه، واتفاق التابعين وأتباعهم والأئمة المجتهدين عليه ، فلا يجوز العدول عنه إلى غيره ، وخاصة وأنه أحد أركان القراءة الصحيحة » [٢] .

كما أن الادعاء بوقوع القارئين للقرآن فى حيرة وارتباك بسبب كتابة المصاحف على الرسم الموجود عليه الآن ، مردود عليه بالواقع المشاهد : وهو أن أشد الناس جهلاً وأصغر القارئين سناً يقرءون القرآن من المصحف برسمه ، ويكتبونه بهذا الرسم أيضاً دون مشقة تذكر أو بدرجة مشقة تعلم الكتابة بالخط الإملائى حيث توجد كثير من الكلمات تنطق بالألف وتكتب بالياء مثل : سعى ، رمى ، جرى ، هدى ، وهناك قواعد إملائية كثيرة لابد أن يعرفها من يتعلم العربية فالمشقة فى التعليم حاصلة إذن فى كلا الرسمين : رسم المصحف والرسم الإملائى ، فتكون حجة أولئك الطالبين بكتابة المصحف حسب القواعد الإملائية حجة داحضة ، وتكون دعوتهم دعوة باطلة.

فوائد رسم المصحف :

فضلاً عن كون رسم المصحف توقيفياً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعليه إجماع المسلمين من زمن الصحابة حتى يومنا هذا واستقرت عليه كتابة المصاحف فله كثير من الفوائد، وبه كثير من الأسرار البيانية نوجز بعضها فيما يلى :

أولاً : ذكر العلامة ابن المبارك عن شيخه العارف بالله عبد العزيز الرفعة .. رسم

---

(١) مناهل العرفان ص ٣٧٠ ، ٣٧١ .

(٢) تاريخ المصحف الشريف ص ٨٤ .

الواو بدل الألف فى نحو « الصلاة ، وأولئك ، والحياة ، ومشكاة » . وزيادة الواو فى « سأوريكم ، وأولئك ، وأولاء » .. وكالياء فى نحو «بأييكم، وبأييد » هو صادر من النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى أمر الكُتَّاب من الصحابة أن يكتبوه على هذه الهيئة . فما نقصوا ولازادوا على ما سمعوه من النبى صلى الله عليه وسلم ... ما للصحابة ولا لغيرهم فى رسم القرآن ولا شعرة واحدة وإنما هو توقيف من النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة .. لأسرار لا تهتدى إليها العقول ، وهو سر من الأسرار خص الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية . وكما أن نظم القرآن معجز فرسمه أيضاً معجز..

وكيف تهتدى العقول إلى سر زيادة الألف فى «مائة» دون «فئة» وإلى سر زيادة الياء فى «بأييد وبأييكم» ؟ أم كيف نتوصل إلى سر زيادة الألف فى « سعواْ » بالحج ونقصانها من «سَعَوْ» بسبأ ؟ وإلى سر زيادتها فى عتَواْ » حيث كان ونقصانها من «عتَوْ» فى الفرقان؟ .. وسر زيادتها فى «آمنوا» وإسقاطها من «باءو، جاءو ، تبوَّؤ ، فاءو» بالبقرة ؟ .. وإلى سر زيادتها فى «يعفوا الذى» ونقصها من «يعفو عنهم» فى النساء ؟ أم كيف تبلغ العقول إلى وجه حذف بعض أحرف من كلمات متشابهة دون بعض، كحذف الألف من « قرءانا » بيوسف والزخرف ، وإثباتها فى سائر المواضع؟ .. وإثبات الألف بعد واو «سموات» فى فصلت وحذفها من غيرها ، وإثبات الألف فى «الميعاد» مطلق، وحذفها من الموضع الذى فى الأنفال، وإثبات الألف فى «سراجًا» حيثما وقع، وحذفه من موضع الفرقان ؟ وكيف نتوصل إلى فتح بعض التاءات وربطها فى بعض؟ فكل ذلك لأسرار إلهية وأغراض نبوية [١] بتصرف

ثانيا : من المزايا والفوائد [٢] :

١ـ الدلالة على القراءات المتنوعة فى الكلمة الواحدة بحيث أن الكلمة إذا كان فيها قراءتان أو أكثر ، كتبت بصورة تحتمل هاتين القراءتين أو الأكثر، فإن كان الحرف الواحد لا يحتمل ذلك بأن كانت صورة الحرف تختلف باختلاف القراءات جاء

(١) مناهل العرفان ص ٣٧٥ - ٣٧٧

(٢) انظر الأمثلة بمناهل العرفان : ص ٣٦٦ - ٣٧٠

الرسم على الحرف الذى هو خلاف الأصل، وذلك ليعلم جواز القراءة به وبالحرف الذى هو خلاف الأصل ، وذلك ليعلم جواز القراءة به ، وبالحرف الذى هو الأصل.
ومثال الكلمة التى تكتب بصورة واحدة وتقرأ بوجوه متعددة قوله تعالى (إن هذان لساحران) رسمت بالمصحف العثمانى هكذا « إن هذان لساحران »

٢ - إفادة المعانى المختلفة بطريقة تكاد تكون ظاهرة ، وذلك نحو قطع [١] كلمة « أمْ » فى قوله تعالى « أمْ مَنْ يكون عليه وكيلاً » ووصلها فى قوله تعالى: « أمَنْ يمشى سويا على صراط مستقيم» فقطع (أم) الأولى فى الكتابة للدلالة على أنها (أم) المنقطعة التى بمعنى (بل) ووصل (أم) الثانية للدلالة على أنها ليست كتلك .

٣ - للدلالة على معنى خفى دقيق كزيادة الياء فى كتابة كلمة (أيد) من قوله تعالى « والسماء بنيناها بأييد » وذلك للإيماء إلى تعظيم قوة الله التى بنى بها السماء ، وأنها لا تشبهها قوة على حد القاعدة المشهورة وهى : زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى

* ومن هذا القبيل كتابة هذه الأفعال الأربعة بحذف الواو وهى :ويدعو الإنسان،

---

(١) «وقد جاءت من غير نقط ولا شكل ولا تشديد ولا تخفيف فى نونى (إن) و (هذان) ومجىء الرسم كما ترى كان صالحا عندهم لأن يُقرأ بالوجوه الأربعة التى وردت كلها بأسانيد صحيحة :(أولها) قراءة نافع ومن معه إذ يشددون نون (إن) ويخففون نون (هذان) بالألف = نافع ومن معه إذ يشددون نون (إن) ويخففون نون (هذان) بالألف.
(ثانيًا) قراءة ابن كثير وحده إذ يخفف النون فى (إن) ويشدد النون فى (هذان)
(ثالثًا) قراءة حفص إذ يخفف النون فى (إن) (وهذان) بالألف
(رابعًا) قراءة أبى عمر بتشديد (أن) ، وبالياء وتخفيف النون فى (هذين) فتدبر هذه الطريقة المثلى الضابطة لوجوه القراءة لتعلم أن سلفنا الصالح كان فى قواعد رسمه للمصحف أبعد منا نظراً وأهدى سبيلاً» اهـ مناهل العرفان ص ٣٦٦- ٣٦٧ جـ١

(بيوتا فرهين) القراء قرئ (فارهين) فمن قرأ بالألف أراد حذقهم بنحتها ومن قرأ بغير ألف أراد أشرهم وبطرهم ، وكان أشبه بالمعنى لقوله في الحجر (آمنين) لأن الأمن يليق بالبطر الأشر إذ لا يكون أشر وبطرمن الناس إلا فى حالة الأمن والعزة به ، و(فارهين) جائر من جهة التفسير لهم بالحذق في نحتها والأمن فيها على شركهم ...) متشابه القرآن ص٢٢٩.

ويمحو الله الباطل ، يوم يدعو الداعى ، سندعو الزبانية ، فإنها كتبت فى المصحف العثمانى[١] هكذا :

ويدع الإنسان ، ويمح الله الباطل ، يوم يدع الداع ، سندع الزبانية ، ولكن من غير نقط ولا شكل فى الجميع .

قالوا : والسر فى حذفها من « ويدع الإنسان » هو الدلالة على أن هذا الدعاء سهل على الإنسان يسارع فيه كما يسارع إلى الخير ! بل إثبات الشر إليه من جهة ذاته أقرب إليه من الخير . والسر فى حذفها من « ويمح الله الباطل » الإشارة إلى سرعة ذهابه واضمحلاله .

والسر فى حذفها من « يوم يدع الداع » الإشارة إلى سرعة الدعاء ، وسرعة إجابة الداعين ، والسر فى حذفها من « سندع الزبانيه » الإشارة إلى سرعة الفعل وإجابة الزبانية وقوة البطش ! ويجمع هذه الأسرار قول المراكشي : «والسر فى حذفها من هذه الأربعة سرعة وقوع الفعل وسهولته على الفاعل وشدة قبول الفعل التأثر به فى الوجود » اهـ .

٤ ـ للدلالة على أصل الحركة نحو الصلاة والزكاة ، إذ كتبتا هكذا الصلوة ، والزكوة ليفهم أن الألف فيهما منقلب عن واو (من غير نقط ولا شكل كما سبق »

٥ - إفادة بعض اللغات الفصيحة ، مثل كتابة هاء التأنيث تاء مفتوحة دلالة على لغة طيىء ومثل قوله سبحانه : « يوم يأتى لا تكلم نفس إلا بإذنه » كتبت بحذف الياء هكذا « يأت » للدلالة على لغة هذيل »

٦ - حمل الناس على أن يتلقوا القرآن من صدور ثقات الرجال ويدفعهم إلى ذلك مشقة قراءة القرآن المكتوب بالرسم العثمانى بمفردهم ، فإذا ما تلقوا القرآن مشافهة عن الحفظة يحصل لهم إتقان تلاوة القرآن وتجويده ، فإن ذلك لا يمكن أن يعرف على وجه الصواب من القراءة فى المصحف مباشرة دون التلقى عن قارئ

---

(١) عند قولنا كُتبت فى المصحف العثمانى فإننا نعنى بالضرورة ،وجوها مكتوبة بذلك الرسم توقيفاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصحف النبوية وإنما نقول فى المصحف العثمانى لأنه هو المصحف الإمام الموجود بين أيدينا.

متقن . ولهذا قرر العلماء أنه لا يجوز التعويل على المصاحف وحدها فى تعلم تلاوة القرآن وترتيله ، ولا بد من الأخذ على حافظ ثقة . وبذلك أيضًا تتحقق ميزة التواتر فى تلقى القرآن وحفظه من حافظ عن حافظ عن حافظ إلى أن تصل سلسلة التلقى مشافهة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبذلك يصبح كافة المسلمين الذين يقرءون القرآن متصلين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن هذا واقعًا إلا بسبب ذلك الرسم للقرآن الكريم . وهذا سر عظيم يجب الوقوف عنده طويلاً لاستيعاب جوانب العظمة فيه ... وبعد .. فهذا مختصر لمزايا الرسم العثمانى للقرآن الكريم وأقوال العلماء بضرورة التمسك بكتابة القرآن . بالرسم الذى عليه الآن ، وحتى يتوقف المبطلون عن قولهم الإثم ومطالبتهم بالقواعد الإملائية لكتابة القرآن الكريم ، لتنازعه الأهواء فى رسمه وفى نظمه ولكن هيهات لهم ، وخابت مخططاتهم للنيل من كتاب الله ، فهو قرآن كريم فى كتاب مكنون ، و الله من ورائهم محيط .

الموضوع السابع : مابعد المصحف العثمانى

استمرت عناية المسلمين بالقرآن الكريم فى كل العصور ، فبعد أن أصبح مدونًا فى المصحف ومحفوظًا فى الصدور أراد الله سبحانه وتعالى لكتابه العزيز أن يصان من العجمة والجهالة وسوء التلاوة ، فهيأ له من أفاضل المسلمين من اهتموا بذلك العمل الجليل ، وتمثل ذلك فى اختيار الحركات أى (التشكيل) ، وفى اختيار الإعجام أى (تنقيط الحروف) . وذلك بجانب بعض الأعمال الأخرى ، ونبين ذلك فيما يلى :

أولاً : الحركات (التشكيل) :

كان العرب على درجة من الفصاحة الفطرية بحيث إنهم لم يكونوا فى حاجة إلى تشكيل الكلمات أو تنقيطها ، لدرجة أن المكتوب إليهم كانوا يعدون ذلك تجهيلاً لهم ، إذ قال بعضهم « شكلُ الكتاب سوء ظن بالمكتوب إليه » وقد كانت كتابة القرآن الكريم خالية من التشكيل أو التنقيط فى الصحف النبوية وصحف أبى بكر ومصحف عثمان ، فيما عرف بالرسم العثمانى لحكمة أرادها الله بكتابه العزيز

تمثلت فى استيعاب الكتابة بدون تنقيط أو تشكيل لأن تكون الكلمات القرآنية مفردة بعدة أوجه وهو مايسمى بالأحرف السبعة التى قرأ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما كثر اللحن فى الكلام لاختلاط العرب بالأعاجم ، وبسبب دخول الأعاجم فى الإسلام وذلك فى صدر الإسلام ، وخاف المسلمون على القرآن من لحن القراءة ، كتب أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه إلى زياد بن أبيه وكان والياً على البصرة يحذره من ظهور اللحن فى لسان العرب وإفساد الأعاجم للغة العربية، وكان ذلك يقتضى بالضرورة صيانة القرآن من اللحن وفساد اللسان ، ولهذا فقد أمر زياد بن أبيه أبا الأسود الدؤلى بتشكيل القرآن الكريم حفظًا من اللحن وسوء التلاوة . وبذلك يكون أبو الأسود الدؤلى أول من وضع الحركات على الكلمات القرآنية ، وذلك على الشهود وكان ذلك عام تسعة وستين هجرية «وكانت الحركات إذ ذاك نقاطًا يميزون بها بين الضم والفتح والكسر : فكانت النقطة فوق الحرف دليلاً على الفتح وإلى جانبه دليلاً على الضم وتحته دليلاً على الكسر» [١] . وفى حالة التنوين توضع نقطتان بدلاً من النقطة الواحدة ».

«وفى العصر العباسى ظهر إمام النحو الخليل بن أحمد البصرى ، فأخذ نقط أبى الأسود وحور فيه ، فجعل الضمة واواً صغيرة تكتب فوق الحرف ، والفتحة ألفًا صغيرة مبطوحة والكسرة ياء . ثم وضع علامة للشدة رأس شين وللسكون رأس خاء، وعلامة للمد وأخرى للروم والإشمام وهكذا .

ثم إن هذه العلامات دخل عليها شئ من الاختزال والتحسين حتى آلت إلى ماهى عليه الآن» [٢].

ومن هذا يتبين أن (الحركات) كانت منفعتها عظيمة فى الإبقاء على لغة القرآن سليمة من كل لحن، والإبقاء على تلاوة القرآن صحيحة ، ولم يكن القصد من هذه الحركات هو تبسيط قراءة القرآن فحسب ، ولم تكن خروجاً على قواعد الخط القرآنى

---

(١) تاريخ الكتاب الإسلامى ص ٩٣

(٢) تاريخ المصحف الشريف ص ٧٦

بل كانت ضبطا لمخارج الحروف، (فالحركات) إذن كان شأنها عظيم فى حفظ القرآن من اللحن

ثانيًا : الإعجام (التنقيط)[١]:

«والإعجام أو نقط الحروف هو لتمييز الحروف المتشابهة بالرسم بوضع علامة عليها لمنع اللبس وقد تم ذلك فى الثلث الأخير من القرن الأول الهجرى أى فى زمن خلافة عبدالملك بن مروان ، فقد حدث أن الكتابة قبل هذا الزمن فى صدر الإسلام كانت خالية من الإعجام».

وعلى القول الراجح فإن من اخترع الإعجام هما « نصر بن عاصم ، ويحيى ابن يعمر ، وذلك أنه لما كثر الداخلون فى الإسلام من الأعاجم كثر التصحيف فى لغة العرب ، وانتشر على كثير من الأفواه ، فخيف على القرآن أن تمتد إليه يد هذا (الفساد) ، فأمر أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان ، الحجاج بن يوسف الثقفى وكان واليًا من قِبَله على العراق . أن يعمل جاهداً على إبعاد أسباب التحريف عن ساحة القرآن ، فندب الحجاج لهذه المهمة : نصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر ، وكانا من علماء الإسلام المبرزين فى اللغة العربية وأسرارها ، وفنون القراءات وتوجيهها ، فلم يجدا بدا من إجابة ماندبهما إليه الحجاج ، لما فى ذلك من المصلحة العامة والمحافظة على كتاب الله تعالى ، ثم أخذا فى التنفيذ فوضعا هذا النوع من النقط لتمييز الحروف بعضها عن بعض ليضمن بذلك سلامة القرآن من اللحن والتحريف»[٢].

وكان الغرض من وضع النقط على الحروف للدلالة على ذوات الحروف والتمييز بين معجمها ومهملها كالنقطة الموضوعة على الباء من أسفلها والنون من أعلاها ، والجيم فى وسطها وعلى الزاى، والنقطتين على التاء من أعلاها..

ولقد كان لهذا العمل المجيد وهو إعجام المصحف بجانب تشكيله ، أجل النفع فى حفظ كتاب الله ووقايته من أسباب اللحن والتحريف.

---

(١) أصبح فيما بعد استخدام النقط للإعجام ، واستبدال النقط التى اخترعها أبو الأسود الدؤلى للتشكيل ، بالأحرف الصغيرة التى ذكرناها سابقا ، وقد قام بذلك الخليل بن أحمد.

(٢) تاريخ المصحف الشريف ص ٧٥ ، ٧٦ .

وعندما اتجه المسلمون إلى إعجام المصحف وتشكيله بتوجيهات من أمير المؤمنين معاوية ، ومن بعده أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان ، كان من المفيد أن يعمم ذلك فى المصاحف التى كثر استنساخها ، وعم انتشارها بالأمصار ، وحتى يجتمع المسلمون على كتاب الله بشكل موحد ، وتتحقق الفائدة لكافة المسلمين فى تجنب اللحن وسوء التلاوة ، وذلك بعد أن عم النفع باستخدام المصاحف العثمانية بما فى ذلك الانضباط فى القراءات ، وبعد أن أصبحت كتابة المصاحف بعد تشكيلها وإعجامها بمثابة امتداد للرسم العثمانى الذى هو امتداد للرسم فى صحف أبى بكر ، الذى هو امتداد للرسم بالصحف النبوية مع الإيضاح بالتشكيل والتنقيط ليزيد الرسم وضوحًا ، وتزيد التلاوة إتقانًا بين أولئك الذين تفشت بينهم العجمة ، وتباعدوا عن اللسان العربى المبين . وحتى تعم الفائدة من التشكيل والإعجام ، كان من الضرورى أن تستبدل المصاحف الخالية منها بمصاحف تشتمل عليها ، ولهذا دعا الحجاج بن يوسف الثقفى المسلمين فى سائر الأقطار الإسلامية بأن يجمعوا مالديهم من المصاحف ويستنسخوا بدلاً عنها مصاحف مشكلة ومعجمة . ومن العجيب والمؤسف أن يتورط بعض المشتغلين بدراسة علوم القرآن ، فيجعلون من دعوة الحجاج إلى جمع المصاحف واستبدالها بأخرى مشكلة ومعجمة ، اتهامًا بالتزييف والتحريف فى كتاب الله [١] وقد انساقوا فيما تورطوا فيه وراء روايات باطلة وأخبار مدسوسة وضعها أعداء الإسلام من الشعوبيين وغيرهم ممن تآمروا على التاريخ الإسلامى والذى فعله الحجاج بن يوسف الثقفى كان خدمة للقرآن بعد أن باشر مهمة إعجامه بتكليفه للعالمين الفاضلين : نصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر . وقد سبقه إلى هذا العمل الجليل عثمان رضى الله عنه عندما أمر بإحراق الصحائف التى كانت لدى بعض الصحابة والاستعاضة عنها بالمصاحف المعتمدة ، كما ذكرنا سابقًا .

---

(١) لقد تمادى خصوم الإسلام منذ بدء الإسلام فى تزييف التاريخ الإسلامى إلى حد قلبوا فيه الحقائق رأسًا على عقب ، ومن الأمثلة الصارخة تزييفهم واقعة استبدال المصاحف التى دعا إليها الحجاج بن يوسف الثقفى أهل الأمصار كما ذكرنا آنفاً ، حيث جاءت رواياتهم بعيدة كل البعد عن الحقيقة ، ومنها قولهم « لما قام الحجاج بنصرة بنى أمية لم يُبق مصحفاً واحداً إلا جمعه وأسقط أشياء كثيرة كانت قد نزلت فيهم ، وزاد فيه أشياء ليست منه ، وكتب ستة مصاحف جديدة بتأليف ما أراده ووجه بها إلى مصر والشام ومكة والمدينة والبصرة والكوفه وهى القرآن المتداول اليوم ، وعمد إلى المصاحف المتقدمة فلم يُبق منها نسخة إلا أغلى لها الخل وطرحها فيه حتى تقطعت» (مناهل =

ثالثًا : تجزئة المصحف : أى جعله أجزاء :

كانت المصاحف العثمانية خالية من التجزئة . وقامت طائفة من العلماء بتقسيم القرآن ثلاثين قسمًا ، وأطلقت على كل قسم اسم (الجزء) ، وقسمت الجزء إلى (حزبين) ، وقسمت الحزب إلى أربعة أجزاء ، وأطلقت على كل جزء منها اسم (الربع).

« ومن كُتَّاب المصاحف فى الصدر الأول من كان يضع ثلاث نقط على آخر كل فاصلة ، إعلاما بانقضاء الآية ، ويكتب لفظ « خمس » عند انقضاء خمس آيات من السورة ، ويكتب لفظ « عشر » عند انقضاء عشر آيات منها ، فإذا انقضى خمس أخرى أعاد كتابة لفظ « خمس » فإذا صارت عشر أعاد كتابة لفظ « عشر » ولا يزال هكذا إلى آخر السورة . ومنهم من كان يضع مكان لفظ « خمس » رأس الخاء ، ومكان لفظ « عشر » رأس العين اختصاراً ومنهم من كان يكتب اسم السورة وكونها مكية أو مدنية ، ويكتب عدد آياتها فى آخرها . وقد اختلف العلماء فى ذلك كله، فأجازه قوم بكراهة ، وآخرون بلا كراهة ، وهذا هو الراجح لما فى ذلك من تنشيط القارئ وحفز همته على الإقبال على القراءة والله تعالى أعلم »[1] .

= العرفان ٢٥٧ - ٢٥٨) ومثل هذه المزاعم الباطلة بجانب أنها عارية من الصحة فإنها تمثل نموذجاً من قلب الوقائع التاريخية وجعلها بمفهوم مخالف للمفهوم الحقيقى ولقد رد عليهم صاحب مناهل العرفان، وفيما قاله « وأما احتجاجهم السابع بما نسبوه إلى الحجاج ، فهى نسبة كاذبة لا برهان لهم بها ، ولا دليل عليها وها هو التاريخ ، فليأتوا لنا منه بسلطان مبين على أن الحجاج جمع المصاحف فضلاً عن أنه نقص منها أو زاد فيها . ولو أنه فعل ذلك لنقل إلينا متواتراً لأن هذا مما تتوافر الدواعى على نقله وتواتره ! وكيف يفعل ذلك ، والأمة كلها تقره ، وأئمة الدين الموجودين فى عهده كالحسن البصرى يسكتون ولا ينكرون، ولا يدافعون ولا يستقتلون ؟

وإذا كان الحجاج قد استطاع التحكم فى المصاحف ، والتلاعب بها بالزيادة والنقص ، فكيف استطاع الحجاج أن يتحكم فى قلوب الحفاظ وهم آلاف مؤلفة فى ذلك العهد ، حتى يمحو ماشاء ويثبت ما أراد ؟!

هذه دعاوى ساقطة تحمل أدلة سقوطها فى ألفاظها وتدل على جرأة القوم وإغراقهم فى الجهل والضلال » (مناهل العرفان ص ٢٦٦ - ٢٦٧).

(١) تاريخ المصحف الشريف ص٧٨

الفصل الثالث

ترتيب آيات القرآن وترتيب سوره
والمناسبات بين الآيات والمناسبات بين السور

من المقطوع به بإجماع العلماء فى كافة العصور أن ترتيب آيات القرآن الكريم ونظمها بالسور توقيفى ، بيَّنه النبى ﷺ وأمر به ، وقد ذكرنا ذلك فى المباحث التى تناولت تنزل القرآن وكتابته ، كما أنه من المعلوم لدى العلماء أن ذلك الترتيب التوقيفى قد ظهرت حكمته واضحة فى المناسبات التى تربط بين السور وبعضها ، وبين الآيات فى داخل السور « وقد توفر على الكشف عن هذه المناسبات عدد من العلماء لأن ذلك يحتاج إلى دقة نظر وإدراك نافذ لسر التعبير القرآنى حتى يدرك مراميه ويقف على غاياته » (١)

ومما قاله الإمام فخر الدين الرازى فى هذا الصدد « أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط »

ونبسط الحديث عن هذه الموضوعات بعون الله وتوفيقه فى المباحث التالية :

---

(١) دراسات قرآنية ص ٣٧ .

المبحث الأول
ترتيب آيات القرآن وسوره

الموضوع الأول : ترتيب آيات القرآن

معنى الآية:

تطلق في اللغة على :

١- المعجزة : كما في قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١] أى معجزة واضحة .

٢- العلامة : كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨] أى علامة ملكه.

٣- العبرة: كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ [الشعراء:١٠٣] أى عبرة.

٤- البرهان : كما فى قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢] أى من براهين وجود الله.

المعنى الاصطلاحى :خصت الآية فى الاصطلاح « بأنها طائفة من الكلمات ذات مطلع ومقطع مندرجة فى سورة من القرآن »

وتوجد مناسبات كثيرة بين المعنى الاصطلاحى والمعنى اللغوى: فالآية القرآنية معجزة ، وهى علامة على صدق من جاء بها ﷺ ، وفيها عبرة لمن أراد أن يعتبر .

وقد تطلق الآية القرآنية ويراد بعضها أو أكثر ولكن على ضرب من المجاز ... وتنتهى الآية (بالفاصلة) وهى آخر كلمة فى الآية « وماثبت أنه ﷺ وقف عليه دائمًا تحققنا أنه فاصلة » (١).

(١) المحرر الوجيز ص ٣٣ .

معرفة الآية :

لقد تحددت الآيات بتوقيف من الشارع سبحانه وتعالى : علمناها أم جهلناها ، ففى معرفتها توسعة ، وليس فى جهالتها مايمس القرآن بسوء . «ولا سبيل إلى معرفة آيات القرآن إلا بتوقيف من الشارع ، لأنه ليس للقياس والرأى مجال فيها ، إنما هو محض تعليم وإرشاد » [١].

وتقسيم السورة إلى آيات أو بمعنى ،آخر تألف السورة من آيات ، أمر مقطوع به بنص الأحاديث النبوية ، غير أن الإحاطة بمطلعها ومقطعها توقيفًا عن رسول الله ﷺ لم تكن فى درجة حفظها وإتقان تلاوتها ، لهذا كانت هناك اجتهادات فى معرفتها ، وحدث اختلاف فى إجمالى عدد الآيات.

ومن أدلة تألف السور من آيات ماجاء فى الأحاديث النبوية :

- أخرج الخمسة إلاَّ النسائى عن أبى مسعود البدرى أنه قال : قال رسول الله ﷺ: « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه »
- وأخرج الإمام أحمد فى مسنده عن ابن مسعود قال : أقرأنى عن رسول الله ﷺ سورة من الثلاثين من آل حَم ، قال : يعنى الأحقاف ، لأن السور إذا كانت أكثر من ثلاثين آية سميت الثلاثين .
- وأخرج الترمذى والحاكم عن أبى هريرة ، أنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن لكل شىء سنامًا ، وإن سنام القرآن سورة البقرة ، وفيها آية هى سيدة آى القرآن : آية الكرسى »

ومن كُتَّاب المصاحف من الصدر الأول من كان يضع ثلاث نقاط على كل فاصلة من فواصل الآيات ، إعلامًا بانقضاء الآية

وكما قلنا من قبل إن عدم الإحاطة بمطالع ومقاطع بعض الآيات ترتب عليه تباين فى وجهات نظر العلماء ، مما لايمس القرآن الكريم ولا يؤدى إلى زيادة أو نقصان فيه .

(١) مناهل العرفان ص ٣٣٣.

فمثلا : عد الكوفيون بعض فواتح السور آية مثل « الٓمٓصٓ » « يٓسٓ » وغير الكوفيين لا يعتبرون شيئا من الفواتح آية إطلاقًا »[١] .

وقد اجتهد العلماء فى معرفة الفاصلة وهى الكلمة التى تكون آخر الآية والتى وقف عليها رسول الله ﷺ لتكون حدوداً للآيات، فما ثبت أن النبى ﷺ وقف عليه دائماً تحققوا أنه فاصلة وما وصله دائما تحققوا أنه ليس فاصلة .. إلى آخر تلك الاجتهادات التى تقوم أساسًا على السماعى التوقيفى .

وقد يلاحظ أحيانًا فى الكلمة الواحدة من القرآن أمران ، يقتضى أحدهما عدَّها من الفواصل ، والآخر يقتضى خلاف ذلك ، مثال ذلك : كلمة « عليهم » الأولى فى سورة الفاتحة ، منهم من يعتبرها رأس آية ومنهم من لا يراها كذلك . وسبب ذلك أنهم اختلفوا فى البسملة أهى آية من الفاتحة أم لا ؟ مع اتفاقهم على أن عدد آيات الفاتحة سبع فمن عدها لم يعد (عليهم) الأولى ومن لم يعدها عد عليهم الأولى، وبهذا يكون عدد آيات الفاتحة سبع آيات على كلا الأمرين

عدد آيات القرآن الكريم :

لقد انعكس الاجتهاد فى معرفة فواصل الآيات القائم أساسًا على السماعى التوقيفى إلى الاختلاف فى عدد آيات القرآن الكريم ، وليس معنى ذلك اختلاف فى حجم القرآن كما يتوهم من يجهلون علوم القرآن ، ولكنه مجرد تباين فى عدد الآيات القرآنية بسبب الاجتهاد فى بعض الفواصل ، ولا يترتب على ذلك أى زيادة أو نقصان فى القرآن الكريم .

وسبب الاختلاف : « أن النبى ﷺ كان يقف على رءوس الآى تعليمًا لأصحابه أنها رءوس آيات ، حتى إذا علموا ذلك وصل ﷺ الآية بما بعدها طلبًا لتمام المعنى ، فيظن بعض الصحابة أن ماوقف عليه النبى ﷺ ليس فاصلة ، فيصلها بما بعدها معتبراً أن الجميع آية واحدة ، والبعض يعتبرها آية مستقلة فلا يصلها بما بعدها وقد علمت أن الخطب فى ذلك سهل ، لأنه لا يترتب عليه فى القرآن زيادة أو نقصان »[٢]ومن هذا يتبين أن الاختلاف راجع إلى الاجتهاد فى فهم التوقيف فى

---

(١) مناهل العرفان ص ٣٣٣.

(٢) مناهل العرفان ص ٣٣٧.

تلاوة الرسول ﷺ(١) .

- وقد ورد فى عدد آيات القرآن الكريم أكثر من قول ، وقال صاحب التبيان ما نصه : وأما عدد آى القرآن فقد اتفق العادُّون على أنه ستة آلاف ومئتان آية وكسر، إلاَّ أن هذا الكسر يختلف مبلغه باختلاف أعدادهم :

ففى عدد المدنى الأول سبع عشرة ، وبه قال نافع

وفى عدد المدنى الأخير أربع عشرة عند شيبة وعشر عند أبى جعفر

وفى عدد المكى عشرون

وفى عدد الكوفى ستة وثلاثون وهو مروى عن حمزة الزيات

وفى عدد البصرى خمس ، وهو مروى عن عاصم الجحدرى ، وفى رواية عنه أربع، وبه قال أيوب بن المتوكل البصرى ، وفى رواية عن البصريين أنهم قالوا : تسع

---

(١) ومن المعلوم أن هناك خلافاً بين العلماء فى عدد آيات القرآن وكلماته وحروفه كما ذكر فى الإتقان للسيوطى وغيره من كتب علوم القرآن .... نبين هنا سبب اختلاف العلماء فى عدد الآى ، والكلم ، والحروف لئلا يتوهم أن ذلك لأجل زيادة فى القرآن أو نقص منه فيحتج إليه الذى فى قلبه مرض.

فسبب الاختلاف فى الآى أن النبى ﷺ كان يقف على رءوس الآي للتوقيف ، فإذا عُلم محلها وصل للأصالة والتمام وهناك آيات وقف عليها الرسول دائمًا ولم يصلها فهى معدودة بالاتفاق لا يقع فيها خلاف ، وهناك مواضع وصلها الرسول ﷺ دائمًا ولم يقف عليها فهى متروكة من العدد بالاتفاق وهناك مواقع وقف عليها مرة ووصلها أخرى وهذا محط اختلاف وسبب اجتهادهم .

وسبب الاختلاف فى الكلمة ، أن الكلمة قد تطلق ويراد بها اللفظ المفرد ، وتطلق و يراد بها جملة كقوله تعالى (كلا إنها كلمة هو قائلها) أطلق الكلمة وأراد بها الجملة التى يقولها الكافر يوم القيامة وهى (رب ارجعون) .

وأيضًا الكلمة لها رسم ولفظ ، فكل من العلماء اعتبر أحد هذه الاحتمالات ... نحو (لنجيبنكم) ثلاث كلمات لفظاً وكلمة رسماً ..

وسبب الاختلاف فى الحروف أن كل حرف مشدد حرفان فى الأصل ، وحرف واحد فى اللفظ والرسم ، وبعض الحروف يثبت فى الأحرف السبعة دون البعض نحو (سارعوا إلى مغفرة) ، وبعض الحروف ثابت لفظًا لا رسمًا نحو (ملك يوم الدين) وبعضها رسماً لا لفظاً مثل (أولو قوة) . فاعتبر كل واحد منهم جهة من الجهات الجائزة فزاد بذلك أو نقص .

وهذا يدل على عناية الصحابة والتابعين والسلف الصالح رضى الله عنهم بالقرآن الكريم ،وذلك بالمحافظة عليه آية آية وكلمة كلمة وحرفاً حرفاً ، وصدق الله العظيم إذ يقول (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) اهـ (المحرر الوجيز ص ٢٩ ، ٣٠) .

عشرة ، وروى ذلك عن قتادة .

وفى عدد الشامى ست وعشرون وهو مروى عن يحيى بن الحارث الزمارى ».

ترتيب آيات القرآن توقيفى:

انعقد إجماع الأمة على أن ترتيب آيات القرآن الكريم على هذا النمط الذى نراه اليوم بالمصاحف كان بتوقيف من النبى ﷺ ، عن الله تعالى ، ولا يحق لأحد أن يغير آية من آيات القرآن عن وضعها فى المصحف بتقديم أو تأخير .

خطوات الترتيب التوقيفى لآى القرآن الكريم :

١- كان جبريل عليه السلام ينزل بالآيات مفرقة على الرسول ﷺ ويرشده إلى موضع كل آية من سورتها .

٢- يأمر النبى ﷺ من لديه من كُتَّاب الوحى بكتابة ما تنزل من الآيات ، وكان يمليها عليهم ويعين لهم السورة التى تكون فيها الآية أو الآيات وموضعها من باقى الآيات .

٣- كان رسول الله ﷺ يعارض جبريل بالقرآن كل عام مرة ، وعارضه به مرتين فى العام الذى انتقل فيه صلوات الله وسلامه عليه إلى الرفيق الأعلى .

وكانت تلاوة الرسول ﷺ للقرآن ، ومعارضة جبريل تتم بما استقر عليه الإلحاق والترتيب لآيات القرآن الكريم ، وانتهى إليه التدوين بصحف النبى ﷺ ، ثم فى صحف أبى بكر رضى الله عنه ، وأخيراً بالمصحف العثمانى ثم انتقل بالتواتر استظهاراً وكتابة إلى كافة العصور حتى يومنا هذا .

٤- كل من حفظ القرآن أو شيئاً منه من صحابة رسول الله ﷺ ، كان يحفظه مرتب الآيات كما سمعه من رسول الله ﷺ ، وتفشى هذا الترتيب واستقر بين الصحابة رضى الله عنهم وهم يتلون القرآن فى صلواتهم ، ومدارساتهم ، وقراءاتهم آناء الليل وأطراف النهار .

ومما سبق بيانه عن خطوات الترتيب لآى القرآن الكريم والتواتر ، فقد أصبح معلوماً بالضرورة أن ترتيب آيات القرآن الكريم توقيفى عن رسول الله ﷺ وهو عن

جبريل عليه السلام عن رب العزة سبحانه وتعالى ، فالقرآن الكريم بالترتيب الذى بين أيدينا الآن هو ترتيب توقيفى من عند الله سبحانه وتعالى .

أدلة على أن الترتيب توقيفى :

أولاً : ما رواه الإمام أحمد بإسناد حسن عن عثمان بن أبى العاص قال : كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذ شخص ببصره ثم صوبه ، ثم قال : « أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية هذا الموضع من السورة : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠] فهذا الحديث صريح فى أن جبريل علّمه موضع هذه الآية .

ثانياً : ما ثبت فى السنن الصحيحة من قراءة النبى ﷺ بسور من القرآن كسورة البقرة وآل عمران والنساء ، والأعراف فى صلاة المغرب ، وقد أفلح المؤمنون وسورة الروم فى صلاة الصبح ، وقراءة سورة السجدة فى صبح يوم الجمعة ، وقراءة سورة المنافقون والجمعة فى صلاة الجمعة ، وقراءة سورة اقتربت الساعة ، و ق ، فى صلاة العيد . كما أن ما كان صلوات الله وسلامه عليه يقرؤه فى الصلوات من السور والآيات ، قد عرف عنه الكثير فى صفة صلاته ﷺ [1] ومنها أنه ﷺ كان يقرأ :

فى صلاة الفجر : بطوال المفصل ، وكان يقرأ الواقعة ، والطور والروم... إلخ .

وفى صلاة الظهر: والسماء والطارق ، والسماء ذات البروج ، والليل إذا يغشى.. إلخ.

وفى صلاة المغرب : الطور - الأنفال ... إلخ

وفى صلاة العشاء : والشمس وضحاها ، إذا السماء انشقت ، والتين والزيتون .

وكان صلوات الله وسلامه عليه يقرأ ذلك كله مرتب الآيات على النحو الذى فى المصاحف الآن على مسمع من الصحابة رضى الله عنهم .

ثالثًا : وللعلماء أقوال عن الترتيب التوقيفى لآيات القرآن الكريم :

---

(١) انظر كتاب : صفة صلاة النبىﷺ : ما كان يقرؤه ﷺ فى الصلوات ص ٧٩ - ٨٦ .

١- يقول السيوطى فى الإتقان : روى عن ابن وهب قال : إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعون من النبى ﷺ .

٢- وقال البغوى فى شرح السنة : إن الصحابة رضى الله عنهم جمعوا بين الدفتين القرآن الذى أنزله الله على رسوله خوف ذهاب بعضه بذهاب حفظته ، فكتبوه كما سمعوه من رسول الله ﷺ من غير أن قدموا شيئاً أو أخروا شيئاً أو وضعوا له ترتيبًا لم يأخذوه عن رسول الله ﷺ . وكان رسول الله ﷺ يلقن أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذى هو عليه الآن فى المصاحف بتوقيف جبريل إياه على ذلك ، وإعلامه عند نزول كل آية أن هذه الآية تكتب عقب آية كذا فى سورة كذا ، فثبت أن سعى الصحابة كان فى جمعه فى موضع واحد لا فى ترتيبه فإن القرآن مكتوب فى اللوح المحفوظ على هذا الترتيب أنزله الله جملة إلى السماء الدنيا ، ثم كان ينزله مفرقاً عند الحاجة ، وترتيب النزول غير ترتيب التلاوة الذى أصبح عليه القرآن واستقر عليه .

٣- وقال ابن الحصار : ترتيب السور ووضع الآيات فى موضعها إنما كان بالوحى، كان رسول الله ﷺ يقول : ضعوا آية كذا فى موضع كذا ، وقد حصل اليقين من النقل التواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله ﷺ ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا فى المصحف .

٤- وقال القاضى أبو بكر فى الانتصار : ترتيب الآيات أمر لازم وحكم واجب فقد كان جبريل يقول : ضعوا آية كذا فى موضع كذا .

إلحاق الآيات القرآنية :

من المقطوع به أن القرآن تنزل مفرقًا ، وكان الرسول ﷺ يأمر كُتَّاب الوحى عند التدوين ساعة تنزل الآيات بأن يلحقوا بعضها ببعض داخل السور ، فيقول لهم صلوات الله وسلامه عليه « ضعوا آية كذا فى موضع كذا .. » [١] .

وكان ترتيب الآيات أحياناً - غير متمشٍ مع ترتيب تنزلها وذلك بالإلحاق الذى

---

(١) تاريخ المصحف الشريف ص ١١٨ .

كان يأمر به النبى ﷺ : فقد أمر رسول الله ﷺ بإلحاق بعض آيات مدنية بسور مكية ، وبعض آيات مكية بسور مدنية . ومن الشواهد على ذلك :[1]

١- إلحاق قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] الآيات الثلاثة ١٥١، ١٥٢ ، ١٥٣ وهى مدنية ، بسورة الأنعام وهى سورة مكية.

٢- إلحاق قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤] الآية ٥٤ وهى مدنية ، بسورة الزخرف وهى مكية .

٣- إلحاق قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦] الآيات الثلاثة ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ وهى مدنية ، بسورة النحل وهى مكية .

٤- إلحاق قوله تعالى ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١] الآيات من ٣١ - ٣٦ وهى مكية ، بسورة الأنفال وهى سورة مدنية .

٥- إلحاق قوله تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] ١٢٨ ، ١٢٩ وهما مكيتان ، بسورة التوبة وهى مدنية .

ومما سبق يتبين لنا وجود إلحاق للآيات فى بعض الأحيان بسور بترتيب لا يتمشى مع ترتيب تنزلها ، ولكن فى الأعم كانت آيات السورة الواحدة متلاحقة ومرتبة فى تنزلها إلى أن تستكمل السورة ، وترتب على ذلك وجود ترتيب للسور حسب النزول، ولم يكن ذلك ممكنًا لولا نزول آيات السورة متعاقبة إلى نهاية السورة . ولو كانت الآيات تتنزل فى وقت واحد لعدة سور دون استكمالها لما أمكن أن يصبح للسور ترتيب حسب النزول .

(١) انظر المصحف الشريف .

عظمة إلحاق الآيات ولطائف:

سرعان ما يدرك المتدبرون للقرآن الكريم والمتأملون فى إعجاز نظمه المتعدد الجوانب فى كل جزئية من جزئيات صياغته ، أن إلحاق الآيات القرآنية بالأسلوب الذى تم به ، يمثل أحد جوانب إعجاز النظم ،فقد قام إلحاق الآيات القرآنية بعضها ببعض شاهداً على عظمة ارتباط آى القرآن الكريم حتى تكون فى مجموعها منتظمة المبانى ، منسقة المعانى .

ويضاعف من عظمة الإلحاق مجيؤه بأمر النبى ﷺ عقب تنزل الآيات ودون تمهل أو سابق تفكير وإعداد ، بل يقول صلوات الله وسلامه للكُتّاب عقب انصراف الوحى كما ثبت فى السنن « ضعوا آية كذا فى موضع كذا » ويأتى الإلحاق فى موضعه المناسب بكل دقة وتناسق ، رغم ضخامة القرآن ، وكثرة آياته وسوره وتعدد أغراضه، ودقة صياغته ، ورغم التباعد الزمنى بين تنزل الآيات التى يُلحق بعضها ببعض ، وقد يكون التباعد كبيراً جداً كتباعد المدنى عن المكى .

ويصبح الإلحاق مدعاة إلى الإيمان والتصديق بمعجزة القرآن عندما نعلم أن إلحاق الآيات كان وحياً بإعلام جبريل عليه السلام للرسول ﷺ ، ليكون القرآن الكريم فى النهاية - رغم تنزله آيات مفرقة - كتاباً أحكمت آياته .. متشابهاً لا تنافر ولا تفكك فيه وصدق الله العظيم القائل فى محكم التنزيل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

هذه هى عظمة الإلحاق التى أردنا أن ننبه إليها ، حتى لا يمر عليها الدارسون مر الكرام ، أو يغفلون عنها حين دراستهم لنظم القرآن وترتيب السور والآيات وما بينها من مناسبات .

ونقدم جملة من الأمثلة كشواهد على عظمة إلحاق الآيات القرآنية وذلك فيما يلى(١):

(١) يلاحظ أننا فى الأمثلة ، نضع الآية أو الآيات الملحقة بين قوسين ونجعل الآيات الملحقة بين آية سابقة وآية لاحقة من السور التى ألحقت بها الآية أو الآيات .

أولاً : من سورة يونس [سورة مكية آياتها ١٠٩ ، والآية الملحقة (٤٠) مدنية]: قال تعالى ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٣٩-٤١].

وانظر الإلحاق أيضاً للآيات ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ - وهى آيات مدنية .

لطائف فى المثال :

١- لو أن إلحاق الآية (٤٠) لم يحدث ، وأصبحت الآية (٤١) تلى الآية (٣٩)، لما اضطرب نظم القرآن، ولظلت الآيات مترابطة ولظل الانسياب والاتساق فى المعنى ، ولأصبحت الآية (٤١) رداً على موقف أولئك المكذبين وهو رد يناسب المرحلة التى كان فيها التكذيب أعم من التصديق ، بل كان التكذيب أكثر شيوعاً مما يستوجب تغليب التكذيب والمكذبين وجعلهم هم الفئة المردود عليها.

٢- ولما كان علم الله الشامل المطلع على ما كان وما سيكون قد تنزل به القرآن «أنزله بعلمه»، فقد جاء نظمه المعجز قابلاً للتعبير عن كل شيء دون اضطراب أو تفكك ، مما يؤكد قوة الصياغة وترابط الآيات قبل تنزلها وفى كل مراحل تنزلها ، ولهذا عندما جاء الوحى بإلحاق الآية (٤٠) وأمر الرسول عليه الصلاة والسلام كُتّاب الوحى بهذا الإلحاق ، جاء ترتيب الآيات بما ألحق بها فى صياغة بارعة ونظم متين ، وتعبير مناسب: فقد أبان الحق سبحانه وتعالى عن الموقفين وأعلن عن الفئتين: منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به، بعد أن كانت فئة واحدة وهى فئة المكذبين التى كانت هى الأكثرية . وأصبحت الآية (٤٠) الملحقة بالآيتين (٣٩) ، (٤١) إشعاراً بوجود الفئة المؤمنة المواجهة لتلك الفئة الكافرة ، وأن القرآن له من يؤمن به بعد أن كانت الفئة المكذبة هى الفئة الظاهرة والفئة الأعم .. والله أعلم .

ثانياً: من سورة الكهف [مكية وآياتها ١١٠، والآية الملحقة (٢٨) مدنية]: قال تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٧-٢٩].

وانظر إلحاق الآيات ٨٣ - ١٠١ ، وهى آيات مدنية .

لطائف فى المثال : انظر الترابط بين الآيات ، سواء قبل إلحاق الآية (٢٨) ، أو بعد إلحاقها ، وانسياب المعنى فى كلتا الحالتين ، مما يضعنا أمام ظاهرة بيانية تفرد بها النظم القرآنى ، وهى صياغة الآيات القرآنية وترتيبها لتعطى المعنى المفيد والتعبير المناسب ، قبل الإلحاق وبعد الإلحاق .

ثالثًا : سورة القلم [مكية وآياتها ٥٢ ، والآيات الملحقة ٤٨ - ٥٠ مدنية] قال تعالى : ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٤٧- ٥١].

وانظر إلحاق الآيات من ١٧ - ٣٣ .

رابعاً : سورة سبأ [مكية وآياتها (٥٤) ، وألحقت بها الآية (٦) مدنية] قال تعالى :﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٥-٧] .

خامساً : سورة الواقعة [مكية وآياتها ٩٦، وألحقت بها آيتى ٨١ ، ٨٢ المدنية] قال تعالى : ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٧٩-٨٣] .

سادساً : سورة القمر [مكية وآياتها ٥٥ ، وألحقت بها الآيات : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، المدنية]

قال تعالى : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر: ٤٣-٤٧] .

لطائف فى المثال : من المشاهد أن لكل سورة من سور القرآن ، جَرْس ونغم تتميز به آياتها ، هذا بالإضافة إلى ملامح الصياغة التى تتميز بها الآيات بكل سورة : وقد جاءت الآيات (٤٥) ، (٤٦) ، مطابقة كل التطابق للآيات التى ألحقت بها فى سورة القمر ، رغم التباعد بين أوقات التنزل ، وكأن هذه الآيات جميعاً قد صيغت فى لحظة واحدة . وهذا التناسب بين صياغة تلك الآيات رغم التباعد الزمنى من نزولها وهذا التلاحم بين الآيات ، نظماً ومعنى فى السورة الواحدة هو من دقائق المناسبات بين الآيات الملحقة والملحقة بها ولو كان بعضها نزل بمكة والآخر نزل بالمدينة .

سابعاً : سورة محمد [مدنية وآياتها ٣٨ ، وألحقت بها الآية ١٣ وقد تنزلت فى الطريق أثناء الهجرة].

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٢-١٤] .

وبعد .. فهذه أمثلة قدمناها ليتأملها القارئ ويفقهها الباحث ، حتى يدركوا جميعاً عظمة إلحاق الآيات القرآنية ، ويقفوا على دقة الترابط بين الآيات قبل الإلحاق ، وبعد الإلحاق ، ويطلعوا على عظمة النظم من خلال متانة البنيان وتماسك التركيب بين الآيات ؛ مما يثبت صياغة القرآن جملة واحدة ووجوده قبل تفرق آياته كتاباً متكاملاً ، وتنزله آيات متفرقات بعدد معلوم ، ودقة بالغة ، وعلم شمولى كامل : تكوّن فيه الآيات فى تفرقها ، وفى تجمعها وفى إلحاقاتها مهما تباعدت بينها فترات النزول ، كتاباً متكامل البنيان ، مترابط الآيات والسور متناسق المعنى حتى كان بحق قرآناً معجزاً فى نظمه وفى موضوعه ومعناه . ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨] .

شكل الآية القرآنية :

أقصد بشكل الآية القرآنية حالتها فى الطول والقصر . والآيات القرآنية تتراوح بين الطول والتوسط والقصر المتناهى . وقد عُدت ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ [الرحمن: ١] - فى صدر سورة الرحمن - آية ، كما عدت ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤] - وهى أيضاً فى سورة الرحمن - آية . وأطول الآيات فى القرآن (آية الدين) وهى فى سورة البقرة وعدد كلماتها ١٢٨ كلمة ، وهى الآية (٢٨٢) قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [البقرة: ٢٨٢] وأقصر آية فى القرآن ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ [الضحى: ١] ثم ﴿وَالْفَجْرِ﴾ [الفجر: ١] كل كلمة فيها خمسة أحرف نطقاً وستة كتابة .

****

الموضوع الثانى : سور القرآن

معنى السورة :

السورة فى اللغة: تطلق على ما ذكره صاحب القاموس بقوله: «والسورة: المنزلة، ومن القرآن معروفة لأنها منزلة بعد منزلة: مقطوعة عن الأخرى، والشرف، وما طال من البناء وحسن، والعلامة، وعرق من عروق الحائط» ا هـ.

والسورة إصطلاحًا: طائفة مستقلة من آيات القرآن الكريم ذات مطلع ومقطع.

ويلاحظ وجود مناسبات بين المعنى الاصطلاحى والمعنى اللغوى حيث إن السورة فى تكاملها تمثل التفافاً وإحاطة حول موضوع من موضوعات القرآن، وهى ذات علو ورفعة، وهى محددة ومستقلة عن غيرها من السور القرآنية، فكأنها مسورة ومحددة المعالم، وهى منزلة بعد منزلة.

تسمية سور القرآن

من المعلوم أن سور القرآن تتكون من الآيات، ومن المعلوم أيضاً أن آيات القرآن كانت تنزل لتجاور بعضها البعض بأمر رسول ﷺ ولتتكون منها السورة.

وأعطى رسول الله ﷺ أسماء للسور، فأسماء السور توقيفى عن رسول ﷺ.

«ومذهب جماهير العلماء من السلف والخلف على أن أسماء جميع سور القرآن توقيفية، وقد وضع النبى ﷺ لكل سورة اسمًا خاصًا بها، وهناك بعض ما يدل على ذلك من الأحاديث والآثار»[١]:

١- « قال ﷺ: من قرأ هاتين الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه» أخرجه الشيخان.

٢- «قال ﷺ: اقرءوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان تحاجان عن أصحابها» أخرجه مسلم

---

(١) تاريخ المصحف الشريف، ص ١٣٣

٣- « قال ﷺ : من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِم من الدجال» رواه مسلم.

٤- وعن عقبة بن عامر، قال: قيل يا رسول الله ﷺ - أفضلت سورة الحج بأن فيها سجدتين؟ قال : «نعم، ومن لم يسجدهما فلا يقرأها» أخرجه الترمذى وأبو داود.

٥- وعن عائشة رضى الله عنها، قالت: كان النبى ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر وبنى إسرائيل» رواه الترمذى.

٦- «قال ﷺ : من قرأ الدخان فى ليلة الجمعة غفر له» أخرجه الترمذى.

٧- قال ﷺ : من قرأ سورة الواقعة كل ليلة، لم تصبه فاقة أبداً» ذكره ابن وهب.

«واعلم أن السورة قد يكون لها اسم واحد وقد يكون لها اسمان فأكثر. فإن كان لها اسم واحد، فإن هذا الاسم يكون توقيفيًا قطعًا كسورة الأنعام والكهف، وإن كان لها أكثر من اسم فإن بعض هذه الأسماء يكون توقيفيًا، وبعضها يكون من وضع بعض الصحابة أو التابعين»[1] وقد جاء بالمصاحف أسماء السور فى أولها، وهى أسماء توقيفية. من السور التى لها أكثر من اسم:

١- سورة الفاتحة: سميت بأسماء متعددة بعضها توقيفى، وبعضها ليس كذلك. ومن الأسماء التوقيفية: فاتحة الكتاب، فاتحة القرآن، أم الكتاب، أم القرآن، السبع المثانى.

ومن الأسماء غير التوقيفية: الوافية، الكافية، سورة الحمد، سورة المناجاة.

٢- سورة البقرة، سنام القرآن، والزهراء، والأسماء الثلاثة توقيفية.

٣- آل عمران، الزهراء: والاسمان توقيفيان.

٤- الأنفال، سورة بدر، والأول توفيفى، والثانى ليس كذلك .

٥- النحل: تسمى النعم أيضًا لما فيها من تعداد نعمه تعالى على عباده، وهذا الاسم غير توقيفى.

(١) تاريخ المصحف الشريف، ص ١٣٤.

٦- الإسراء، وتسمى سورة بنى إسرائيل: والاسمان توقيفيان .

٧- طه: وتسمى أيضًا سورة الكليم، والأول هو التوقيفى.

٨- يس، وتسمى أيضًا قلب القرآن، هكذا سماها رسول ﷺ ، فيكون الاسمان توقيفيان.

٩- محمد: وتسمى أيضًا سورة القتال، والثانى ليس توقيفيا[١].

وقد تناول السيوطى فى كتاب الإتقان موضوع أسماء السور بالتفصيل فليرجع إليه من يريد التوسع فى الموضوع.

تقسيم السور حسب الطول والقصر

تفاوتت سور القرآن فى الطول والقصر، وأطولها سورة البقرة وأقصرها سورة الكوثر، وهى ثلاث آيات قصار.

وقسم العلماء سور القرآن إلى أربعة أقسام: طوال، ومئين ومثانى ومفصل.

١- الطوال[٢]: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام والأعراف، والتوبة.

٢- المئون: وسميت كذلك لأن كلاً منها تزيد على مائة آية أو تقاربها وهى ما ولى السبع الطوال وهى من أول هود إلى آخر السجدة.

٣- المثانى: وهى ما كان أقل من مائة، ولم تكن من المفصل، وهى ثوان للمئين.

٤- المفصل: وهو ما يلى المثانى من قصار السور، وسمى المفصل لكثرة الفصول التى بين السور بـ «بسم الله الرحمن الرحيم».

وفى أول المفصل، عدة أقوال، أشهرها أن المفصل يبدأ من سورة(ق). والمفصل أقسام ثلاثة: طوال، وأواسط، وقصار «فطواله من أول (ق) أو الحجرات إلى سورة

---

(١) لا نستحسن تسمية السورة «بسورة القتال» طالما أنه ليس اسمًا توقيفيًا حتى لايكون القتال بديلاً لاسم أشرف الخلق فتكون «سورة القتال» بديلاً لسورة محمد، مما يلقى مظنة سوء بأن يكون (القتال) بديلاً (لمحمد) ﷺ. وفى هذا سوء أدب معه ﷺ .

(٢) أو (الطول) : بضم الطاء المشددة مع فتح الواو، جمع طولى .

النبأ، وأوساطه من أول النبأ إلى سورة والضحى، وقصاره من أول الضحى إلى آخر القرآن الكريم»[(١)].

حكمة تجزئة القرآن إلى سور

ليس في مقدور أحد مهما كان مستوى علمه أن يعطينا جوابًا قاطعًا عن حكْمة تجزئة القرآن إلى سور طالما أن الرسول ﷺ لم يوضح ذلك، ولا يسعنا إلا أن نقول: الله أعلم، أما إذا كان المقصود هو استخدام العقل تعليل الأمور، وكان ذلك من باب التقريب، فلا بأس من الخوض والبحث عن حكْمة تجزئة القرآن إلى سور، خاصة إذا كان الجواب يعطى للفكر قناعة، وللقلب اطمئنانًا وللنفس راحة. ونطرح الموضوع في عبارة أخرى وهي «ما هي الفوائد من تقسيم القرآن إلى سور»؟

الفائدة الأولى: التيسير على المسلمين لقراءة القرآن ومدارسته، والتجزئة في المصنفات هي أفضل ما وصل إليه فن التأليف، حين ينقسم الكتاب إلى أبواب، وفصول، وأقسام، ومباحث، وفقرات... إلخ وهذا ما تتميز به الكتب الحديثة، عن الكتب القديمة التي كان أصحابها لا يهتمون بتجزئة موضوعات الكتب، فتصبح وكأنها واحة مترامية الأطراف، يتوه القارئ في أرجائها، ويصعب عليه الانتقال بين محتويات الكتاب، والتركيز على مقاصده.

والقرآن الكريم بتجزئته إلى سور قد بلغ القمة، في وقت كانت فكرة التبويب والتجزئة غير مألوفة، ولا عجب فيما تميز به القرآن من ناحية الشكل بانقسامه إلى سور، فهو الكتاب المعجز في كل جوانبه وجزئياته.

الفائدة الثانية: الوحدة الموضوعية، وذلك بإبراز موضوع أو أكثر تركز عليه السورة القرآنية، كما هو الحال في سور: البقرة، ويوسف، والنحل (سورة النعَمْ) والمنافقون، والجن، وسوف نبين ذلك عند الحديث عن موضوعات السور القرآنية حيث يوجد في كل سورة موضوعًا بارزاً أو أكثر تتحدث عنه السورة.

وقال صاحب الكشاف في فوائد تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً كثيرة: منها (أي

---

(١) تاريخ المصحف الشريف، ص ١٣٠.

الفوائد) أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع وأصناف، كان أحسن وأفخم من أن يكون بابًا واحداً.

ومنها: أن القارئ إذا أتم سورة أو بابًا من الكتاب ثم أخذ فى آخر كان أنشط له، وأبعث على التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله.

ومنها: أن الحافظ إذا حذق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة، فيعظم عنده ما حفظه.

ترتيب سور القرآن

الرأى الراجح والذى عليه الإجماع أن ترتيب سور القرآن توقيفى، ومع ذلك فقد تعددت الآراء فى أمر ترتيب السور بالمصحف، لأن الخلاف فى الرأى سنة الفكر الإنسانى إذا لجأ إلى الرأى والاجتهاد، وافتقد النصوص وترك النقل، أو جنح إلى استخدام العقل دون أن تكون الحقيقة غايته.

وفى موضوعات القرآن بصفة خاصة: فإن التوقيف هو عمدة العلماء، والنقل هو طريق الباحثين، والنصوص الصحيحة الصريحة هى الدليل والبرهان، والواقع المحمول على أجنحة التواتر هو فصل الخطاب.

ومن يخرج عن هذه الضوابط الفكرية فى حالة توفرها- فقد جنح إلى الرأى، وسلك مسلكًا شائكًا وصعبًا.

ولقد انقسم العلماء فى أمر ترتيب السور بالمصاحف إلى ثلاثة مذاهب نذكرها فيما يلى:

المذهب الأول: أن اتساق السور كاتساق الآيات والحروف كان بتعليم النبى ﷺ، وعليه فإن ترتيب السور كلها توقيفى عنه ﷺ، ولم توضع سورة فى مكانها إلا بأمر منه ﷺ «وقد ذهب إلى ذلك جمهور العلماء»[1] «وهذا الرأى هو الذى نعتقده ونأخذ به، فعلى هذا يكون ترتيب السور فى الصحف توقيفًا أيضًا بوحى من الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ»[2].

(١) تاريخ المصحف الشريف، ص ١٢٢.

(٢) دراسات قرآنية ص ٣٢.

المذهب الثانى: أن ترتيب السور توقيفى، منقول عن رسول الله ﷺ إلا سورتى الأنفال وبراءة، فإن وضعهما فى موضعهما كان باجتهاد عثمان رضى الله عنه، ووافقة عليه الصحابة واستدل أصحاب هذا المذهب بما رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قلت لضمان ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى، وإلى براءة وهى من المئين ففرقتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم - ووضعتموهما فى السبع الطوال- فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السورة ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشئ دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننت أنها منها، فقبض رسول ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك فرقت بينهما ولم أكتب بينهما سطر - بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتهما فى السبع الطوال[1].

المذهب الثالث: أن ترتيب السور كان باجتهاد الصحابة. قال الإمام الزركشى فى البرهان: « قال أبو الحسن أحمد بن فارس: جمع القرآن على ضربين أحدهما تأليف السور، كتقديم السبع الطوال، وتعقيبها بالمئين، فهذا الضرب هو الذى فعلته الصحابة رضى الله عنهم. وأما الجمع الآخر فضم الآى بعضها مع بعض، فذلك شىء تولاه رسول الله ﷺ كما أخبره جبريل عن أمر ربه عز وجل » اهـ واستدل هؤلاء على مذهبهم بأن مصاحف عدة من الصحابة كانت مختلفة فى ترتيب السور، واستشهدوا بمصحف على رضى الله عنه، وقد رتبت فيه السور حسب نزولها: فأولها سورة (العلق) ثم المدثر، ثم المزمل.. إلى آخر السور المكية، ثم السور المدنية حسب نزولها «وهذا مصحف أبى بن كعب روى أنه كان مبدوءاً بالفاتحة ثم البقرة ثم النساء

---

(١) هذا القول يُحمل على أن الرسول ﷺ لم ينبه بالقول إلى موضع سورة الأنفال، ولكن لا ينفى ذلك أنه ﷺ كان يقرؤها قبل براءة (التوبة) عندما كان يقرأ القرآن متواصلاً بترتيب السور، وربما يكون ذلك دليل عثمان رضى الله عنه وحجته التى أقنع بها الصحابة بأخذهما جميعًا وجعلوا سورة (الأنفال) قبل سورة (التوبة) دون أن يفصلوا بينهما بالبسملة اقتداء بما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام ولكنهم فصلوا بينهما كسورتين نزلتا متباعدتين، وبهذا يكونان فى حقيقتهما سورتان مستقلتان باعتبار تنزلهما، ويكونان متجاورتين من واقع التلاوة النبوية وغير منفصلتين بالبسمله والله أعلم.

ثم آل عمران ثم الأنفال. وهذا مصحف ابن مسعود كان مبدوءاً بالبقرة ثم النساء ثم آل عمران... »[١].

ترجيح المذهب القائل بأن ترتيب جميع سور القرآن توقيفي

رغم الاختلاف حول ترتيب السور بالمصحف: هل هو توقيفي، أم توقيفي اجتهادي، أم اجتهادي- حسب المذاهب الثلاثة السالفة الذكر- فإن ذلك لا يؤثر من قريب أو من بعيد على حقيقة القول: بأن القرآن توقيفي في آياته وترتيبها، وفي تكوين السور من هذه الآيات، وفي تسمية السور. والأمر سهل على كل حال، حتى أن الزركشي جعل الخلاف من أساسه لفظيًا، وقال في كتابه البرهان: «والخلاف بين الفريقين- أي القائلين بأن الترتيب عن اجتهاد، والقائلين بأنه عن توقيف- لفظي- لأن القائل بالثاني يقول: إنه رمز إليهم ذلك، لعلمهم بأسباب نزوله ومواقع كلماته، ولهذا قال مالك: إنما ألفوا[٢] القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبيﷺ مع قوله بأن ترتيب السور كان باجتهاد منهم، فآل الخلاف إلى أنه هل بتوقيف قولي، أو بمجرد إسناد فعلي، بحيث يبقى لهم فيه مجال للنظر، وسبقه ذلك جعفر بن الزبير» ا.هـ[٣].

ورغم شكلية الخلاف، وأن الأمر سهل كما يقولون، فإننا نرى من المفيد - لتجلية الحقيقة أو الاقتراب منها، واتخاذ منهج لحسم الخلافات الفكرية، والآراء الجدلية حول القرآن الكريم، ولنا في أبسط الأمور - أن نستعين بمنهج الترجيح بالأدلة، ولهذا فإننا نقدم الأدلة لترجيح المذهب الأول، وذلك فيما يلي:

الدليل الأول: بطلان استدلال القائلين بالاجتهاد في ترتيب السور بوجود مصاحف لبعض الصحابة[٤] لم تكن سورها بالترتيب الذي عليه المصاحف الآن، حيث إن هذا الاستدلال مردود عليه من عدة وجوه كما يلي:

---

(١) مناهل العرفان ص: ٣٤٦/ جـ١

(٢) المقصود بتأليف القرآن هو ترتيب السور، كما سبق القول بأن جمع القرآن على ضربين: أحدهما تأليف السور كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين.

(٣) مناهل العرفان ص: ٣٥١/ جـ١

(٤) من هذه المصاحف المنسوبة إلى بعض الصحابة بأسانيد ضعيفة ما نسب إلى عمر بن الخطاب وعلي ابن أبي طالب وعائشة أم المؤمنين، وحفصة أم المؤمنين وعبد الله بن الزبير وأبي بن كعب وعبد الله ابن مسعود، وعبد الله بن عباس / جـ٢.

١- أن المصاحف المخالفة فى ترتيب السور إن صحت أخبارها، لم تكن من الكثرة والشيوع، بل كانت مصاحف فردية ومحدودة جداً قصرها أصحابها على أنفسهم، ونسبت إليهم، واستثير ثلاثة منها: هى: مصحف على، ومصحف أبى بن كعب، ومحصف ابن مسعود، وهذه هى التى استدل بها القائلون بالاجتهاد فى ترتيب السور.

ومن الواضح أن هذا العدد المحدود جداً من المصاحف والتى دونها أصحابها، ولم يريدوا له العموم ولم تصل أخبارها إلى درجات النقل الصحيح لايجوز الأخذ بأخبارها كدليل مخالفة لما بين أيدينا من المصاحف أو أنها شاهد يستشهد به القائلون بالاجتهاد فى ترتيب السور.

٢- إن صحت أخبار تلك المصاحف، فإن أصحابها لم يستقروا عليها ولم يستمروا فى التمسك بها، وذلك بعد إجماع الصحابة على المصاحف التى تم تدوينها فى عصر عثمان رضى الله عنه، ولم تنقل الأخبار الصحيحة أن عليًا، وأبى ابن كعب وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم، قد ظلوا متمسكين بهذه النسخ الخاصة التى كانوا قد كتبوها فى فترة تنزل القرآن، ولو كان الأمر كذلك لشاعت مصاحفهم بدرجة ملحوظة، ولظلت حتى يومنا هذا مصاحف متداولة.

ولو كان ترتيب السور فى المصحف العثمانى اجتهاديًا لظل أصحاب المصاحف الخاصة مصرين على اجتهادهم فيما كانوا عليه من ترتيب السور فى مصاحفهم ولما أحرقوها بأنفسهم والتفوا حول المصحف الإمام الذى أجمع عليه الصحابة فى عهد الخليفة عثمان رضى الله عنه.

وعدول أصحاب المصاحف الخاصة عن مصاحفهم. يعنى أنها كانت مجرد نسخ مؤقتة دونها أصحابها لأغراض تعليمية ويؤكد ذلك ما كانت تحمله هذه النسخ من شروح وإيضاحات ومثال ذلك:

حافظوا على الصلوات، و الصلاة الوسطى - صلاة العصر»[1] فى سورة البقرة بزيادة (صلاة العصر) توضيحًا للصلاة الوسطى - وذلك فيما تحكيه الروايات عن

---

(١) تاريخ المصحف الشريف، ص ٦٨.

مصحف منسوب إلى السيدة عائشة رضى الله عنها.

«فصيام ثلاثة أيام متتابعات»[١] فى سورة المائدة، بزيادة «متتابعات» وذلك فيما تحكيه الروايات عن مصحف منسوب إلى أبى بن كعب رضى الله عنه.

ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم فى مواسم الحج»[٢].

وذلك فى سورة البقرة، بزيادة « فى مواسم الحج» وذلك فيما تحكيه الروايات عن مصحف منسوب إلى عبد الله بن مسعود (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل يقولون ربنا)[٣] فى سورة البقرة بزيادة «يقولون» وذلك فى مصحف منسوب إلى عبد الله بن مسعود.

وواضح بين الأقلية السابقة أن الإضافات توضيحية وليست من النظم القرآنى، مما يشير إلى أن هذه المصاحف الخاصة وأمثالها كانت نسخًا تعليمية كتبتها أصحابها بطريقتهم الخاصة لا تكون نسخه قرآنية توقيفية، ولهذا سرعان ما تركوها والتزموا بالمصاحف العثمانية التوقيفية، والتى لم يكن ترتيب السور فيها اجتهاداً «لأنه لو كان عن اجتهاد لتمسك أصحاب المصاحف المخالفة بمصاحفهم»[٤] .

٣-الروايات التى تصور لنا اختلاف المصاحف فى ترتيب السور، تحتاج إلى توثيق، حيث إنها أخبار مرسلة، ولنا أن نطالب بتوثيقها لتصبح أدلة لها قوة الترجيح، أو ردها لأنها دون المستوى الصحيح.

وفى الموضوعات التى تخص القرآن الكريم يجب أن تكون الروايات صحيحة فلا تكون مرسلة، أو انفرد بها مجهولون، أو يكونوا دون مستوى الثقة .

٤- بالنظر فى ترتيب السور بالمصاحف الثلاثة المنسوبة إلى: على، وأبى بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وهى التى تشكل أقوى دليل للقائلين بالاجتهاد فى ترتيب سور القرآن الكريم، تقرر أن هذه المصاحف تحمل عوامل بطلانها كأدلة، فإذا

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٧٠.

(٤) تاريخ المصحف الشريف، ص ١٢٥.

انهار استدلالهم بهذه المصاحف، فقد انهار قولهم بالاجتهاد فى ترتيب السور، ونبين ذلك فيما يلى:

الترتيب الزمنى للسور أى ترتيب السور حسب النزول، لم يكن معمولاً به إلا لفترة مؤقتة وقد استقر ترتيب سور المصحف كما هو معروف على عهد رسول الله ﷺ بصورة أخرى تداخل فيها ترتيب المكى مع المدنى، وتواجدت السورة المكية متداخلة مع السورة المدنية، (فالفاتحة) مكية تليها (البقرة) مدنية، وتأتى (يونس) وهى مكية، عقب (التوبة) المدنية ثم تأتى سور كالأحزاب والنور ومحمد مدنية موزعة فى الترتيب بين السور المكية كالنمل والقصص ولقمان والشورى.. وهكذا يوجد التداخل فى ترتيب السور[1] وذلك يقطع بأن المصاحف التى قيل إن السور مدنية بها حسب النزول كمصحف (على) رضى الله عنه، كانت مصاحف ما قبل الترتيب الختامى الذى أمر به رسول الله ﷺ، ولم يكن حسب النزول. وبذلك يبطل الاستدلال بمصحف على رضى الله عنه وآخرين كدليل على الاجتهاد فى ترتيب سور المصاحف.

وعن مصحف ابن مسعود رضى الله عنه، فإن الأخبار تذكر عدم وجود الفاتحة فيه، وقد بدأه ابن سعود بسورة البقرة ثم النساء ثم آل عمران، وإذا كان المصحف جاء خاليًا من سورة الفاتحة وهى فاتحة الكتاب وأبرز سورة فيه مما يقطع بأن صاحبه قد يعد به عن التواتر والتوقيف فى إدراج سور القرآن، فهو من باب أولى يكون خارجًا عن التوقيف فى ترتيب سور القرآن، ويكون اجتهاد صاحبه فى ترتيب السور اجتهاداً غير صحيح، ومن ثم يبطل الاستشهاد بهذا المصحف فى إثبات الاجتهاد فى ترتيب السور كما يبطل الاستشهاد به فى كل أمر يتعلق بالقرآن الكريم.

وعن مصحف أبى بن كعب والذى بدأ بالفاتحة ثم البقرة ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام، فقد ذكرت الروايات الصحيحة أن السور الطوال قد علم ترتيبها فى حياة النبى ﷺ حتى قال بذلك الفريق الذى يأخذ بمذهب الاجتهاد والتوقيف معًا وها هو

---

(١) كما جاءت الروايات عن ختم النبى ﷺ للقرآن وقراءته لم تكن السور مدنية حسب النزول، بل إن الروايات تذكر الفاتحة كأول القرآن وتليها البقرة، وآل عمران «وإن كثيراً من السور قد علم ترتيبها فى حياة النبى ﷺ، كالسبع الطوال والحواميم والمفصل» هـ مناهل العرفان، ص ٣٥٠/ حـ١.

القاضى أبو محمد بن عطيه - وهو من المؤيدين لهذا المذهب - يقول: «إن كثيراً من السور قد علم ترتيبها فى حياة النبى ﷺ كالسبع الطوال». فإذا كان مصحف أبى بن كعب لم يلتزم بما كان توقيفيًا عن رسول الله ﷺ كالسبع الطوال، فلا يكون مصحفه جديراً بالنظر فى معرفة ترتيب السور والاستشهاد بما جاء به على الاجتهاد فى هذا الأمر. لأنه بتخليه عن مطابق الموقوف فى الترتيب، قد أصبح الاستشهاد بما عداه استشهاداً باطلاً فمن لا يحترم التوقيف، لا يجوز احترام رأيه فيما عداه.

وبرأى آخر نقول بأن عدم الالتزام بالتوقيف فيما تأكد معرفته من الترتيب كالسبع الطوال، يؤخذ دليلاً على أن هذا المصحف - إن صمتت الأخبار عنه - ما هو إلا نسخة من سور القرآن كتبها صاحبها قبل استقرار ترتيب السور، فجاء الترتيب فيها بعيداً عن التوقيف والتواتر وما أجمع عليه الصحابة فى ترتيب السور بالمصحف الإمام (المصحف العثمانى). وهذا أيضًا يبطل الاستشهاد بمصحف أبى بن كعب فى موضوع الترتيب لسور القرآن، وفى غير ذلك من الموضوعات المتعلقة بالقرآن.

الدليل الثانى:

قام أيضًا استدلال القائلين بالاجتهاد فى ترتيب سور القرآن على الحديث الذى ذكرناه عن ابن عباس، قال: قلت لعثمان، ما حملكم على أن عمدتم إلى الا الأنفال، وهى من المثانى وإلى براءة وهى من المثين ...» الحديث.

وهذا الاستدلال مردود عليه من عدة وجوه:

١- « أن حديث ابن عباس هذا غير صحيح لأن الترمذي وهو راويه قال فى تخريجه إنه حسن غريب لا يعرف إلا عن طريق يزيد بن الفارس عن ابن عباس، ويزيد هذا مجهول الحال، فلا يصح الاعتماد على حديثه الذى انفرد به فى ترتيب القرآن»[١].

«ويزيد بن الفارس هذا، قال عنه ابن حجر العسقلانى: إن المحدثين اختلفوا فيه. هل يزيد بن هرمز المشهود بأنه ثقه أو غيره، ثم قال: والصحيح أنه غيره، وسئل عنه

(١) مناهل العرفان، ص ٣٥٤.

يحيى بن معين فلم يعرفه»[١] ورجل هذا شأنه مجهول الحال لا يصح أن تكون روايته التى انفرد بها مما يؤخذ بها ويعتمد عليها فى ترتيب القرآن المتواتر.

والحديث لا ينهض حجة لهؤلاء من جهة السند كما ذكرنا، وكذلك من جهة المتن. وأما من جهة متنه فإنه يتعارض مع ما ثبت فى السنة الصحيحة أنه ﷺ كان يتلو القرآن كله فى رمضان على جبريل عليه السلام، مرة من كل عام، وفى العام الذى توفى فيه ﷺ، عارضه القرآن مرتين، فأين كان ﷺ يضع هاتين السورتين فى قراءته، ولابد أن يكون لها موضع فى القرآن الذى كان يتلوه صلوات الله وسلامه عليه. كذلك فإن السبع الطوال كانت من سور القرآن التى عرف ترتيبها فى حياة النبى ﷺ وقد قرر ذلك القاضى أبو محمد بن عطية وهو من المؤيدين لمذهب الاجتهاد فى ترتيب السور القرآنية كما ذكرنا آنفا.

٢- يوجد اضطراب فى متن الحديث وذلك فيما يقوله عثمان «وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها» إذ كيف يظن عثمان أنها منها بينما يقول بأنهما سورتان ولهما مسميان هما: الأنفال وبراءة؟ .. وهذا الاضطراب يوهن الحديث بحيث لا ينهض حجة لمن احتجوا به.

٣- من المعلوم أن سورة براءة تنزلت ولم تسبقها البسمله خلافا لباقى سور القرآن التى سبقتها البسملة عند تنزلها ويخالف ذلك ما جاء فى الحديث من قول ابن عباس لعثمان «ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال، وهى من المثانى، وإلى براءة وهى من المئين، ففرقتم بينهما ولم تكتبوا بينهما، سطر بسم الله الرحمن الرحيم» والمعروف أن براءة نزلت من غير البسملة.

٤- يفهم من الحديث أن الظن الذى وقع فيه عثمان رضى الله عنه وهو أن الأنفال وبراءة سورة واحدة، كان فى حياة النبى ﷺ، وظل ذلك الظن لدى عثمان حتى خلافته وإلى أن أمر بكتابة المصاحف، وهذا أمر غير مقبول فى حق عثمان والصحابة المقربين، بل هو قول ركيك وغير معقول: إذ كيف يترك النبى ﷺ إلحاق التوبة

(١) تاريخ المصحف الشريف، ص ١٢٢.

بالأنفال حال تنزلها إن كانت منها، وإذا لم يلحقهما ﷺ ببعضهما فكيف يظن عثمان ومعه الصحابة أنهما سورة واحدة ويظلوا فى ظنهم وجهالتهم بهذا الموضوع الهام دون تثبت.

الدليل الثالث:

« أجمع الصحابة على المصحف الذى كتب فى عهد عثمان رضى الله عنه ولم يخالف منهم أحد، وإجماعهم لا يتم إلا إذا كان الترتيب الذى أجمعوا عليه عن توقيف، لأنه لو كان عن اجتهاد لتمسك أصحاب المصاحف المخالفة بمخالفتهم وهم أئمة الصحابة كعلى بن أبى طالب، وأبى بن كعب، وابن مسعود »(١).

الدليل الرابع:

« ما روى عن كبار العلماء منذ عصر التابعين وأخذه الناس بالقبول من ذلك أن ربيعة سئل: لم قدمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة، وإنما نزلتا بالمدينة؟ فقال ربيعة: قد قدمنا وألف القرآن على علم ممن ألف، وقد اجتمعوا على العلم بذلك، فهذا مما ينتهى إليه »(٢).

الدليل الخامس:

حديث وائل بن الأسقع، أن النبى ﷺ قال: أعطيت مكان التوراة السبع الطوال، وأعطيت مكان الزبور المئين وأعطيت مكان الإنجيل المثانى، وفضلت بالمفصل.

وهذه الأنواع الأربعة التى قسمت على أساسها السور حسب طولها، هى فى المصحف بنفس الترتيب الوارد فى الحديث، وذلك دليل على أن الترتيب فى المصاحف توقيفى.

الدليل السادس:

ما قرره كثير من العلماء فى هذا الموضوع..

١- قال أبو بكر بن الأنبارى: أنزل الله القرآن كله إلى السماء الدنيا ثم فرقه فى

---

(١) مناهل العرفان، ص ٣٤٧.

(٢) دراسات قرآنية، ص ٣٢.

بضع وعشرين سنة، فكانت السور تنزل لأمر يحدث، والآية جوابًا لسؤال، ويوقف جبريل النبى ﷺ على موضوع الآية والسورة، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله من النبى ﷺ. فمن قدم سورة أو أخرها فقد أخل بنظم القرآن.

٢- وقال الكرمانى فى البرهان: ترتيب السور هكذا هو من عند الله فى اللوح المحفوظ على هذا الترتيب، وعليه كان ﷺ يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه، وعرضه عليه فى السنة التى توفى فيها مرتين.

٣- وقال الطيبى: أنزل القرآن أولاً جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقًا حسب المصالح، ثم أثبت فى المصاحف على التأليف والنظم المثبت فى اللوح المحفوظ.

٤- وقال أبو جعفر النحاس: المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله ﷺ لحديث وائل بن الأسقع أن النبى ﷺ قال: أعطيت مكان التوراة السبع الطوال، وأعطيت مكان الزبور المثين، وأعطيت مكان الإنجيل المثانى، وفضلت بالمفصل(١).

الدليل السابع:

ورد فى أحاديث كثيرة أن ترتيب بعض السور فى عهد رسول الله ﷺ هو عين ترتيبها فى المصاحف التى نسخها زيد بأمر عثمان. منها ما رواه البخارى عن ابن مسعود أنه ﷺ قال فى بنى إسرائيل، والكهف، ومريم وطه والأنبياء، أنهن من العتاق الأول، وهن من تلاوى، والعتاق جمع عتيق، وهو القديم من كل شىء، والمعنى أنهن من قديم ما نزل، والتالد قديم المال والمتاع، والطارف حديثه وجديده، والمراد بالتلاوى هنا أنهن من أول ما حفظ من القرآن، فذكرها النبى ﷺ نسقًا كما استقر ترتيبها فى المصحف.

---

(١) ذكر رسول الله ﷺ هذه الأنواع الأربعة التى يشتمل عليه القرآن على هذا النحو من الترتيب الذى يتفق وترتيب السور فى المصاحف مما يدل على أنه توقيفى «تاريخ المصحف الشريف، ص ١٢٣- بالهامش».

الدليل الثامن:

لا يوجد أحد من العلماء خرج عن مصحف عثمان رضى الله عنه، وهو المصحف الذى يوجد لدى كافة المسلمين والذى نقل بالتواتر عصراً بعد عصر إلى يومنا. وحتى القائلين بالاجتهاد فى ترتيب سور القرآن بالمصاحف واستشهدوا بما وصل إليهم من الأخبار عن مصاحف على، وأبى بن كعب وابن مسعود لم يخرجوا عن الإجماع فى ترتيب سور القرآن.

الدليل التاسع:

وجود المناسبات التى تربط بين السور بعضها ببعض، وبين الآيات فى داخل تلك السور، وقد توفر فى الكشف عن هذه المناسبات بعض أفاضل العلماء، ومنهم: القاضى أبو بكر بن العربى، والشيخ أبو بكر النيسابورى، وأبو جعفر ابن الزبير، والشيخ برهان الدين. ووجود هذا التناسب بين سور القرآن الكريم الذى كشف العلماء عنه النقاب دليل على أن تركيب السور ليس عملاً اجتهاديًا ولكنه توقيفى من الله سبحانه وتعالى الذى نزل القرآن كتابًا معجزاً، وجعل من المناسبات بين سوره مظهراً من مظاهر الإعجاز فى نظم القرآن.

ونزيد الدليل وضوحًا وتأكيداً بشواهد من أقوال العلماء: «نقل السيوطى رأى بعض العلماء فى ترتيب السور فى المصحف، ومن ذلك «وقال بعضهم لترتيب وضع السور فى المصحف أسباب تطلع على أنه توقيفى صادر عن حكيم».

أحدهما: بحسب الحروف كما فى الحواميم.

الثانى: لموافقة أول السورة آخر ما قبلها، كآخر الحمد فى المعنى وأول البقرة.

الثالث: للتوازن فى اللفظ، كآخر تبت وأول الإخلاص.

الرابع: لمشابهة جملة السورة، جملة السورة، الأخرى: كالضحى وألم نشرح.

قال بعض الأئمة: وسورة الفاتحة تضمنت الإقرار بالربوبية والالتجاء إليه فى دين الإسلام، والصيانة من اليهودية، والنصرانية، وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين، وآل عمران مكملة لمقصودها، فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم، وآل عمران

بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم، ولذلك أورد فيها ذكر التشابه لما تمسك به النصارى، وأوجب الحج فى آل عمران، وأما فى البقرة فذكر أنه مشروع، وأمر بإتمامه بعد الشروع فيه، وكان خطاب النصارى فى آل عمران أكثر، كما أن خطاب اليهود فى البقرة أكثر، لأن التوراة أصل والإنجيل فرع له... وأما سورة النساء فتضمنت أحكام الأسباب التى بين الناس... وأما المائدة فسورة العقود، تضمنت بيان تمام الشرائع، ومكملات الدين، والوفاء بعهود الرسل، وما أخذ على الأمة فهى سورة التكميل... ولهذا أكثر فيها من لفظ الإكمال والإتمام.... وهذا الترتيب بين هذه السور الأربع المدنيات من أحسن الترتيب»[(١)] ا. هـ باختصار.

وبالجملة والاختصار فإن حكمة ترتيب السور حسب ما هو بالمصحف والتى تكشفت عنها دراسات العلماء تقطع بأن هذا الترتيب توقيفى بما يحمله من دلالات الإعجاز البيانى بوجود المناسبات بين السور المجاورة لبعضها، وبما أظهره من تماسك السور ببعضها فهى تتصل بعضها ببعض اتصالاً محكمًا لا انفصام له حتى صارت آخذة بحجزة بعض.

ويقول الزركشى: «التناسب وهو مبنى على أن ترتيب السور توقيفى وهذا الراجح، وإذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته فى غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها، ثم يخفى تارة ويظهر أخرى والتماس المناسبات بين السور مبنى على أن ترتيب السور توقيفى[(٢)]. ويزداد المسلم يقينًا بإعجاز النظم القرآنى من خلال ترتيب سوره وآياته، كما يزداد قناعة بأن الترتيب توقيفى عندما يعلم أن المائدة سورة مدنية والأنعام سورة مكية، ورغم فارق التنزل فقد تجاورتا مع سبق السورة المدنية للسورة المكية فى ترتيب المصحف، وكل ذلك لحكم فى ترتيب السور ندرك بعضها ويظل بعضها خافيًا إلى أن يطلع عليه من يجىء بعدنا من الباحثين.

والذى ينبغى فى كل آية أن يبحث أول كل شىء عن مكملة لما قبلها أو مستقلة. ثم المستقل ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ وهكذا فى السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سبقت.

(١) دراسات قرآنية، ص ٤٣، ٤٤.

(١) دراسات قرآنية، ص ٤٢، وانظر مبحثنا فى المناسبات بين آيات القرآن، والمناسبات بين السور.

والمناسبة فى اللغة المشاكلة والمقاربه، ومرجعها فى الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها: عام أو خاص، عقلى أو حسى أو خيالى أو غير ذلك من أنواع العلاقات كالتلازم الذهنى بين السبب والمسبب والنظيرين والضدين ونحوه.

وفائدة معرفة المناسبة جعل أضداد الكلام بعضها آخذ بأعطاف بعض، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم ا هـ - الوصلان ص ٦٠/٦١.

وبعد فهذه جملة من الأدلة أردنا بها ترجيح الرأى القائل بأن ترتيب سور القرآن توقيفى، هو الرأى الذى التف حوله المسلمون، واستقرت عليه المصاحف.

ونحذر بشدة ممن يقدمون بكل جرأة على المطالبة بترتيب سور القرآن حسب النزول متحدين التوقيف والتواتر والاستقرار الذى حفظ الله به القرآن الكريم. وهؤلاء الخارجون عن الإجماع الإسلامى نرى إضافتهم إلى كافة الطوائف التى تعمل على تحريف القرآن بأساليب مختلفة ومنها طائفة المطالبين بكتابة القرآن حسب القواعد الإملائية (طاها إلاه - ياسين ....) وكذلك طائفة المطالبين بترجمة القرآن لا ترجمة معانى القرآن، وطائفة المؤيدين للقراءات التى الشاذة البعيدة كل البعد عن التواتر... ويمكرون والله من ورائهم محيط...

****

المبحث الثاني

المناسبات بين آيات القرآن والمناسبات بين السور

الإيمان بأن القرآن معجزة الرسول ﷺ الذى أيده الله سبحانه وتعالى بها فى دعوته إلى دين الإسلام، يجعل المؤمن يبحث دائمًا فى جوانب الإعجاز المتعددة للقرآن باعتباره إعجازاً مطلقًا. وقد حظى جانب الإعجاز البيانى حتى الآن بالنصيب الأوفى من علماء اللغة حتى صاروا يبحثون باهتمام عن كل شىء من هذا القبيل فى القرآن الكريم الذى حظى باهتمام المسلمين فى كل العصور. ومن مظاهر الاهتمام بالدراسات القرآنية بعامة وبالإعجاز البيانى بخاصة أن علماء اللغة اهتموا بالبحث عن المناسبات التى تربط بين الآيات بعضها ببعض بداخل السورة، وبين السور المتجاورة «وقد توفر على الكشف عن هذه المناسبات عدد قليل من العلماء لأن ذلك يحتاج إلى دقة نظر وإدراك نافذ بسر التعبير القرآنى، حتى يدرك مراميه ويقف على غايته»(١).

ولما كان البحث فى هذه المناسبات أمر دقيق، فإن عامة أهل التفسير لم ينتبهوا إليه، وممن اعتنى بالكشف عنه والنص عليه طائفة من العلماء، نذكر منهم:

١- «الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره، ومما قاله فى هذا الصدد: أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط»(٢).

٢- القاضى أبو بكر بن العربى: وقد نقل الزركشى عنه قوله «ارتباط آى القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة منسقة المعانى منظمة المبانى، علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله عز وجل لنا فيه، فلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله، ورددناه إليه».

٣- الشيخ أبو بكر النيسابورى، وهو أحد علماء الشافعية فى أواخر القرن

(١) دراسات قرآنية، ص ٣٧.

(٢) راجع فى هذا البحث كتاب البرهان، حـ ص ٣٥ - ٣٦، والإتقان جـ ٢ ص ١٠٨ - ١١١.

الثالث وأوائل القرن الرابع الهجرى، وكان أول من أظهر وجوه المناسبات بين السور والآيات فى بغداد، وكان غزير العلم فى الشريعة والأدب، وكان يتناول هذه اللطائف فى درسه قائلا:

«لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه ؟ وما الحكمة فى جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يأخذ على علماء بغداد فى عصره عدم فطنتهم إلى هذه الأسرار فى فهم الكتاب العزيز.

٤- أبو جعفر الزبير، شيخ أبى حيان أفرد هذا اللون من البحث فى القرآن بالتصنيف، وقال السيوطى بأن اسم كتاب أبى جعفر عنوانه «البرهان فى مناسبة ترتيب سور القرآن».

٥- الشيخ برهان الدين البقاعى، من المعاصرين للسيوطى، وله كتاب فى هذا الموضوع سماه «نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور» واعلم أن أول ما يجب على المفسر بيانه إظهار الرابطة بين الآيات والسور ومبدأ السورة وختامها، فأكثر لطائف القرآن كامنة تحت الروابط والترتيب وإذا كان القرآن قد نزل فى أكثر من عشرين سنة والآيات فى المصحف ليست على ترتيب النزول، وقد تكون الأسباب فى بعض الآيات المتجاورة مختلفة، فليس معنى هذا ألا يطلب لها رابط، لأن الآيات بترتيبها فى المصحف توقيفية فهى على الوقائع نزولاً وعلى الحكمة الإلهية ترتيبًا. واستنباط الرابط أساسه قوة ملاحظة المستنبط. ولذا يختلف الرابط باختلاف الناس جودة وركاكة.

الموضوع الأول : المناسبات بين آيات القرآن الكريم

تعتبر الآيات القرآنية بمثابة اللبنات التى تتكون منها السور، كما أن السور هى مكونات القرآن الكريم.

وقد أوجد الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز، ترابطًا وعلاقات بين الآيات، كما أوجد بين السور المتجاورة والمتتابعة مناسبات وعلاقات[١].

---

(١) الأمثلة على ذلك كثيرة، بل آيات القرآن كلها شواهد على ذلك، وعلم المناسبة علم واسع وجميل يدخل فى موضوعات الإعجاز اللغوى «ونرى أن علم المناسبة يجب أن تدرس وسائله، وتستخلص =

والمناسبات والترابط بين الآيات فى السورة الواحدة، واضح ومتين مما يجعل لها قوة تماسك بداخل السورة، وهذا من سنن الخلق حيث تكون المجموعات الأقل أشد تماسكًا من المجموعات الأكبر، ولهذا فإن المناسبات بين الآيات والترابط بينها كان أكثر وضوحًا وأسرع إدراكًا من ذلك الذى بين السور والذى مازال الكثير منه دقيقًا وخافيًا على علماء التفسير كما ذكرنا آنفًا...

ومجئ الآية بعد الأخرى يرجع إلى صلة تربط بين السابق واللاحق: ترجع إلى أمر عام أو خاص، عقلى أو حسى أو خيالى، أو ترجع إلى نوع من التلازم الذهنى،

= أصوله وتضاف إلى بحث الفصل والوصل وعطف القصة، وواو الاستئناف وفائه، وأن يدمج ذلك كله فى باب واحد يكون من أجل أبواب البلاغة وأحفلها. وقد انتفع علماء علم المناسبة بدراسة البلاغيين وجملة هذه المباحث كما قلت تمثل بابًا دقيق المسالك، كثير الفوائد ترى فيه حركة الكلام وهى تنحو وتنجو وتضع اللبنة على اللبنة، وتختار هذه دون تلك ... «ص ٢١٨، ٢١٩، الإعجاز البلاغى دراسة تحليلية.

وتقدم مثالاً فى موضوع المناسبات بين أجزاء الآية بعضها مع بعض، والآيات بعضها مع بعض نقتبسه من المبحث الجليل فى دراسة الباقلانى وهو «طريقة ائتلاف المعانى المتنوعة بشريف النظم وتقاربها بجلى الفهم: «وهذا باب نتيقن سعته ودقته وأهميته... وأكرر القول بأن الباقلانى كان دقيق الإحساس بالمقاطع التى عندها ينتقل الكلام من معنى إلى معنى وكيف كان يجرى ذلك فى القرآن على وجه عجيب غريب... وقبل أن ندع كلامه فى هذا الشأن أنبه إلى لفتته البارعة إلى ذلك الانتقال البارع فى أول سورة غافر «حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول، لا إله إلا هو إليه المصير ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد، كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم) ١-٥ وقف الباقلانى عند الآيات التى ذكرت أسماء الله وصفاته إلى قوله تعالى: ﴿إليه المصير﴾ وهذا معنى، وتكذيب قوم نوح والأحزاب من بعدهم معنى غيره، والانتقال بين الأول إلى الثانى فيه تفسيرللنظم وداعيا للكلام على حد تعبير الباقلانى، وهذا يوضح أهمية هذا السياق فى الآية ﴿ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد﴾... تأمل كيف التقطت هذه الآية خيط الكلام السابقة الذى هو تنزيل الكتاب الذى هو آية الله لخلقه ثم فتحت الباب لذكر تكذيب قوم نوح والأحزاب من بعدهم لما جعلت المجادلة فى هذه الآيات البينات مقصورة على الذين كفروا، ومن هذا الباب انحدر الكلام إلى قصص الأقوام المكذبين، وهنا تقع على الحكمة ساطعة وهى قوله تعالى ﴿فلا يغررك تقلبهم فى البلاد﴾ وصار الكلام بعد هذا الوعيد الهادر يمد اليدين إلى «كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب»... أدرك الباقلانى ذلك وأدق منه وأشف، إلا أنه دلنا عليه بطريقته التى تقول لك: فكر من هذا الشئ ففيه خبئ وعليك أن تستخرجه.... وفى بيئة القرن الرابع، التفت علماؤه إلى مناسبة الآيات وإلى مناسبة أول السور لآخرها ولآخر التى قبلها، وكذلك مناسبة آخرها لأول التى بعدها...» اهـ (باختصار، وتعرف ص ٢١٧ -٢١٩.

كالتلازم القائم بين العلة والمعلول، والسبب والمسبب، أو العلاقة بين النظير أو الضدين.

وفائدة هذا الترابط والتناسب بين الآيات أن الكلام آخذ بعضه بأعطاف بعض، فيتوثق الترابط، ويكون التأليف متماسكًا مثل البناء المحكم المتلاحم الأجزاء»[(١)].

(أشكال الترابط بين الآيات)

أولا: الترابط الواضح:

كأن تكون الآية الثانية متممة للأولى، أو مفسرة، أو مؤكدة لها أو بدلا منها أو معترضة، وهذا لا يحتاج إلى بيان.

والأمثلة على ذلك كثيرة ومعروفة ومنها:

١- ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤-٥].

٢- ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

٣- ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٢-٣].

٤- ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥].

إذا نظرنا فى الشواهد القرآنية نجد أن الآية الأولى مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالآية التى تليها وربما الآية التى بعدها كما فى الشاهد الرابع، حتى إن المعنى لا يتم إلا بربط الآيات ببعضها وإنهاء الآية قبل انتهاء المعنى، وارتباط الآية الأولى بالآية التى تليها لإتمام المعنى، وهو من وجوه النظم القرآنى المتعلق بترابط الآيات بعضها ببعض ويحتاج فهمه إلى فطنة بجانب المعرفة الجيدة بفنون البلاغة والنظم مما يدخل فى علم المناسبات وموضوعات الإعجاز اللغوى - ولدقة هذا الوجه من وجوه الترابط

---

(١) الأنفال، ص١٠٨/١.

الذى تنتهى فيه الآية قبل انتهاء المعنى فقد خفى على الباحثين ممن لا يجيدون معرفة فنون اللغة ووجوه الإعجاز البلاغى حتى زعم بعضهم أن ذلك راجع إلى الحرص على تحقيق مشاكلة الفاصلة. وهو زعم طالما يردده الجهال (بالإعجاز القرآنى) كلما أعياهم الفهم وغلب عليهم الجهل(١)

وإذا تأملنا الشواهد نجد أن الزعم بمشاكلة الفاصلة زعم باطل وفى الشاهد الأول مثلاً نرى أنه من الممكن أن تنضم الآيتان (٤ . ٥) معا فى آية واحدة لتستكملا المعنى فى آية واحدة مع تحقق مشاكلة الفاصلة بين الآيات معًا والآية التى تليهما وذلك فى قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون:٤-٧] وذلك بين «ساهون» وهى فاصلة الآية ٥ والفواصل الأخرى (يراءون)... (الماعون) إذن فليس انتهاء الآية قبل استكمال المعنى مرده إلى توخى مشاكلة الفاصلة والنظم الغنائى كما يتوهم الجاهلون وفى الشاهد القرآنى من سورة الماعون وهو الشاهد الأول نرى والله أعلم - أن إنهاء الآية قبل انتهاء المعنى جاء ليحقق وجهًا من وجوه التبيان القرآنى(٢).

ثانيا : الترابط الخفى :

وهذا الترابط يحتاج إلى الكشف عنه وبيان مناسبته «وهذا الخفاء ينشأ عن ظهور كل جملة مستقلة عن الأخرى، أو أن الثانية خلاف الأخرى وفى كلتا الحالتين: إما أن تكون الثانية معطوفة على الأولى: أو لا: فإن كانت الثانية معطوفة على الأولى فإن العطف يرجع إلى جهة جامعة بين الجملتين: كالتضاد فى قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤] فالتضاد هنا بين (يلج - ويخرج) (ينزل - ويعرج)، وشبه التضاد بين السماء والأرض فينكب المسلم انكباباً على المعنى

---

(١) ما لخصه الدكتور زكى مبارك بقوله: يظهر أن القرآن نظم نظمًا غنائيًا، وأن ترتيله كان ملحوظًا فى أوضاعه النهائية بدليل أن كثيراً من الآيات ينتهى قبل أن ينتهى المعنى المطلوب «الصوفية فى القرن العشرين»، ص ١٠٩.

(٢) انتهت الآية بمعنى عجيب «فويل للمصلين» يقف عنده السامع والقارئ للقرآن فى نقطة فكرية وإثارة ذهنية لا تتوقفان إلا بعد الآية التالية ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ .

المقصود وهو «الويل لمن يسهون عن صلاتهم» فلا يغيب عنه المعنى أبداً، أى أن وجه الإعجاز فى إنهاء الآية قبل إنهاء المعنى هو من قبيل الإثارة الذهنية ولفت النظر، وهو أسلوب بيانى يحفل به القرآن الكريم، ويعتبر من وجوه الإعجاز البيانى.

ومثل هذا اللون فى القرآن كثير من ذكر: الرحمة والعذاب، والرغبة والرهبة ....إلخ.

وإن لم تكن الثانية معطوفة على الأولى، فإن بينهما قرائن معنوية توحى بنوعية الربط بين الجملتين، وهذا النوع من الربط يسميه الزركشى: مزجًا معنويًا كما يسمى الربط بين الجملتين المزوجتين مزجًا لفظياً».[1]

«وهذا الربط بين الجملتين غير المعطوفتين له أسباب منها :

التنظير، والتضاد، والاستطراد»:[2]

١- التنظير: ضربوا له مثلاً قوله تعالى فى سورة الأنفال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ [الأنفال:٥] بعد قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:٤]...

والآيات الكريمة تشير إلى موقف المسلمين من الغنائم وتشير إلى أن ما وقع هو الحق الذى لم يقفوا على أسراره، ولم يعرفوا حكمته، فلذلك كانت كراهتهم له... ونظيره الصورة الأخرى التى عرضتها نفس السورة وهو خروجهم لبدر ورغبتهم فى الحصول على العير، وكراهتهم فى لقاء عدوهم، ولكنه تبدَّى لهم بعد انجلاء المعركة أن الحق فيما أراد الله من لقائهم لعدوهم فى يوم بدر، وذلك فى قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال:٧].

٢- التضاد: مثلوا له بالآيات الأولى من سورة البقرة فى قوله تعالى ﴿الم ① ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا

(١) راجع البرهان جـ ١، ص ٤٦.

(٢) دراسات قرآنية، ص ٤٦.

رزقناهم ينفقون (٣) والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون (٤) أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون (٥) إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون (٦) ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾ [البقرة:١-٧].

فإن الآيات بدأت بالحديث عن القرآن وأنه حق، ثم عقبت بالحديث عن المؤمنين، وعرضت بعضًا من صفاتهم، ثم عرضت موقف الكافرين من القرآن، وفى الإتيان بالحديث عنهم بعد الحديث عن المؤمنين نوع من الارتباط يقوم على التضاد بين الإيمان والكفر، والمؤمنين والكافرين.

٣- الاستطراد: مثلوا له بقوله تعالى ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسًا يواري سوءاتكم وريشًا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾ [الأعراف:٢٦].

يقول الزمخشرى فى الكشاف، فى ختام تفسيره لهذه الآية «وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد، عقب ذكر بُدو السوءات، وخصف الورق عليها، إظهاراً للسنة فيما خلق من اللباس، ولما فى العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى»(١).

الموضوع الثانى وجوه المناسبات بين السور

اهتم العلماء بالبحث عن المناسبات التى تربط بين السور بعضها ببعض ولكن ذلك يحتاج إلى دقة نظر وإدراك نافذ لسر التعبير القرآنى، لهذا لم يقدم على دراسة هذا الفن إلا قلة من أفذاذ العلماء كما ذكرنا آنفًا. حتى إن الشيخ أبا بكر النيسابورى- من علماء الشافعية فى أواخر القرن الثالث الهجرى - كان يأخذ على علماء عصره عدم فطنتهم إلى هذه الأسرار فى فهم الكتاب العزيز».

ومازال هذا الفن فى حاجة إلى جهود الأفذاذ من علماء التفسير فكما قال الإمام فخر الدين الرازى «أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط».

---

(١) تفسير الكشاف حـ ١، ص ٦٧، مطبعة الاستقامة الطبعة الأولى ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦م.

الوجه الأول: المناسبة بين الخواتيم والبداية. ومن أمثلة ذلك[١]

١- المناسبة بين ختام سورة الفاتحة وبداية سورة البقرة:

ففى افتتاح سورة البقرة يقول تعالى ﴿آلم ۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١-٢] فإنه إشارة إلى الصراط فى قوله تعالى من سورة الفاتحة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] كأنهم سألوا الله الهداية إلى الصراط المستقيم فقيل لهم: ذلكم الصراط الذى سألتم الهداية إليه هو الكتاب.

٢- الارتباط بين ابتداء سورة الأنعام وآخر سورة المائدة: فإن آخر سورة المائدة يشير إلى فصل القضاء الذى سيكون بين الناس يوم القيامة حسب ما انطوت عليه قلوبهم من صدق الإيمان وأن تلك السموات والأرض وما بينهن لله وحده. هذا المعنى الذى ختمت به سورة المائدة يتناسب غاية التناسب مع ابتداء سورة الأنعام: بحمد الله الذى خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، وعرض صور من قدرة الله فى الوجود وفى الخلق، وفى علمه اللطيف الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء: وحتى تظهر صورة التناسب فإننا نضع أمام القارئ الكريم بعض الشواهد فيما يلى:

فى ختام سورة المائدة، يقول تعالى ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١١٩ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١١٩-١٢٠].

وفى أول سورة الأنعام يقول تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١-٢].

وعند التأمل فى الآيات نجد المناسبة واضحة بين الصورة التى عرضها القرآن الكريم فى آخر المائدة والتى عرضها فى أول الأنعام: ففى الأولى: يُعرض الناس على

(١) انظر دراسات قرآنية، ص ٣٩.

الله سبحانه وتعالى يوم القيامة فيجازيهم على أعمالهم حسب ما وقر فى قلوبهم من صدق اليقين، وسينال الصادقون جزاء عظيمًا يتمثل فى أوجه النعيم التى منها جنات تجرى من تحتها الأنهار يتوجها رضوان الله الذى له ملك السموات والأرض وما فيهن. وهذه الصورة تقتضى كما جاء فى الثانية - أى أول الأنعام - الحمد لله الذى من مظاهر قدرته خلق السموات والأرض وتقدير الظلمات والنور - وخلق الإنسان من طين، وتقدير أجله، هذا الإله الخالق القادر العالم جدير بأن يعبد ويوحد وتتجه الفطرة السليمة إلى تمجيده بالعبودية له وحده.

فانظر إلى هذا التناسب بين خواتيم المائدة وأوائل الأنعام.

٣- التناسب بين آخر سورة الإسراء وأول الكهف:

تنتهى سورة الإسراء بقوله تعالى ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ....﴾ [الإسراء:١١١]، وتبدأ سورة الكهف بقوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ....﴾ [الكهف:١]، وتنتهى سورة الإسراء فى نفس الآية بقوله تعالى ﴿الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا...﴾ [الإسراء:١١١] ويأتى قوله تعالى فى أوائل الكهف ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف:٤]. فتأمل هذا الترابط بين آخر الإسراء وأول الكهف.

٤- التناسب بين آخر سورة مريم وأول سورة طه:

وتأخذ المناسبة عدة وجوه، منها:

(١) كثرة ترديد اسم ﴿الرَّحْمَنُ﴾ فى سورة مريم بعامة وفى الآيات الأخيرات بخاصة، فمن الآية (٨٥) إلى الآية (٩٦) وهى ما قبل آخر السورة بآيتين ذكر لفظ الجلالة ﴿الرَّحْمَنُ﴾ سبع مرات وذلك من قوله تعالى ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم:٨٥] إلى قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦]. ويناسب ذلك ذكر لفظ الجلالة ﴿الرَّحْمَنُ﴾ فى بداية سورة (طه) فى قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] وذلك لما سبق تكراره فى خواتيم الآيات بسورة مريم، وكان التعقيب بقوله تعالى ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه:٨].

(٢) الآية (٩٧) قبل الأخيرة من سورة مريم ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم:٩٧] تناسبها الآيتان (٢)، (٣) من سورة طه ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه:٢-٣]. والمناسبة واضحة بين الآيات فى سورة (مريم وطه) حيث تتحدث عن القرآن الكريم الذى أنزله الله سبحانه وتعالى بلسان عربى مبين ليبشر به وينذر به صلوات الله وسلامه عليه، لا يشقى به ولكنه تذكرة لمن يخشى... فهل هناك أقوى من هذا الارتباط بين أواخر سورة مريم وأوائل سورة طه، وهل يتحقق ذلك الارتباط الوثيق بين السور إلا إذا كان ترتيبها قد تم بالعلم والحكمة، وتواجد المناسبات بين خواتيم السور وبداية السور التى تليها ليصبح القرآن متماسك البناء، ولا يتحقق ذلك إلا من لدن عليم حكيم هو الله سبحانه وتعالى الذى نزل القرآن بعلمه سبحانه وتعالى.

٥- التناسب بين آخر سورة طه وأول سورة الأنبياء:

يقول تعالى ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ...﴾ [طه:١٣٣] إلى قوله تعالى ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ [طه:١٣٥] الآية الأخيرة (١٣٥) من سورة طه وتليها سورة الأنبياء وأولها ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء:١-٢] والمناسبة بين آخر سورة طه وأول سورة الأنبياء واضحة والترابط قوى ومتين: فهم يطالبون بالآيات وهم منكرون ومتربصون، وقد جاءهم الرد السريع على ذلك فى أول سورة الأنبياء، باقتراب الحساب لهؤلاء المنكرين بل والمصرِّين على إنكارهم لكل ما يأتيهم من ذكر من ربهم، فكان مطالبتهم بالآيات كما جاء فى سورة طه، ما هى إلا مراوغة منهم والحقيقة أنهم مستمرون فى غيهم وضلاهم وذلك يظهر من الآيات الأولى من سورة الأنبياء.. فما أعظمها مناسبة وأقواه ترابط بين خواتيم سورة طه وأوائل سورة الأنبياء. وسبحان منزل القرآن بهذا الترابط وذلك البيان.

٦- التناسب بين آخر الواقعة وأول الحديد.

فقد انتهت سورة الواقعة بقوله تعالى ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٩٦]

وافتتحت سورة الحديد بقوله تعالى ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد:١] والمناسبة بين «فواتح السور وخواتمها فى كل سورة على حدة»: وضربوا أمثلة لذلك اللون من الارتباط فى سورة (ص)، فإنها بدئت بالذكر وختمت بالذكر:

يقول تعالى ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص:١] ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص:٨٧ ـ ٨٨].

وسورة (ن) فإن فى بدايتها ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم:٢] وفق ختامها: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القلم:٥١-٥٢].

الوجه الثانى: مناسبات الموضوعات وهى التى تتناولها السور بعضها عقب بعض، كما هو الحال فى سورة الفاتحة، والبقرة وآل عمران والنساء والمائدة، ونذكر ذلك باختصار[١]، فيما يلى:

«قال بعض الأئمة: وسورة الفاتحة تضمنت الإقرار بالربوبية والالتجاء إليه فى دين الإسلام والصيانة عن اليهودية والنصرانية.

وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين، وآل عمران مكملة لمقصودها، فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم، وآل عمران بمنزلة الجواب على شبهات الخصوم، ولهذا أورد فيها ذكر المتشابه لما تمسك به النصارى، وأوجب الحج فى آل عمران، وأما فى البقرة فذكر أنه مشروع، وأمر بإتمامه بعد الشروع فيه، وكان خطاب النصارى فى آل عمران أكثر، كما أن خطاب اليهود فى البقرة أكثر، لأن التوراة أصل، والإنجيل فرع لها.

وأما سورة النساء فتضمنت أحكام الأسباب التى بين الناس... وأما المائدة، فسورة العقود، تضمنت تمام بيان الشرائع، مكملات الدين، والوفاء بعهود الرسل،

---

(١) وكما يقولون فى مقصود السور بصورة عامة: «وسورة آل عمران تقرير مبدأ التوحيد - وسورة النساء: الاجتماع على التوحيد - وسورة المائدة: الوفاء بما هدى إليه الكتاب - وسورة الأنعام: الاستدلال على ما دعا إليه الكتاب - وسورة الأعراف: إنذار من أعرض عما دعا إليه الكتاب» الأصلان فى علوم القرآن، ص ٢٣٨، ٢٣٩.

وما أخذ على الأمة، وبها تم الدين، فهى سورة التحميل، لأن فيها تحريم الصيد على المحرم الذى هو من تمام الإحرام، وتحريم الخمر الذى هو من تمام حفظ العقل والدين، وعقوبة المعتدين من السراق والمحاربين الذى هو من تمام حفظ الدماء والأموال، وإحلال الطيبات الذى هو من تمام عبادة الله تعالى.

ولهذا ذكر فيها ما يختص بشريعة محمد ﷺ : كالوضوء والتيمم والحكم بالقرآن على كل ذى دين، ولهذا أكثر فيها من لفظ الإكمال والإتمام، وذكر فيها أن من ارتد عوض الله بخير منها ولا يزال هذا الدين كاملاً، ولهذا ورد أنها آخر ما نزل فيها إشارات الختم والتمام. وهذا الترتيب بين هذه السور الأربع المدنيات من أحسن الترتيب.[١]

وما يقال كذلك عن تناسب الموضوع بين سور: ق، والذاريات، والطور[٢] وكذلك التقاء السورتين فى غرض واحد وذلك فى سورتى الضحى وألم نشرح.

الوجه الثالث: مناسبة طول السور وقصرها: وقد تحدثنا سابقًا عن تقسيم السور القرآنية: إلى أربعة أقسام: الطُّوَل، والمثين، والمثانى والمفصل: (والمفصل طوال، وأوساط وقصار).

وقد تجمعت - بالقرآن الكريم - سور كل قسم بعضها بجوار بعض:

بدأ بالسبع الطوال، ثم المثين، ثم المثانى، ثم المفصل، وذلك باستثناء (فاتحة الكتاب) التى جاءت أول سورة فى المصحف.

وبذلك تجاورت السور وكونت ترابطًا تدريجيًا يبدأ - كما ذكرنا بالسور الطوال

---

(١) الم: سورة البقرة، وتليها آل عمران - سورة العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة، وجاءت متعاقبة يونس، هود، يوسف (سورة مكية) وفصلتها سورة الرعد المدنية المبتدئة، (المر)، وأعقبتها سورة إبراهيم والحجر وتبدأ (الر).

(٢) «وسورة (ق): تصديق النبى ﷺ فى الرسالة التى معظمها الإنذار بيوم الخروج - وسورة الذاريات: الدلالة على صدق ما أنذرت به سورة (ق) تصريحًا وبشرت به تلويحًا ولا سيما من مصائب الدنيا وعذاب الآخرة - وسورة الطور: تحقيق وقوع العذاب الذى هو مضمون الوعيد (والقسم) على وقوعه فى الذاريات هو مضمون الإنذار المدلول على (صدقه) فى (ق)» الأصلان فى علوم القرآن ص ٢٤٤، ٢٤٥.

وينتهى بالسور القصار. وتحققت المناسبة فى حجم السور بهذا التدرج الذى هو يخالف التدرج المألوف فى مصنفات البشر التى يراعى فيها التدرج فى الموضوعات من السهل إلى الصعب ومن البسيط إلى المركب. وفى هذه المخالفة الشكلية عن تصانيف البشر حِكَم تحتاج إلى التدقيق لإبراز الإعجاز القرآنى فى ترتيب السور مما يؤكد أنه ترتيب توقيفى. ولعل من حِكَم هذا الأسلوب القرآنى فى ترتيب السور بَدْءاً بالطوال وانتهاء بقصار القصار، أن يكون ذلك الترتيب متمشيًا مع نشاط القارئ ومراعيًا لظروفه النفسية التى تبدأ بالهمة والحماس، وتنتهى بالتراخى والفتور إلا من عصم الله وأدام عليهم نعمة المثابرة والصبر. وذلك الترتيب يحتاجه القارئ الحافظ لكتاب الله.

أما فى حالة بدء التعليم والقراءة للقرآن الكريم فإن التدرج فى التعليم والحفظ يبدأ بآخر القرآن من سورة الناس ويتجه تصاعديًا نحو السور الأكثر طولاً، وقد أمكن تحقيق ذلك حيث إن ترتيب السور يصبح من أوله فى ترتيب تنازلى ويصبح من آخره فى ترتيب تصاعدى، وسبحان الله العليم الحكيم.

الوجه الرابع: مناسبة وجود الحروف بأوائل السور.

فقد تجاورت بالمصحف سبع سور تبدأ (حم) وهى سور: (حم - غافر)، (حم - فصلت)، (حم الشورى)، (حم - الزخرف) (حم - الدخان)، (حم - الجاثية)، (حم - الأحقاف).

ولعل فى ذلك التجاور لهذه السور السبع المبتدئة بـ (حم)، سر لم يصل إليه الباحثون فى علوم القرآن، حتى الآن.

وكذلك سور المسبحات، وهى متقاربة أو متجاورة :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الحديد: ١]

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الحشر: ١]

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الصف: ١]

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الجمعه: ١]

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [التغابن: ١]

ويلاحظ أن الثلاثة الأول بلفظ الماضى - والأخيرتين بلفظ المضارع.

الوجه الخامس مناسبة فضائل التلاوة معاً فقد ورد فى الأحاديث فضل تلاوة بعض السور معاً وقد جاءت متجاورة فى المصحف ومن ذلك:

مارواه البخارى عن ابن مسعود أنه ﷺ قال فى سور: بنى إسرائيل (الإسراء)، والكهف، ومريم وطه والأنبياء، إنهن من العتاق[1] الأول وهن من التلاد[2]، فذكرها النبى ﷺ كما هى فى المصحف، ويلاحظ أن السور الخمس متجاورة.

وروى مسلم أنه ﷺ قال: «اقرءوا الزهراوين: البقرة وآل عمران» والسورتان متجاورتان .

وروى البخارى أنه ﷺ كان إذا آوى إلى فراشه جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ: قل هو الله أحد والمعوذتين، ويلاحظ أن هذه السور الثلاثة متجاورة فى المصحف.

ومما سبق يتبين أن الرسول ﷺ قد ذكر لبعض السور المتجاورة فضائل مشتركة كما بين ودعا إلى القراءة أو التعوذ بسور متجاورة، لما فى ذلك من فضائل وفوائد والله أعلم.

****

---

(١) العتاق: جمع عتيق، وهو القديم من كل شىء، والمراد بالعتاق هنا ما نزل أولاً، أو أنهن من قديم ما نزل.

(٢) والتلاد، بكسر التاء وفتحها - ضد الطارف، وهو المستحدث من المال ونحوه، والمراد بالتلاد هنا أنهن من أول ما حفظ من السور.

الفصل الرابع

سور القرآن الكريم: المكية والمدنية

من المعلوم أن بعثة سيدنا محمد ﷺ استغرقت ثلاثة وعشرين عامًا تقريبًا، قضى منها الرسول ﷺ ثلاث عشرة سنة تقريبًا بمكة، وعشر سنين بالمدينة المنورة، ثم انتقل صلوات الله وسلامه عليه إلى الرفيق الأعلى عن ثلاثة وستين عامًا وقد توالى نزول القرآن الكريم على رسول الله ﷺ وحيًا منجمًا منذ أول يوم من البعثة إلى أسابيع قلائل قبل وفاته صلوات الله وسلامه عليه.

ومن المعلوم والثابت أن جزءاً من القرآن تنزل بمكة، وجزءاً آخر تنزل بالمدينة أو بمعنى آخر تنزل جزء من القرآن قبل الهجرة إلى المدينة وتنزل جزء بعد الهجرة.

المبحث الأول

تحديد المكى والمدنى

قواعد التحديد:

أولاً : عند أكثر أهل العلم فإن المكى من القرآن الكريم - أى الوحى المكى - هو ما تنزل من القرآن قبل الهجرة، سواء كان بمكة أم بغيرها.

والمدنى من القرآن الكريم - أى الوحى المدنى - هو ما تنزل بعد الهجرة سواء كان بالمدينة أم بغيرها.

ولوحظ فى هذا التحديد حداً زمنيًا فاصلاً وهو زمن الهجرة، وهو تحديد صحيح لأنه ضابط حاصر. وهذا هو أشهر الأقوال وأضبطها، والاصطلاح الذى عليه أكثر أهل العلم، والذى استقر عليه توصيف السور وتقسيمها إلى السور المكية، والسور المدنية.

ثانيا: اصطلاحان آخران، وهما:

١- المكي: ما نزل بمكة، ولو بعد الهجرة، ويدخل في مكة ضواحيها، كالمنزل على النبي ﷺ: بمنى، وعرفات، والحديبية.

والمدني: ما نزل بالمدينة وضواحيها، كالمنزل في بدر وفي أحد. وهذا التقسيم لوحظ فيه مكان التنزل، وهو تقسيم غير ضابط ولا حاصر، لأنه لا يشمل ما نزل بغير مكة والمدينة وضواحيهما، كالذي نزل في سفر من الأسفار، أو في قبول، مما يترك قسمًا لا يطلق عليه مكي أو مدني.

٢- المكي: ما وقع خطابًا لأهل مكة، سواء بمكة أو بالمدينة أو بغيرهما وسواء كان قبل الهجرة أو بعدها.

والمدني: ما لم ينزل في شأن المكيين، ومن على شاكلتهم من عبدة الأصنام.

وهذا أبعد الثلاثة عن الحصر والضبط، لأنه يصعب أحيانًا معرفة حال الخطاب، هل هو موجه إلى المكيين أم إلى المدنيين، كما أن السورة الواحدة قد تكون في المكيين والمدنيين معًا.

ومعرفة المكي والمدني لم يرد به نص عن رسول الله ﷺ، وإنما قال به الصحابة والتابعون من معاصريهم، أو سؤال المتأخرين للمتقدمين عن موعد النزول، ولهذا فإن التقسيم إلى مكي ومدني ليس توقيفيًا، فالاجتهاد قد حدث لمعرفة السور المكية والسور المدنية وما دام هناك اجتهاد فالاختلاف متوقع في وضع قواعد التقسيم إلى المكي والمدني.

وعلى أي حال فالمشهور والمعمول به هو التقسيم الزمني.

ويلاحظ أن هناك آيات مدنية ملحقة توقيفيًا بسور مكية، مثال ذلك: سورة الأعراف وهي مكية وعدد آياتها ١٥٣ آية، وملحق بها الآيات المدنية: ٢، ٢٣، ٩١، ٩٣، ٩٤، ١٤١، ١٥٢، ١٥٣ (ثماني آيات) كما أن هناك آيات مكية ملحقة توقيفيًا بسور مدنية، مثال ذلك: سورة التوبة وهي مدنية وآياتها ١٢٩، وملحق بها آيتان مكيتان هما: رقم ١٢٨، ١٢٩.

غير أن السور تكون مكية على حسب الغالب من آياتها المنزلة بمكة، وتكون

مدنية على حسب الغالب من آياتها المدنية. وفى كلا الحالتين تكون الآيات الملحقة الخالفة لزمن تنزل السورة، قليلة العدد، كما يتبين فى الأمثلة.

وللحقيقة، فإن معرفة المكى والمدنى لم يرد به نص عن رسول الله ﷺ « وإنما لم يفعل ذلك - صلوات الله وسلامه عليه - لأنه لم يؤمر به، ولم يجعل الله تعالى معرفة ذلك من فرائض الدين التى يلزم المكلف العلم بها، ويضره الجهل بها، ولأن الصحابة كانوا فى غنى عن هذا البيان لأنهم شاهدوا الوحى والتنزل، وحضروا مكانه وزمانه ووقفوا على أسباب النزول ومقتضياته إذاً: يكون السبيل الوحيد الموصل لمعرفة المكى والمدنى هو النقل الصحيح عن الصحابة والتابعين»[١] انتهى.

ويلاحظ أن صحف القرآن النبوية، وصحف القرآن البكرية ومصاحف عثمان، كانت خالية من البيانات عن المكى والمدنى.

أماكن وأوقات وأسباب النزول :

حرص العلماء فى العصور التى تلت عصر الصحابة والتابعين وفى إطار علوم القرآن على الاستقصاء ما وسعهم الفكر والوقت وعلى محاولة التعرف على أمور تفصيلية عن القرآن الكريم لم يكن الصحابة قد نقلوها عن رسول الله ﷺ، ولم يكن التابعون قد نقلوها عن الصحابة رضوان الله عليهم، مما جعل النقل الصحيح عن الصحابة غير متحقق، فحدث الاجتهاد فى معرفة هذه التفاصيل وتعددت الآراء، وتولدت الاختلافات، ومن هذه التفاصيل عن معرفة أحوال القرآن: أماكن وأوقات وأسباب تنزله. ولن يكون الخلاف حول تلك المعلومات ماسًا بالنص القرآنى أو بالشكل القرآنى من حيث ترتيب الآيات داخل السور، ومن حيث ترتيب السور بعضها بجوار بعض، ومن حيث ترتيب القرآن على الأحرف السبعة إلى غير ذلك من أساسيات القرآن الكريم التى تحقق نقلها وحفظها توقيفًا وتواتراً عن رسول الله ﷺ.

«وفى مجال تفاصيل المعرفة عن أمور تتعلق بالقرآن الكريم ما نقله الزركشى عن محمد بن جايب النيسابورى قال: من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته وترتيب ما نزل بمكة ابتداء ووسطًا وانتهاء، وترتيب ما نزل بالمدينة. كذلك. ثم ما نزل بمكة وحكمه مدنى، وما نزل بالمدينة وحكمه مكى، وما نزل بمكة فى أهل المدينة وما نزل بالمدينة فى أهل مكة، ثم ما يشبه نزول المكى فى المدنى، وما يشبه نزول المدنى فى

(١) تاريخ المصحف الشريف ص ١٠١.

المكى، ثم ما نزل بالجحفه وما نزل بالطائف وما نزل بالحديبية، ثم ما نزل ليلاً وما نزل نهاراً وما نزل شيعًا وما نزل مفرداً، ثم الآيات المدنيات فى السور المكية والآيات المكيات فى السور المدنية، وما حمل من مكة إلى المدينة وما حمل من المدينة إلى مكة، ثم ما نزل مجملاً وما نزل مفسراً وما نزل مرموزا، ثم ما اختلفوا فيه - فقال بعضهم: مدنى، هذه خمسة وعشرون وجها من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتعلم فى كتاب الله تعالى»[1] وقد بلغ من اهتمام العلماء بأمر القرآن ونزوله أنهم عينوا الآيات والسور التى نزلت فى أماكن مختلفة فى البوادى والحواضر، ولذلك جعلوا منها قسمًا خاصًا سموه معرفة الحضرى والسفرى، وما أوحى بالليل وما أوحى بالنهار وسموه النهارى والليلى، وما أوحى فى الصيف وما أوحى فى الشتاء وسموه الصيفى والشتوى.

وقد ترتب على الاهتمام بأمر القرآن من جانب الباحثين فى علوم القرآن ومحاولة التعرف على مثل هذه التفاصيل اجتهادات فى البحث، واختلافات فى الرأى حيث إن العلم بتلك التفاصيل لم يكن توقيفيًا أو عن نصوص صحيحة منقولة عن الصحابة، ولهذا فإننا ننبه بشدة إلى أن الاختلاف فى هذه التفاصيل، والخلاف حولها من جانب العلماء لا يمس القرآن الكريم لا من قريب ولا من بعيد غير أن تلك الاختلافات فى التفاصيل، والتباين فى المعلومات أحيانًا قد يفتح ثغرة لإلقاء الشبهات من خلال علوم القرآن من جانب أعداء الإسلام والجهلة بعلوم القرآن ممن يلجأون إلى التأويل والتحليل والاستنباط كأسلوب بحثى معاصر يتجهون به إلى إفراغ أهوائهم وأفكارهم وتغريراتهم، ولهذا فنحن نحذر من أن يتورط علماء المسلمين فى تفاصيل عن أمور القرآن الكريم غير ثابتة بالنقل الصحيح عن الصحابة أو مرفوعة إلى رسول الله ﷺ مما يؤدى بين الباحثين إلى الاختلاف فيما لا يجدى فيه الاجتهاد والخلاف ويظن الجهلة أنه اختلاف حول القرآن نفسه.

مثال ذلك: الاختلاف حول مكان نزول بعض السور فبعضهم يراه نزل بمكة والبعض الآخر يرى أنه نزل بالمدينة.

حتى وصل بهم الحال حين اعتمدوا على الرأى أن اختلفوا حول فاتحة الكتاب وقال بعضهم بأنها مدنية، مع أن الصلاة شرعت فى مكة، وكانت قراءة الفاتحة ركنًا

---

(١) البرهان جـ ١، ص ١٩٢.

من أركان الصلاة، وهى من أوائل ما نزل من السور المكية، فكيف يصل الحال بهؤلاء القائلين بأن الفاتحة مدنية إلى التغافل عن هذا القدر العظيم من الحقائق والمعلومات الصحيحة الثابتة جريًا وراء الرأى والاجتهاد وإثارة القضايا الفكرية فى أكثر الأمور ثبوتًا وتواتراً، .. وهذا ما أردنا أن ننبه إليه ونحذر منه وهو: الإغراق فى التفاصيل، والافتتان بالرأى، والأخذ بالروايات والأقوال الضعيفة.

جداول ترتيب السور حسب نزولها بقسميها المكى والمدنى

لقد قمنا بعمل جداول لترتيب السور حسب نزولها بقسميها المكى والمدنى وذلك بالاعتماد على البيانات الواردة بالمصاحف.

ووجود ترتيب للسور حسب نزولها يختلف عن ترتيب السور بالقرآن مقطوع به وكلاهما توقيفى عن رسول الله ﷺ ، الاختلاف بينهما أن ترتيب السور بالمصاحف قد وصلنا بالتواتر مكتوبًا بالمصاحف ومحفوظًا فى الصدور فأصبح العلم بهذا الترتيب علمًا يقينًا. أما ترتيب السور حسب النزول، فلم ينقل إلينا متواتراً بنفس قوة النقل لترتيب السور بالمصحف، كما أن وجوب العلم به لم يكن واقعًا حيث إنه لا يشترط فى كتابة المصحف حسب ترتيب النزول ولكن يشترط كتابته حسب ما استقر عليه ترتيب السور بأمر رسول الله ﷺ .

غير أننا قصدنا من ترتيب السور حسب النزول فى جداول، ليكون ذلك من مواد البحث عند الحديث عن صفات الآيات والسور القرآنية وحتى نستعين بهذا الترتيب الزمنى فى مناقشة تلك الدراسات التصنيفية اتجهت إلى وضع قواعد وصفية جعلت للقرآن ازدواجية فى شكل الآيات وشكل السورة، والموضوع والمعنى، وجعلت ذلك متدرجًا ومتفاوتًا بين السور المكية والسور المدنية مما فتح الطريق أمام بعض الجهلة من الباحثين فى علوم القرآن من أعداء الإسلام إلى الاختلاف والطعن.

ونحن نقرر أن ترتيب السور حسب النزول وإن كان قد تم بأمر رسول الله ﷺ حال كان الوحى ينزل بالقرآن إلا أن الترتيب قد استقر على وضعه الحالى بأمر من رسول الله ﷺ. وتقرر أن العلم بالترتيب حسب النزول هو من خلال ما عرف بالنقل ولهذا فقد يوجد بعض الخلاف فى ذلك الترتيب ولكنه خلاف لآراء ضعيفة وما كان يجب أن تكون.

وفيما يتعلق بما ورد فى الجداول من الترتيب الزمنى فهو كما قلنا جاء حسب ما هو وارد بالمصاحف.

جداول ترتيب السور حسب النزول

م	الرقم بالمصحف	اسم السورة	عدد الآيات	م	الرقم بالمصحف	اسم السورة	عدد الآيات
أولاً : السور المكيـة :							
١	٩٦	سورة العلق	١٩	٢٣	٥٣	سورة النجم	٦٢
٢	٦٨	سورة القلم	٥٣	٢٤	٨٠	سورة عبس	٤٢
٣	٧٣	سورة المزمل	٢٠	٢٥	٩٧	سورة القدر	٥
٤	٧٤	سورة المدثر	٥٦	٢٦	٩١	سورة الشمس	١٥
٥	١	سورة الفاتحة	٧	٢٧	٨٥	سورة البروج	٢٢
٦	١١١	سورة المسد	٥	٢٨	٩٥	سورة التين	٨
٧	٨١	سورة التكوير	٢٩	٢٩	١٠٦	سورة قريش	٤
٨	٨٧	سورة الأعلى	١٩	٣٠	١٠١	سورة القارعة	١١
٩	٩٢	سورة الليل	٢١	٣١	٧٥	سورة القيامة	٤٠
١٠	٨٩	سورة الفجر	٣٠	٣٢	١٠٤	سورة الهمزة	٩
١١	٩٣	سورة الضحى	١١	٣٣	٧٧	سورة المرسلات	٥٠
١٢	٩٤	سورة الشرح	٨	٣٤	٥٠	سورة ق	٤٥
١٣	١٠٣	سورة العصر	٣	٣٥	٩٠	سورة البلد	٢٠
١٤	١٠٠	سورة العاديات	١١	٣٦	٧٦	سورة الطارق	١٧
١٥	١٠٨	سورة الكوثر	٣	٣٧	٥٤	سورة القمر	٥٥
١٦	١٠٢	سورة التكاثر	٨	٣٨	٣٨	سورة ص	٨
١٧	١٠٧	سورة الماعون	٧	٣٩	٧	سورة الأعراف	٢٠٦
١٨	١٠٩	سورة الكافرون	٦	٤٠	٧٢	سورة الجن	٢٨
١٩	١٠٥	سورة الفيل	٥	٤١	٣٦	سورة يس	٨٣
٢٠	١١٣	سورة الفلق	٥	٤٢	٢٥	سورة الفرقان	٧٧
٢١	١١٤	سورة الناس	٦	٤٣	٣٥	سورة فاطر	٤٥
٢٢	١١٢	سورة الإخلاص	٤	٤٤	١٩	سورة مريم	٩٨

م	الرقم بالمصحف	اسم السورة	عدد الأيات
٤٥	٢٠	سورة طه	١٣٥
٤٦	٥٦	سورة الواقعة	٩٦
٤٧	٢٦	سورة الشعراء	٢٢٧
٤٨	٢٧	سورة النمل	٩٣
٤٩	٢٨	سورة القصص	٨٨
٥٠	١٧	سورة الإسراء	١١١
٥١	١٠	سورة يونس	١٠٩
٥٢	١١	سورة هود	١٢٣
٥٣	١٢	سورة يوسف	١١١
٥٤	١٥	سورة الحجر	٩٩
٥٥	٦	سورة الأنعام	١٦٥
٥٦	٣٧	سورة الصافات	١٨٢
٥٧	٣١	سورة لقمان	٣٤
٥٨	٣٤	سورة سبأ	٥٤
٥٩	٣٩	سورة الزمر	٧٥
٦٠	٤٠	سورة غافر	٨٥
٦١	٤١	سورة فصلت	٥٤
٦٢	٤٢	سورة الشورى	٥٣
٦٣	٤٣	سورة الزخرف	٨٩
٦٤	٤٤	سورة الدخان	٥٩
٦٥	٤٥	سورة الجاثية	٣٧
٦٦	٤٦	سورة الأحقاف	٣٥
٦٧	٥١	سورة الذاريات	٦٠
٦٨	٨٨	سورة الغاشية	٢٦
٦٩	١٨	سورة الكهف	١١٠
٧٠	١٦	سورة النحل	١٢٨
٧١	٧١	سورة نوح	٢٨
٧٢	١٤	سورة إبراهيم	٥٢
٧٣	٢١	سورة الأنبياء	١١٢
٧٤	٢٣	سورة المؤمنون	١١٨
٧٥	٣٢	سورة السجدة	٣٠
٧٦	٥٢	سورة الطور	٤٩
٧٧	٦٧	سورة الملك	٣٠
٧٨	٦٩	سورة الحاقة	٥٢
٧٩	٧٠	سورة المعارج	٤٤
٨٠	٧٨	سورة النبأ	٤٠
٨١	٧٩	سورة النازعات	٤٦
٨٢	٨٢	سورة الانفطار	١٩
٨٣	٨٤	سورة الانشقاق	٢٥
٨٤	٣٠	سورة الروم	٦٠
٨٥	٢٩	سورة العنكبوت	٦٩
٨٦	٨٣	سورة المطففين	٣٦

ثانيًا : السور المدنية :

م	الرقم بالمصحف	اسم السورة	عدد الآيات
١	٢	سورة البقرة	٢٨١
٢	٨	سورة الأنفال	٧٥
٣	٣	سورة آل عمران	٢٠٠
٤	٣٣	سورة الأحزاب	٧٣
٥	٦٠	سورة الممتحنة	١٣
٦	٤	سورة النساء	١٧٦
٧	٩٩	سورة الزلزلة	٨
٨	٥٧	سورة الحديد	١٩
٩	٤٧	سورة محمد ﷺ	٣٨
١٠	١٣	سورة الرعد	٤٣
١١	٥٥	سورة الرحمن	٧٨
١٢	٧٦	سورة الإنسان	٣١
١٣	٦٥	سورة الطلاق	١٢
١٤	٩٨	سورة البينة	٨
١٥	٥٩	سورة الحشر	٢٤
١٦	٢٤	سورة النور	٦٤
١٧	٢٢	سورة الحج	٧٨
١٨	٦٣	سورة المنافقون	١١
١٩	٥٨	سورة المجادلة	٢٢
٢٠	٤٩	سورة الحجرات	١٨
٢١	٦٦	سورة التحريم	١٢
٢٢	٦٤	سورة التغابن	١٨
٢٣	٦١	سورة الصف	١٤
٢٤	٦٢	سورة الجمعة	١١
٢٥	٤٨	سورة الفتح	٢٩
٢٦	٥	سورة المائدة	١٢٠
٢٧	٩	سورة التوبة	١٢٩
٢٨	١١٠	سورة النصر	٣

جدول مقارنات

م	موضوع المقارنة	المكى	المدنى
١	مدة نزول الوحى بالقرآن الكريم	١٣ سنة تقريباً	١٠سنوات تقريباً
٢	عدد السور	٨٦ سورة	٢٨ سورة
٣	عدد السور الطوال	٢ سورتان	٥ سور
٤	عدد السور المئين	١٥ سورة	-------
٥	عدد السور المثانى (أكثر من ٥٠ آية)	١٤ سورة	٤ سور
٦	عدد السور المثانى (أقل من ٥٠ آية)	٤ سور	٣ سور
٧	عدد سور المفصل	٥١ سورة	١٦ سورة
٨	مجموع الآيات فى السور	٤٥٩٣ أية	١٥٨٨ آية
٩	عدد صفحات المصحف التى تشغلها الآيات	٣٣٤ صفحة	١٨٨ صفحة

المبحث الثانى
صفات الآيات والسور
[المكية والمدنية]

مقدمة:

من منطلق التقسيم الزمنى للقرآن الكريم إلى سور مكية وسور مدنية اجتهد العلماء وجدُّوا فى وضع علامات وأمارات يعرف بها المكى والمدنى وقاموا بوضع ضوابط ومقاييس للتفرقة بين المكى والمدنى[1]. واستطردوا فى مباحثهم، وأرْخوا العنان لعقولهم وأفكارهم حتى وصل الحال ببعضهم إلى افتعال فروق بينهما انتهت إلى تمييز واحد منهما على الآخر، وقالوا من أجل ذلك أقوالاً كثيرة.

وهكذا سارت محاولات التفرقة والتمييز التى بدأها العلماء المسلمون فى دراساتهم القرآنية مستخدمين قدراتهم العلمية واستنباطاتهم السليمة مع حسن النوايا وسلامة العقيدة، إلى أن جاء فريق آخر من الباحثين بقدرات علمية هابطة فى اللغة العربية وعلوم القرآن، وبعقائد فاسدة ونفوس حاقدة وجُلُّهم من أعداء الإسلام فاستغلوا هذا المنهج التصنيفى فى دراسة سور القرآن أسوأ استغلال وساروا بهذا التصنيف لسور القرآن نحو تأليف المطاعن واختلاق الشبهات. ونظروا فيما استنبطه علماء المسلمين من فروق[2] شكلية وبلاغية وموضوعية بين المكى والمدنى وقلبوها إلى مفاهيم أخرى من وجهة نظرهم كباحثين حتى قال بعضهم جهلاً وسفهاً: **«إن الباحث الناقد يلاحظ أن فى القرآن أسلوبين متعارضين لا تربط الأول بالثانى صلة ولا علاقة، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب خضع لظروف مختلفة وتأثر ببيئات متباينة، فنرى أن القسم المكى فيه يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة، كما**

---

(١) «وقد استنبط العلماء مميزات لكل من الوحى المكى والمدنى بعضها يتعلق بالشكل وبعضها يتعلق بالمعنى» دراسات قرآنية ص ٢٢ .

(٢) «ثم إن أعداء الإسلام صاغوا عن طريق بعضها شبهات سددوا سهامها إلى القرآن الكريم» مناهل العرفان ص ١٩٥.

تشاهد المدنى منه تلوح عليه أمارات الثقافة والاستنارة، فالقسم المكى يتفرد بالعنف والشدة والقسوة والحدة والغضب والسباب والوعيد والتهديد، مثل سورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] وسورة ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١، ٢] وسورة ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]...[١] انتهى. كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً. ولم يكن لهؤلاء الجهلة بعلوم القرآن والمتعالمين بما يدَّعونه من منهاج البحث العلمى، أقول: لم يكن لهم أن يتقولوا على القرآن الكريم وأن يقدموا أباطيل وجهالات ومفاهيم خاطئة، لولا أنهم وجدوا فى متناولهم مقولة واردة فى علوم القرآن، تفرق بين المكى والمدنى، وفق ملاحظات استنبطها علماء المسلمين وجعلوا منها قواعد وضوابط تقسم القرآن فى الشكل والمعنى، مما أخرجهم عن الحقيقة الواضحة: وهى أن القرآن كله جملة واحدة[٢] يرتبط أوله بآخره، وتتماسك آياته وسوره تماسكاً لا يجعل لتلكم الصفات أية دلالات تصنيفية لا فى الشكل ولا فى المعنى، خاصة وأن القرآن الكريم قد تباعد عن التصنيف - المكى والمدنى - بأن تمازجت سوره وآياته توقيفاً عن رسول الله ﷺ عن الوحى، فأصبحت السور المدنية والآيات المدنية بالمصحف متداخلة مع السور المكية والآيات المكية، حتى عادت صياغة القرآن الكريم - بعد انتهاء التنزيل واستقرار القرآن - إلى ما كان فى أصله القديم وذلك قبل تنزله مفرقاً ليعالج الأحداث ويساير الدعوة الإسلامية فى تعاليمها وتشريعاتها. وتناقش قضية التصنيف القرآنى وما تحدث به العلماء عن فوارق ومزايا القسمين المكى والمدنى فى الموضوعات التالية:

الموضوع الأول: الضوابط والعلامات والفروق

لقد اجتهد العلماء فى استنباط الفروق بين المكى والمدنى ونعرضها باختصار فيما يلى:

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٩.

(٢) قال عنه واحد من فصحاء قريش وهو الوليد بن المغيرة وهو مازال كافراً: «وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله» وكان الوحى مكياً فى ذلك الحين.

أولاً: شكل الآيات:

«نظم الوحى المكى - الآيات المكية - يغلب عليه قِصَر الجملة وسرعة الحركة»[(١)].

«أما ما نزل من القرآن بالمدينة، فإن آياته كان يغلب عليها الطول»[(٢)] ومن خواص القسم المدنى «سلوك الإطناب والتطويل فى آياته وسوره، وذلك لأن أهل المدينة لم يكونوا يضاهئون أهل مكة فى الذكاء والألمعية»[(٣)].

ثانياً: شكل السور:

السور المكية صغيرة ومن خواص القسم المكى «أنه سلك مع أهل مكة الإيجاز فى خطابه حتى جاءت السور المكية قصيرة الآيات صغيرة السور»[(٤)] «وكل سورة من المفصل فهى مكية... والمفصل - على وزن مُعظَّم: وهو السور الأخيرة من القرآن الكريم، مبتدأة من سورة الحجرات على الأصح وسميت بذلك لكثرة الفصل فيها بين السور بعضها وبعض من أجل قصرها..»[(٥)].

ثالثاً: فروق كلامية: ومنها:

١- «افتتاح السور بحروف التهجى مثل: الم، طسم، حم، ق، ن، فكل سورة أُفتتحت بحروف التهجى فهى مكية، إلا سورتين اثنتين: البقرة وآل عمران، فهما مدنيتان»[(٦)].

٢- «إن كل ما جاء «يا أيها الناس» فهو وحى مكى، وكل ما جاء يا أيها الذين آمنوا فهو وحى مدنى»[(٧)].

---

(١) دراسات قرآنية ص ٢٢.
(٢) المرجع السابق ص ٢٢.
(٣) مناهل العرفان ص ١٩٧.
(٤) المرجع السابق ص ١٩٦.
(٥) مناهل العرفان ص ١٩١.
(٦) تاريخ المصحف ص ١٠٢.
(٧) دراسات قرآنية ص ٢٣.

ويناقض ذلك القول أنه توجد سورة كاملة تسمى سورة المؤمنون وهى سورة مكية وأولها قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١].

كما أنه توجد سورة مدنية بدأت أول آية فيها بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فى قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] وهى سورة الحج المدنية - وسورة النساء مدنية.

وهى من طوال السور وبدأت بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

رابعاً: فروق فى الموضوع والمعنى:

١- «كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة فهى مكية سوى سورة البقرة، وكل سورة فيها قصص آدم وإبليس فهى مكية سوى البقرة»[1].

٢- كل سورة فيها الحدود والفرائض فهى مدنية، وكل سورة فيها إذن بالجهاد وبيان لأحكام الجهاد فهى مدنية.

٣- كثر فى القسم المكى ما يلى:

حمل على الشرك والوثنية وعلى المشركين الذين انحطوا فى تفكيرهم إلى الحضيض فى عباداتهم للأحجار والأصنام وشق أحلامهم، وناقشهم فى عقائدهم الضالة.

٤- كثر فى القسم المدنى:

التحدث عن دقائق التشريع وتفاصيل الأحكام وأنواع القوانين المدنية والجنائية والحربية والاجتماعية والدولية والحقوق الشخصية وسائر ضروب العبادات والمعاملات.

دعوة أهل الكتاب من يهود ونصارى إلى الإسلام، ومناقشة عقائدهم الباطلة.

وبعد.. فهذه جملة من الفروق بين السور المكية والسور المدنية التى ذكرها

---

(١) مناهل العرفان ص ١٩٠.

العلماء والباحثون المشتغلون بعلوم القرآن فى مؤلفاتهم وقد أوردناها مختصرة، ومن أراد المزيد فليرجع إلى هذه المؤلفات[١].

الموضوع الثانى: تعليلات للفروق بين المكى والمدنى

إذا ابتعد الباحث عن النظرة الموضوعية الشمولية، وتعمد بفكره وفهمه إلى نتيجة مسبقة نابعة من عواطفه وهواه، وتعامى مع الروايات الصحيحة وثوابت الأخبار، فغالباً ما تصدر عنه تفسيرات واستنباطات وتحليلات بعيدة كل البعد عن الصواب وحتى عن العقول، وحينئذ تفوح من دراسات أولئك الباحثين رائحة البهتان، وتغلب عليها طبيعة المنهجية المعكوسة فى التفسير والتأويل، فقد تصدر عن أولئك الباحثين تفسيرات لوقائع هى عكس التفسيرات الصحيحة[٢]. ولحقد فى نفوسهم وفساد فى ضمائرهم قد يرون الفضائل خرافات، والمبادئ تخلف وقد يرجع التناقض فى تفسير الوقائع وتعليل الأحداث إلى التناقض بين علم العلماء، ودقة الباحثين وأمانتهم فى مقابل الجهالة والحماقة وسوء المقاصد للفريق المخالف..

هذه مقدمة لابد منها لإلقاء الضوء على ما شاب التفسيرات والتعليلات وما صدر من استنباط فى مجال الدراسات للسور المكية والمدنية وفيما قام به العلماء من التقسيم والتصنيف.

أولاً: قصر الآيات والسور المكية، وطول الآيات والسور المدنية:

يقول العلماء: «إن [القرآن] سلك مع أهل مكة سبيل الإيجاز فى خطابه حتى جاءت السور المكية قصيرة الآيات صغيرة السور لأنهم كانوا أهل فصاحة ولسان، صناعتهم الكلام وهمتهم البيان، فيناسبهم الإيجاز والإقلال دون الإسهاب والإطناب»[٣].

---

(١) ومن هذه المؤلفات: البرهان - الإتقان - مناهل العرفان - دراسات قرآنية - تاريخ المصحف الشريف.... إلخ.

(٢) مثال ذلك تعليلهم لقصر السور والآيات المكية بالانحطاط الفكرى لأهل مكة مبيناً الحقيقة التى يجمع عليها كافة الباحثين أن أهل مكة وقت نزول القرآن كانوا أهل فصاحة وبيان وكانوا عالمين بأسرار اللغة ومعانيها وتعبيراتها..

(٣) مناهل العرفان ١٩٦، ١٩٧.

وأن «سلوك الإطناب والتطويل فى آياته وسوره [القسم المدنى] وذلك لأن أهل المدينة لم يكونوا يضاهئون أهل مكة فى الذكاء والألمعية وطول الباع فى الفصاحة والبيان، فيناسبهم الشرح والإيضاح، وذلك يستتبع كثيراً من البسط والإسهاب لأن دستور البلاغة لا يقوم إلا على رعاية مقتضيات الأحوال وخطاب الأغبياء بغير ما يخاطب به الأذكياء»(١).

وآخرون ممن تسللوا إلى ساحة علوم القرآن واشتغلوا بصناعة الكلام وجعلوا جودة بضاعتهم فى التنميق والتغليف بما أسموه المناهج العلمية فى البحث والدراسة، فأمكنهم أن يقلبوا الحقائق، ويقولوا «إن قصر السور والآيات المكية مع طول السور والآيات المدنية يدل على انقطاع الصلة بين القسم المكى والمدنى، ويدل على أن القسم المكى يمتاز بمميزات الأوساط المنحطة، ويدل على أن القرآن فى نمطه هذا نتيجة لتأثر محمد ﷺ بالوسط والبيئة، فلما كان فى مكة أميًا بين الأميين جاءت سور المكى وآياته قصيرة، ولما وجد فى المدينة بين مثقفين مستنيرين، جاءت سور المدنى وآياته طويلة»(٢).

ثانياً: شدة المخاطبة فى المكى ولينها فى المدنى:

يقول ممن أرادوا تشويه الإسلام: إن الباحث الناقد يلاحظ أن فى القرآن أسلوبين متعارضين... فالقسم المكى ينفرد بالعنف والشدة والقسوة والحدة والغضب والسباب والوعيد والتهديد مثل سورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] وسورة ﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١، ٢] وسورة ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١].. إلخ»(٣) ولولا أن هناك فئة من المخدوعين بأقوال هؤلاء الخصوم الجهال بعلوم القرآن خاصة من بين أولئك الذين تلقوا العلم فى مصر والخارج على أيدى هؤلاء المبطلين، لما وجدنا أدنى حاجة للرد عليهم، حيث إن الحقيقة واضحة

(١) المراجع السابقه ٢٠٩.

(٢) مناهل العرفان ص ٢٠٩.

* حول الفروق بين المكى والمدنى فى القصر والطول سوف نقدم الردود والإيضاحات فى المبحث القادم بمشيئة الله.

(٣) مناهل العرفان ص ٢٠٠.

والصواب بيِّن والباطل بيِّن وسوف نرد على تلك الأباطيل فى المبحث القادم إن شاء الله.

ثالثاً: افتتاح بعض السور المكية بحروف التهجى:

هذه الحروف مثل الم - حم - طسم. قد بدأت بها بعض السور المكية كما بدأت بها أكبر سورتين مدنيتين وهما البقرة وآل عمران وقد كان للباحثين فى علوم القرآن من علماء المسلمين موقفان هما: «أن المعنى المقصود غير معلوم لنا، بل هو من الأسرار التى استأثر الله بعلمها، ولم يطلع عليها أحد من خلقه.. [والآخر] أن لها معنى مقصوداً معلوماً.. غير أن أصحاب هذا الرأى تشعبت أقوالهم فى بيان هذا المعنى المقصود بفواتح تلك السور»[١].

ويقول خصوم الإسلام انطلاقاً من التصنيف القرآنى إلى مكى ومدنى، أقوالاً باطلة لا تنطلى إلاَّ على فئة من المخدوعين أو المفتونين بالغريب من الأقوال والشاذ من الأفكار، ونحيل القارئ الكريم إلى الموضوع الرابع بالمبحث الثالث وبه بعض الأقوال والرد عليها.

رابعاً: الفروق الموضوعية بين المكى والمدنى:

«ولعلنا نتساءل عن سبب ذلك وسببه فيما قال العلماء أن الإسلام فى العهد المكى كان مطارداً، وكان أهله أقلية مضطهدة يعيشون فى ظل مجتمع مشرك يناصبهم العداء، ويرى وجودهم غير مرغوب فيه فلذلك كانت الحاجة ماسة إلى تثبيت الإيمان واستقامة مبادئه وسلامة منهجه.

أما فى المدينة فقد تكوَّن المجتمع الإسلامى وقامت الدولة الإسلامية بعيداً عن الضغط والإرهاب والتعذيب والمطاردة، وأصبحت حياة الناس فى حاجة إلى تنظيم تسير على هداه فى الحكم والتعامل والاجتماع»[٢].

أما خصوم الإسلام والجهال من الباحثين فى علوم القرآن، فقد استغلوا التصنيف

---

(١) مناهل العرفان ص ٢١٩ - ٢٢١.

(٢) المرجع السابق.

القرآني إلى مكي ومدني وعللوا الفروق الموضوعية تعليلاً سيئاً كعادتهم فقالوا «إن القسم المكي خلا من التشريع والأحكام بينما القسم المدني مشحون بتفاصيل التشريع والأحكام، وذلك يدل على أن القرآن من وضع محمد ﷺ وتأليفه تبعاً لتأثره بالوسط الذي يعيش فيه، فهو حين كان بمكة بين الأميين جاء قرآنه المكي خالياً من العلوم والمعارف العالية، ولما حل بالمدينة بين أهل الكتاب المثقفين جاء قرآنه المدني مليئاً بتلك العلوم والمعارف العالية».

*****

المبحث الثالث

ردود على التفرقة بين المكى والمدنى

مقدمـة:

القرآن الكريم (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) وقد أظهره الله سبحانه وتعالى جملة واحدة ثم تنزل مفرقاً على النبى ﷺ ثم تكامل جمعه وترتيبه واستقراره فى عصر النبوة كما أراد الله له. وهو وإن كان مقسماً إلى آيات وسور إلاَّ أنه يشكل وحدة متكاملة شكلاً وموضوعاً وكتاباً معجزاً فى كل أجزائه، بل وفى كل جملة وفى كل كلمة من كلماته. ولهذا فليس من المناسب وليس من اللائق أن تكون دراسة آيات القرآن وسوره من حيث الشكل - أى النظم - ومن حيث الموضوع قائمة على التقسيم الزمنى إلى مكى ومدنى، ومن يفعل ذلك فقد وقع فى خطأ جسيم وتغافل عن حقيقة القرآن الكريم الذى امتزجت سوره المكية والمدنية بعضها مع بعض، وتداخلت موضوعاته لكى تتتابع فى كتاب الله، حقيقة تعانق حقيقة، وتشابكت آياته، وتماسكت سوره ليسبق المدنى المكى، ويعقب المدنى المكى فى تناسب وتناسق؛ آيات طويلة يتلوها آيات قصيرة، وجرس طويل النغم وآخر قصير النغم فى تعاقب موضوعى يملأ القلوب خشية ورهبة، واطمئناناً ورغبة، ويضع العقول أمام حقائق المعارف ولو كان الفارق الزمنى فى تنزل القرآن، أى تنزل القرآن مكياً ومدنياً يحمل أدنى دلالات التمييز بين مكيه ومدنيه، أو يجعل منه قسمين متمايزين فيكون كلام الله على ضربين، لتجمَّع المكى فى قسم ولتجمع المدنى فى قسم ولأصبح القرآن الكريم فى جزئين جزء مكى وهو الجزء الأول، والثانى مدنى تتجمع فيه السور المدنية جميعها، ولكننا نرى بين أيدينا المصحف وبه سور القرآن مرتبة ترتيباً توقيفياً حيث تتمازج وتتعاقب السور المدنية والمكية - كما قلنا سابقاً- دون تصنيف أو تفريق أو تمايز أو تفضيل، وقد بدأ القرآن بطوال السور مدنية ومكية، وتلتها المئين كذلك، ثم المثانى كذلك وانتهى القرآن بالمفصل مدنياً ومكياً، وكلها تحمل دلائل إعجازها نظماً وموضوعاً.

ولسوف نلقى الضوء على التقسيم المكى والمدنى، ونقدم الردود والإيضاحات عما يقال من الفروق والمميزات لكل من الوحى المكى، والوحى المدنى.

ومنهجنا فى دراسة سور القرآن من حيث الشكل والموضوع لا يخضع للتفرقة والتقسيم ذلك لأن القرآن الكريم يتكون من وحدة واحدة، وتتواجد فيه الآيات والسور بكفاءة متساوية نظماً وموضوعاً. وسوف نتحاشى تمييز السور والآيات القائم على التصنيف الزمنى مكياً ومدنياً، مخالفين فى ذلك ماسار عليه كثير من العلماء والباحثين فى علوم القرآن، مما أتاح للجهلة من خصوم الإسلام توجيه الحملات الكلامية ضد القرآن الكريم وتصويره بأنه كتاب بَشَرِى خضع للظروف والأحوال مما جعله على ضربين مختلفين وأسلوبين متعارضين وهما القسم المكى الذى جاء للمجتمع المكى والقسم المدنى الذى جاء للمجتمع المدنى، ولهذا فإننا نرى من الضرورى أن ننبه ونحذر من خطورة المنهج الدراسى الذى انزلق إليه العلماء حينما قسموا القرآن فى نظمه وموضوعه إلى الوحى المكى والوحى المدنى، وجعلوا لكل منهما مميزات تختلف عن بعضها.

وسوف نلقى الضوء على حقيقة التمييز بين المكى والمدنى ونقدم الردود والإيضاحات فى الموضوعات التالية:

الموضوع الأول: قصر الآيات والسور وطولها

أولاً: دراسة تحليلية:

بالنظر فى جداول ترتيب السور حسب النزول خلال فترة الدعوة المكية وخلال فترة الدعوة المدنية نخرج بالحقائق الموضوعية التالية:

أ) بدأ تنزل القرآن بسورة العلق (١٩ آية)، ثم تلتها سورة القلم (٥٣ آية)، ثم المزمل (٢٠ آية) ثم المدثر (٦٥ آية) وتوالت بعد ذلك سور من قصار المفصل، وطوال المفصل ومنها: سورة النجم (٦٢ آية)، وجاء بعدها من قصار المفصل ومنها: سورة القدر (٥ آيات) وسورة التين (٨ آيات) وسورة قريش (٤ آيات) ثم أوساط وطوال المفصل ومنها: سورة القيامة (٤٠ آية) وسورة المرسلات (٥٠ آية) سورة ق (٤٥ آية).... ثم تنزلت مجموعة من سور المفصل المكية - وقد ذكرنا بعضها - تأتى أطول سورة فى القرآن الكريم وهى سورة الأعراف المكية (٢٠٦ آية) وكما ذكرنا سابقاً فقد نزلت سورة الأعراف جملة واحدة وبهذا تجمع لهذه السور المكية ما لم يتجمع لغيرها من السور من كثرة الآيات، وطول الآيات، وتنزلها جملة واحدة وهذا ما لم يتوفر لسورة البقرة المدنية التى هى أطول سور القرآن (٢٨٦ آية). حيث إنها لم تنزل جملة واحدة بل تنزلت على أجزاء.

ثم أعقب سورة الأعراف ، سور أخرى مكية من المفصل ، والمثانى والمئين - دون تدرج - كما هو وارد بجداول ترتيب السور حسب النزول .

ونزلت السور خلال فترة الدعوة المدنية من غير تدرج تصاعدى أو تنازلى: وأول سورة مدنية هى سورة البقرة أطول سور القرآن (٢٨٦ آية)، تلتها سورة ليست من الطوال وهى سورة الأنفال (٧٥ آية)، وتلتها سورة من الطوال وهى آل عمران (٢٠٠ آية)، ثم أعقبها سور من المفصل والمثانى ومنها: سورة الأحزاب (٧٣ آية)، وسورة الممتحنة (١٣ آية)، ثم سورة طويلة وهى سورة النساء (١٧٦ آية) وتلاها: سورة الزلزلة (٨ آيات)، وسورة الحديد (٢٩ آية)، وهكذا تداخل ترتيب السور ما بين قصار وطوال، وطوال وقصار حتى آخر سور القرآن: فسورة الطلاق (١٢ آية) وسورة البينة (٨ آيات) ثم الحج (٧٨ آية) وسورة المنافقون (١١ آية) وأخيراً سورة المائدة وهى من الطوال (١٢٠ آية) وسورة التوبة من الطوال أيضاً (١٢٩ آية) وسورة النصر (٣ آيات) وهى آخر سور القرآن . وثالث أقصر سورة فى القرآن الكريم.

(ب) لو جمعنا السور القصار التى تنزلت فى فترة الدعوة المكية من سورة البلد إلى آخر القرآن وهى جميعها بالجزء الأخير من القرآن الكريم (جزء عم يتساءلون)، لوجدناها تعادل أقل من حزب[1]، أى لا تتجاوز ١ : ٦٠ من سور القرآن. وهى تشغل إحدى عشرة صفحة من صفحات القرآن - بعد استنزال سورتى الزلزلة من صفحات المصحف أى أنها تعادل ١ : ٣٠ من السور المكية . وهى جميعاً أقل من سورة الأعراف المكية التى تعادل ٣ أحزاب ومن هذا نرى أن السور المكية القصيرة مقدارها قليل حصراً بالمقارنة بباقى السور المكية، ومع هذا فقد جعلها العلماء حكماً على السور المكية بعامة مما جعلهم يصفون الوحى المكى بأنه قصير السور وقد استغل الجاهلون والسفهاء هذا الوصف أسوأ استغلال كما ذكرنا سابقاً.

(جـ) الجزء المكى من سور القرآن الكريم ، به سورتان من الطوال إحداهما سورة الأعراف التى تلى سورة البقرة طولاً وسورة الأنعام (١٦٥ آية) وهى تلى سورة النساء (١٧٦ آية) فى الطول، ولكنها أطول من السورتين المدنيتين الأخريتين وهما:

---

(١) القرآن ٣٠ جزءاً ، والجزء حزبان .

سورة المائدة (١٢٠ آية) وسورة التوبة (١٢٩ آية). غير أن الجزء المكي يفوق الجزء المدني في كثرة عدد السور المئين وبه خمس عشرة سورة من المئين [١]، ولا يوجد بالجزء المدني سور من المئين ومن هذا يتبين أن طول السور ليس قاصراً على الجزء المدني بل إن الجزء المكي به عدد أكبر من السور الطويلة إذا استثنينا ما يزيده فقط من السور الطوال السبع حيث إن الجزء المكي به سورتان من الطوال السبع والجزء المدني به خمس سور من السبع الطوال [٢].

(د) على الجزء المدني من سور القرآن، به ست عشرة سورة من المفصل التي تعارف العلماء على أنها تبدأ من سورة (ق). وأنها في تقسيم سور القرآن تعتبر أقصر من الأقسام الثلاثة وهي: الطوال، والمئين والمثاني. ويلاحظ أن سور المفصل المدنية من بينها سورتان من قصار المفصل وهما: سورة الزلزلة (٨ آيات) وسورة النصر (٣ آيات) وهي آخر ما نزل من سور القرآن الكريم وهذه السور الست عشر هما من ٢٨ سورة من ٨٦ سورة مكية، فتكون نسبة المفصل في السور المكية هي تقريباً نفس نسبة المفصل في السور المدنية غير أن كثيراً من سور المفصل المكية أطول من سور المفصل المدنية ومن هذه السور: سورة ق (٤٥ آية)، سورة الذاريات (٦٠ آية)، الطور (٤٩ آية)، القمر (٥٥ آية)، المرسلات (٥٠ آية) من هذا نرى أن الجزء المكي تتساوى تقريباً نسبة المفصل فيه مع تشابه المفصل بالجزء المدني، كما أنه يوجد من مفصل السور المكية ما هو أكثر طولاً من المفصل بالسور المدنية.

(هـ) لو نظرنا إلى السور الطوال في القسم المدني وقابلناها بالمئين وطوال المثاني بالقسم المكي، لوجدنا أن القسم المكي يرجح القسم المدني في صفة الطول من وجهين:

الوجه الأول: لم تنزل السور من طوال السور المدنية جملة واحدة ولكنها نزلت جزءاً جزءاً، فالسورة لم يكن طولها في نزولها جملة واحدة ولكن كان في تجمع أجزائها آيات تجاور آيات، ثم تسورت هذه الآيات جميعها في سورة واحدة فصارت

---

(١) انظر جداول ترتيب السور حسب النزول وجدول المقارنات.

(٢) طوال السور المكية: الأعراف (٢٠٦ آية)، الأنعام (١٦٥ آية).
طوال السور المدنية: البقرة (٢٨٦ آية)، آل عمران (٢٠٠ آية)، النساء (١٧٦ آية)، المائدة (١٢٠ آية)، التوبة (١٢٩ آية).

من الطوال ؛ فلا فارق إذن من حيث الكم العددى للآيات بين سورة من الطوال نزلت أجزاء ثم تسورت فى سورة واحدة ، وبين عدة سور من المئين أو المثانى تسورت وتجاورت .

الوجه الثانى : يشتمل القسم المكى على سورتين من طوال السور بالإضافة إلى عدد كبير من سور المئين ، وهى فى مجموعها تفوق كثيراً من حيث الكم العددى للآيات ، السور الطوال بالقسم المدنى خاصة وأن هذا القسم يكاد يخلو من المئين.

(و) نلاحظ فى الجملة أن قرآن الوحى المكى أكثر من قرآن الوحى المدنى، فهو يشتمل على ٤٥٩٣ آية تشغل ٣٣٤ صفحة من صفحات المصحف، بينما قرآن الوحى المدنى يشتمل على ١٥٨٨ آية تشغل ١٨٨ صفحة من صفحات المصحف، علماً بأن مدة الوحى المكى ١٣ عاماً تقريباً، ومدة الوحى المدنى ١٠ أعوام تقريباً.

(ز) كما يوجد بالقسم المكى سور عدد آياتها قليل ، فإنه يوجد بالقسم المدنى كذلك ، ويصل عدد هذه السور ١٦ سورة ومنها: سورة الممتحنة (١٣ آية)، سورة الزلزلة (٨ آيات) سورة الطلاق (١٢ آية)، سورة البينة (٨ آيات)، سورة المنافقون (١١ آية)، سورة الحجرات (١٨ آية)، سورة التحريم (١٢ آية)، سورة الصف (١٤ آية)، سورة الجمعة (١١ آية)، سورة النصر (٣ آيات) وهى آخر ما نزل من القرآن، كما أنها أصغر سورة بعد سورة الكوثر (٣ آيات).

(ح) بالنظر فى جداول ترتيب السور حسب النزول، نلاحظ تنزل سورة الأعراف المكية وهى ثانى أطول سورة فى القرآن وقد سبقتها عدة سور من المفصل، وأعقبتها أيضاً سور من المفصل، فلم يكن هناك تدرج تصاعدى أو تنازلى فى تنزل السور.

كما نلاحظ فى القسم المدنى : تنزل اثنين من السور الطوال وهما: البقرة، وآل عمران، ثم أعقبهما سور المفصل جميعها، وتخلل هذه السور ثلاث من السور الطوال وهى: سورة النساء، والمائدة والتوبة. فلا تدرج أيضا فى سور القسم المدنى، بل تمازج فى الترتيب بين السور الطوال والسور القصار.

(ط) فى القسم المدنى سور آياتها من أقصر الآيات القرآنية ومنها سورة (الرحمن)، وسورة الإنسان، والمنافقون، والبيِّنة وسورة الزلزلة وسورة النصر، وليست

الآيات القصيرة ، وقفاً على سور القسم المكى ، كما يتوهم أولئك الجاهلون بعلوم القرآن ، والمتعجلون فى دراساتهم بالحكم والتعميم .

ثامناً : نتيجة هامة :

وبعد هذه الحقائق والبيانات التى ذكرناها عن قصر السور وطولها وقصر الآيات وطولها ، وبعد هذا العرض المستفيض عن ملامح القصر والطول للسور والآيات بالقرآن الكريم فقد ثبت أنه لا تدرج فى تنزل القرآن من حيث شكل السور والآيات وقد ثبت بطلان القول بأن الوحى المكى سوره قصيرة وآياتها قصيرة وأن الوحى المدنى سوره طويلة وآياتها طويلة، وأن هذا القول غير دقيق وغير أمين وأن الذى يقول به: إما أن يكون مخطئاً فى التحليل والاستقراء، وإما أن يكون مغرضاً فى الاستنباط، وإما أن يكون مغرقاً فى سوء الفهم وإما أن يكون متماديًا فى الباطل والبهتان وكل هذه المواقف والأحوال تجعل بين العقل والتفكير حجاباً حاجزاً، وتجعل بين الضلال وبين الهداية سداً منيعاً.

وخلاصة القول فإن ما يذكر عن الفروق بين السور المكية والسور المدنية من حيث قصر السور وطولها، وقصر الآيات وطولها غير صحيح، ولقد أخطأ العلماء الذين تورطوا فى هذا الفهم أو انساقوا وراء فريق من العلماء الذين اجتهدوا وصدر عنهم ذلك الرأى، ولا نجد لاجتهادهم سنداً أو دليلاً من القرآن ونظمه، وكل ما فى الأمر أنهم كانوا ضحية الاستقراء المستعجل، والتصميم الخاطئ.

ثالثاً: العلاقة بين الموضوع وقصر الآيات وطولها:

بالبحث والتأمل فى القرآن الكريم نجد أن هناك علاقة وثيقة بين النظم والموضوع، وهذه العلاقة هى وجه من وجوه الإعجاز البيانى، فنجد أن آيات السور قصيرة حيث يحتاج البيان إلى قصر الآيات، ونجدها طويلة حيث يحتاج البيان إلى طول الآيات، لا فرق فى ذلك بين آيات السور المكية وآيات السور المدنية فالأمر مرده كله إلى عرض الموضوع فى أعلى مستويات النظم والبيان.

والمشتغلون بالكتابة والتأليف وهم على فهم ودراية بفن الصياغة، أى صياغة الجمل والعبارات ، يدركون جيداً وعن علم ، الارتباط الوثيق بين الجمل طولاً وقصراً

وبين الموضوع، ويدركون متى يكون الاسترسال فى العبارة مطلوباً ، ومتى يكون الاختصار فيها مرغوباً ؛ فلكل مقام مقال ، ولكل تعبير نظم وبيان ، ولكل موضوع صياغة وعرض . وباعتبار أن القرآن الكريم هو الكتاب المعجز فى موضوعه وبيانه فلابد أن يكون فوق المستوى البشرى فى النظم والتعبير ، ولابد أن تكون صياغة آياته صياغة ترقق القلوب فى الترتيب ، وتقرع الأفئدة فى الترهيب ، وتبرز الحقيقة أمام العقول ، وتبسط العلوم للأفهام. لهذا فقد شاهدنا الآيات القرآنية تجمع بين الطول والتوسط والقصر ، كما أن جرسها يتفاوت فى اللين والعنف ، فهى ليست متنوعة فى نظمها وشكلها فحسب بل هى متنوعة أيضاً فى نظمها وجرسها ، وكلها صفات ومميزات نجدها فى آيات السور المكية كما نجدها فى آيات السور المدنية وذلك حسب متطلبات العرض والبيان . وسوف نزيد القول تفصيلاً وتوضيحاً ، وبياناً وبرهاناً فيما يلى من الأقسام :

(أ) التوحيد وبيان القدرة وإقامة الحجة : وقد توسع القرآن فى ذلك وجاء بأوفى عرض وبيان ، وأعظم دليل وبرهان .

وهو فى السور المكية يقيم الأدلة على وجود الله ووحدانيته وقدرته وينفى الشرك ويجادل المشركين وعبدة الأصنام ويسفه عقولهم وعقائدهم ، ويلفت النظر إلى بديع صنع الله فى السماوات والأرض وما بينهما وفى الأنفس .

وهو فى السور المدنية يجادل أهل الكتاب من يهود ونصارى ويأخذ عليهم تحريف كتب أنبيائهم وإدخال ما ليس منها وحذف بعض ما جاء بها ، كما يدعوهم إلى اتباع النبى الأمى محمد صلوات الله وسلامه عليه والدخول فى دين الله، ويقيم الحجة على وحدانية الله وعظيم قدرته .

ومثل هذه الموضوعات التى اشتمل عليها القسم الأول تتطلب إقامة الحجة وتقديم الدليل ، وتنبيه العقول ،ولهذا جاءت الآيات القرآنية فى السور المكية والمدنية مناسبة لعرض الموضوع فكانت من الآيات المتوسطة الطول أو الآيات الطوال .

ونقدم الشواهد التالية من قوله تعالى:

١- من سورة الأنعام المكية: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ

كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩] .

٢- من سورة الأعراف المكية: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] .

٣- من سور الإسراء: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

- من سورة آل عمران المدنية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

٤- من سورة آل عمران المدنية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] .

٥- من سورة المائدة المدنية: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

٦- من سورة الصف المدنية: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

(ب) الترغيب والترهيب والوعد والوعيد وسرعة التنبيه وإيقاظ العقل، من خلال الرسائل القصيرة والحاسمة: قد يكون بذكر الجنة ونعيمها، والنار وعذابها، وقد يكون بذكر أخبار الأمم السابقة وما حاق بهم من عذاب الدنيا الذى أرسله الله عليهم. وآيات هذا القسم قد تكون قصيرة حتى تكون الرسائل سريعة وحاسمة، فتصل إلى العقول وتستقر فى القلوب أو لا تستقر حسب حال الإنسان إن كان قلبه

منفتحاً أم على قلوب أقفالها ، وقد تكون الآيات قصيرة جداً لزيادة الترغيب أو الترهيب .

والشواهد على ذلك من القرآن قوله تعالى :

في الترغيب :

١- من سورة الغاشية المكية: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ [الغاشية: ٨-١٢].

٢- من سورة الرحمن المدنية : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦-٥٢].

٣- سورة الواقعة المكية : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: ٢٧-٣٣].

في الترهيب :

١- من سورة الواقعة المكية : ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ [الواقعة: ٤١-٤٥].

٢- من سورة الإنسان المدنية: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً ﴾ [الإنسان: ٤].

٣- من سورة الرحمن المدنية: ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ [الرحمن: ٤١-٤٤].

في الوعد :

١- من سورة الليل المكية : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ [الليل: ٥-٧].

٢- من سورة الضحى المكية: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ [الضحى: ٥].

في الوعيد:

١- من سورة الحاقة المكية: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٤-٦].

٢- من سورة المدثر المكية: ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴾ [المدثر: ٢٤-٢٨].

٣- من سورة القمر المكية: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ٩-١٥].

في سرعة التنبيه وإيقاظ العقل:

١- من سورة الزلزلة المدنية: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

٢- من سورة الطارق المكية: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق: ٥-١٠].

٣- من سورة الإنسان المدنية: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٢، ٣].

جـ- بسط الأخبار وعرض الحقائق الكونية والوعظ والإرشاد:

ومثل هذه الموضوعات تحتاج إلى عبارات مبسوطة وجمل مطولة، وتأتي الآيات

القرآنية طويلة المبنى سواء كانت بالسور المدنية أو بالسور المكية، فليس الأمر مرده إلى وحى مكى قصير الآيات ووحى مدنى طويل الآيات، كما تعجل بعض العلماء وكثير من السفهاء ، ولكن مرد الطول والقصر فى الآيات إلى الموضوعات ومناسباتها ، فإذا كانت كما ذكرنا فى القسم الثانى رسائل سريعة للترغيب والترهيب وخلافه فهى آيات قصيرة سواء كانت مكية أو مدنية . أما إذا كانت للعرض والبيان كما هو الحال فى القسم الثالث فهى آيات مطولة سواء كانت مدنية أو مكية . والشواهد على ذلك كثيرة ومنها ما يلى :

١- فى السرد القصصى وبسط الأخبار:

لو تأملنا أنباء الرسل وأخبار أقوامهم لوجدناها قد جاءت فى القرآن على ضربين، أحدهما قصير الآيات لسرعة الإيقاع ، وتبليغ الرسائل القصيرة فى مجال الترغيب والترهيب، وقد سبق لنا الاستشهاد على ذلك بآيات القرآن القصيرة مكية ومدنية. والضرب الآخر وهو بسط أخبار الرسل وأقوامهم وذلك لأغراض متعددة منها ما جاء فى قوله تعالى﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. ﴾[هود: ١٢٠].

وفى هذا المقام تكون الآيات طويلة وفقرات الموضوع كبيرة وعلى سبيل المقارنة بين التعبير بالآيات القصيرة والتعبير بالآيات الطويلة : انظر قوله تعالى ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر: ١٣، ١٤] وذلك فى قصة نوح فى الترغيب والترهيب بالإيقاع السريع .

وانظر قوله تعالى فى نفس القصة والموضوع: ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝٣٧ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝٣٨ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٩ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٣٧-٤٠] وذلك فى مجال السرد القصصى المفصّل ، وهذه الآيات من سورة هود المكية .

٢- سرد أحوال الآخرة:

يقول تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٣-٥١].

وانظر فى مقابل ذلك قصر الآيات فى معرض الترغيب والترهيب وذلك فى قوله تعالى ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦].

٣-عرض الحقائق الكونية ولفت النظر إلى قدرة الله:

يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الحج: ١٨].

ويقول تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ

وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨].

٤- التذكير بنعم الله:

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١].

٥- الوعظ والإرشاد والآداب والسلوك:

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

ويقول تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

ويقول تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ⟨١٤⟩ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤، ١٥].

ويقول تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا

وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

(د) التعاليم والأحكام والتشريعات:

وغالباً ما تكون الآيات التى تعرض هذه الموضوعات من الآيات الطويلة سواء كانت بالسور المكية أم بالسور المدنية، والشواهد على ذلك نذكرها فيما يلى:

١- من سورة الأنعام المكية، قوله تعالى ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

٢- من سورة الروم المكية: ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم: ٣٩].

٣- ومن سورة النحل المكية ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١].

٤- ومن سورة النساء المدنية[1] ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١١].

---

(١) جاءت الإطالة فى هاتين الآيتين لسببين - حسب قواعد البحث - السبب الأول أنهما من آيات الأحكام، والسبب الثانى هو وحدة الموضوع بالآية المذكورة بالقسم الخامس.

٥- ومن سورة المائدة المدنية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٦].

ولايخفى أن التعاليم والأحكام والتشريعات تُعرض بأسلوب التقرير والبيان لا بأسلوب الترغيب والترهيب ولهذا فإن صياغة موضوعاتها يحتاج إلى الجمل الطويلة مما يتطلب الآيات الطويلة، وهذا ما نلاحظه بوضوح فى طول الآيات القرآنية التى تتناول هذه الموضوعات وهو ما يمكن أن نعبر عنه بالتحرير العلمى الموضوعى، وذلك يختلف عن التحرير الإنشائى الوعظى الذى تناسبه الجمل القصيرة ذات الإيقاع السريع خاصة فى مجال الترغيب والترهيب. ووجود الآيات الطويلة كأسلوب للتحرير العلمى الموضوعى، والآيات القصيرة كأسلوب للتحرير الإنشائى الوعظى، واختلاف الآيات طولاً وقصراً تبعاً للموضوعات.

وفى الآيات الطوال، يلاحظ أن هناك علامات وقوف مناسبة للمعنى مثل [صلى- قلى - ج][1] الموجودة بالآيتين فى المثالين السابقين ٤، ٥. وهذه العلامات جاءت نتيجة الاجتهاد النقلى للعلماء باعتبار أنها ليست موقوفة عنه ﷺ والاختلاف فيها نتيجة الاجتهاد ليس له أية آثار سلبية على شكل الآية وعلى قدرها المحدد بفواصل الآيات.

هـ) وحدة الموضوع فى الآية الواحدة:

والشواهد على ذلك نقدمها من قوله تعالى فيما يلى:

١- من سورة الأعراف المكية: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ

(١) (صلى) علامة الوقف الجائز مع كون الوصل أولى - (قلى) علامة الوقف الجائز مع كون الوقف أولى- (ج) علامة الوقف الجائز جوازا مستوى الطرفين .

رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

٢- من سورة يوسف المكية: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

٣- من سورة إبراهيم المكية: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وهذه الأمثلة الثلاثة هى آيات مختارة من سور مكية ثلاثة وليست من سورة واحدة، وهذه السور الثلاث هى سورة الأعراف: وسورة يوسف، وسورة إبراهيم، وهى لم تنزل تباعاً بل إنها نزلت متباعدة[1] فالأعراف رقم ٣٩ فى ترتيب التنزيل، ويوسف رقم ٥٣، والأحقاف رقم ٦٦، وإبراهيم رقم ٧٢. وهذه الآيات بطولها، وكونها من عدة سور وهى سور لم تكن متتابعة التنزيل - فلا يظن أنها من مجموعة متقاربة ومتشابهة فى الشكل - تصلح بمفردها لأن تكون دليلاً على بطلان القول بقصر آيات السور المكية، وتظهر بوضوح جهالة القائلين بذلك القول وسفاهة عقول أصحاب التأويلات والاستنباطات الساذجة والخبيثة.

٤- وفى سورة الأحقاف المكية: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

٥- وفى سورة النور المدنية: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ

(١) انظر جداول ترتيب السور حسب التنزيل.

زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

و - تفاوت الآيات فى الطول والقصر حسب الغرض:

قد يكون الموضوع واحداً ولكن الغرض مختلف، وفى هذه الحالة تختلف الآيات من حيث الطول والقصر، وقد أشرنا إلى ذلك.

ويظهر الاختلاف حسب الغرض بوضوح بين الآيات القرآنية فى نفس الموضوع، عندما يكون الغرض منها سرعة الإيقاع للترغيب والترهيب فتكون قصيرة، وعندما يكون الغرض منها الإخبار والبيان والسرد فتكون طويلة.

والأمثلة المقارنة كثيرة خاصة فى الموضوعات القصصية، ونكتفى بشاهد واحد وهو من قصة نوح فى مواضع أربعة أى فى سور أربع نذكرها حسب ترتيب نزولها(١).

١- الموضع الأول فى سورة القمر، قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٩ - ١٧].

٢- الموضع الثانى فى سورة الأعراف، قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن

(١) انظر جداول ترتيب السور حسب نزولها: سورة القمر (٣٧)، سورة الأعراف (٣٩) سورة هود (٥٢) سورة نوح (٧١) والأربع سور مكية.

رَبّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٩ - ٦٤].

٣- الموضع الثالث فى سورة هود، من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٥ - ٢٧].

وطال الجدل معهم إلى أن قالوا كما حكى عنهم القرآن ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٢ - ٣٣].

وانتهى الموضوع بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

٤- الموضع الرابع فى سورة نوح، يقول تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا﴾ [نوح: ١ - ٦] إلى أن انتهت السورة بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٦ - ٢٨].

دراسة تحليلية: إذا ما استعرضنا الآيات القرآنية التى تناولت موضوع قصة نوح فى السور الأربع ونظرنا إليها من جانب القصر والطول نخرج بالآتى:

١- جاءت الآيات قصيرة في سورة القمر، ومتوسطة الطول فى سورة الأعراف وطويلة فى سورة هود وقصيرة فى سورة نوح وهذا التفاوت جاء فى السور المكية التى يقولون إن آياتها قصيرة، كما جاءت الآيات فى سورة نوح وهى آخر السور أقصر بكثير من الآيات فى سورة الأعراف وهود اللتان سبقتها فى النزول ولو كان الأمر يرجع إلى إطالة الآيات تبعاً لتأخرها فى النزول لكان من المتوقع أن تكون آيات أواخر السور المكية وهى التى فى سورة نوح أطول مما يليها وهى ما فى سورة الأعراف وهود.

٢- نلاحظ أن اختلاف طول الآيات مرتبط إلى حد بعيد بالغرض وليس بالموضوع، فالموضوع واحد وهو قصة نوح مع قومه ومع هذا فقد تفاوت طول الآيات فى السور وذلك تبعاً للغرض الذى من أجله جاء الموضوع بالقرآن:

- ففى سورة القمر ونوح - الأولى والأخيرة - كان الغرض هو الوعيد وتقديم رسالة قوية ومختصرة لمن يعاندون رسلهم وما يلحق بهم كما لحق بقوم نوح.

- وفى سورة الأعراف - كان الغرض من الموضوع إظهار الحوار الهادئ الذى أقامه نوح مع قومه، وما انتهى إليه ذلك الحوار، لهذا جاءت الآيات متوسطة الطول.

- وفى سورة هود كان الغرض هو ذكر القصة بشئ من التفصيل والموضوعية، وعرضها على رسول الله ﷺ،كحقائق تاريخية وإنباءات غيبية له ﷺ ولقومه تثبيتاً وسلوى، فجاءت آيات طويلة لتساير النظم الموضوع والغرض خاصة، وأن الموضوع عبَّر عن الجدل والحوار العنيف من نوح عليه السلام وقومه الكفار حتى قالو له ﴿قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ [القمر: هود - ٣٢] وبذلك أعلم الرسول عليه الصلاة والسلام بمواقف الكفار مع رسلهم، وأوقفه الله على مواطن الجدل التى كانت مع رسل الله من قبل حتى يكون على بينة من الأمر وحتى يدرك ما سيكون بينه وبين الكفار من قريش وغيرهم من اليهود والنصارى.

لهذا كله جاءت آيات الموضوع فى سورة هود أطول من الآيات فى الأعراف وأطول كذلك من الآيات فى القمر ونوح.

ومن دراستنا التحليلية هذه نرى أن طول الآيات وقصرها مرتبط بالغرض كما هو مرتبط بالموضوع، وليس مرتبطاً بكون السور مدنية أو مكية أو بالترتيب النزولى للسور.

رابعاً : تفاوت الآيات بين القصر والطول فى السورة الواحدة

قد يكون التفاوت فى طول الآيات بين سورة وسورة كما يكون أيضاً داخل السورة الواحدة، سواء كانت السورة مكية أو مدنية، وسأكتفى بشاهدين أحدهما من سورة مكية والآخر من سورة مدنية وذلك فيما يلى:

أ- شواهد من السورة المكية : « سورة إبراهيم »

١- آيات قصار بالسورة :

﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ١٥] .

﴿ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ١٦].

﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٠].

٢- آيات طوال بالسورة تلى الآيات القصار:

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

[إبراهيم: ٣٧]

٣- آيات قصيرة أعقبت الآيات الطويلة:

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾[إبراهيم: ٤٠].

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١].

﴿فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧].

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٥١].

شواهد من السور المدنية: « سورة آل عمران »

١- الآيات القصار:

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥].

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٤].

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨].

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨].

﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠].

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران: ٦٣].

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [آل عمران: ٧٤].

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

هذه وغيرها من عشرات الآيات القصيرة توجد متفرقة ومنتشرة فى سورة آل عمران، وهى موزعة ومتمازجة مع الآيات الطويلة، فى نفس السورة.

٢- الآيات الطوال:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٩].

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٥].

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٥].

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وهكذا نشاهد فى سورة آلعمران المدنية وفى غيرها منالسور المدنية آيات قصيرة كما نشاهد آيات طويلة وكل نوع من الآيات متمازج فى السور مع النوع الآخر.

ولو تتبعنا غالبية السور القرآنية المكية منها والمدنية لو جدناها تسير على نفس النسق، فهى تشتمل على آيات قصيرة وآيات طويلة متمازجة مع بعضها فى الترتيب بداخل السورة.

خامساً: خاتمة الموضوع:

بالنظر فى ما جاء بالموضوع عن قصر السور وطولها وقصر الآيات وطولها، وعلى ضوء الشواهد القرآنية والبيانات الواردة بالموضوع نقرر الآتى :

أولاً : لا علاقة بين قصر الآيات وطولها وقصر السور وطولها وبين التقسيم المكى والمدنى ولا صحة للتفرقة بين السور المكية والسور المدنية والقول بأن الأولى آياتها قليلة وقصيرة، والثانية آياتها كثيرة وطويلة ولا حتى على وجه التغليب.

ففى الوحى المكى سور قصيرة وآيات قصيرة وسور طويلة وآيات طويلة وفى المدنى كذلك، بل إن بداخل السورة الواحدة مكية كانت أم مدنية آيات طويلة وأخرى قصيرة. كما أن قدر السور من المفصل الذى جاء فى القسم المكى هو بنفس النسبة تقريبًا لقدر سور المفصل الذى جاء فى القسم المدنى.

ولم تكن السور متدرجة فى التنزل حسب حالها من القصر والطول بل كانت تنزل سور قصيرة تعقبها سور طويلة وهكذا سواء فى المكى أو المدنى. والقدر الذى نزل من قصار المفصل فى الوحى المكى كان ضئيلاً جداً بالنسبة لباقى السور المكية من الطوال والمئين والمثانى. ولم ينزل جميعه متعاقبًا بل تخلله تنزل سور طوال ومئين ومثانى

ثانياً : طول الآيات وقصرها، مرتبط فى الغالب بالموضوع والغرض كما بينا فى الشواهد السابقة :

فإذا كان الغرض هو الترغيب والترهيب، فإن الآيات تكون قصيرة، وإذا كان لإقامة الحجة أو الجدل أو لتفصيل الأحكام، وبسط الأخبار، وبيان بعض السنن الكونية والنعم الإلهية فغالبًا ما تكون الآيات طويلة سواء مكية كانت أم مدنية وقد عرضنا ذلك بالتفصيل والبسط من خلال الشواهد القرآنية، وهكذا يكون فهمنا وتعليلنا للنظم القرآنى من حيث طول الآيات وقصرها وطول السور وقصرها والله أعلم.

الموضوع الثانى: الموضوعات بالسور المكية والمدنية

كل من يقرأ القرآن ويتدبره أو يبحث فيه ويتدارسه سرعان ما يدرك عظمته فى كثرة الموضوعات وضخامة القضايا ودقة العرض وعمق التبيان وشمولية الحقائق، مما جعل القرآن معجزاً فى موضوعه كما هو معجز فى نظمه وبيانه.

وقد تألفت الموضوعات وبرزت الحقائق فى كل سور القرآن قصيرها وطويلها مكيها ومدنيها حتى إن أصغر سور القرآن تحمل من كبريات القضاياوحقائق المعارف ما يمثل تكثيفاً فكريًا لا يوجد فى غير القرآن مما يدل على أنه وحى إلهى وكتاب ربانى وصدق الله العظيم ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

ولقد تناولت سور القرآن من بدء تنزلاتها أكبر القضايا وهى:

قضية العقيدة والألوهية والتوحيد، ثم قضية الفطرة والسلوك والأخلاق، وقضايا الوجود والكون، وقضايا الأحكام والتشريع والحلال والحرام والقضايا الغيبية بما فيها البعث والحساب والدار الآخرة حيث الاستقرار والدوام للوجود الإنسانى. وجاءت هذه القضايا العظيمة بالقرآن الكريم تحملها الآيات القرآنية موزعة فى سائر السور، لا فارق فى ذلك بين أقصر الآيات وأطولها وأصغر السور وأكبرها، من بَدْء تنزل القرآن وحيًا مكيًا إلى أن أصبح وحيًا مدنيًا وأنهى الله تنزله وأكمل به دين الإسلام بمبعث خير الأنام سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

إذن لا مقولة بعد ذلك لجاهل أو حاقد بأن القرآن يتفاوت فى موضوعاته من المكى الهابط إلى المدنى الصاعد، ولا حجة لغافل بأن القسم المكى تناول قضايا أقل شأنًا من تلك التى تناولها القسم المدنى، ولا صواب لباحث يميز بين السور المكية والسور المدنية من حيث الموضوعات وتفاوتها وتدرجها من المكى إلى المدنى حتى أوجدوا فروقًا ومزايا بين سور القرآن، وبين فترات الوحى، سبق أن أشرنا إليها فى موضوعات السور المكية والسور المدنية.

ونقول لهؤلاء وأولئك بأن القرآن جاء وحيًا من عند الله، وهو سبحانه الذى أراد لآيات القرآن أن تنزل فجاءت بما تحويه من الموضوعات التى اختصت بها. ثم

استدارت السور القرآنية لتصبح بترتيب آخر فى المصحف وبهذا جمعت الموضوعات القرآنية بين ترتيبين هما ترتيب التنزيل ثم ترتيب التدوين الذى بالمصاحف الآن وكلاهما عن رسول الله ﷺ وذلك لحكم إلهية ولفوائد كثيرة يدركها الدارسون لعلوم القرآن وقد تحدثنا عن ذلك في موضوعات سابقة.

وقد تنزلت الآيات القرآنية بالترتيب الإلهى للموضوعات حسبما أراد الله سبحانه وتعالى وبها العقيدة، والدعوة والإرشاد إلى صالح الأعمال، والترغيب والترهيب لمخاطبة أصحاب العقول الغافلة والقلوب الغلف، والرد والإنباء بالقصص، والبيان والتقرير للأحكام وبيان السنن الكونية وقد تنزلت الآيات بما يحقق هذه الفوائد والأهداف فى كلتا الفترتين فترة الوحى المكى وفترة الوحى المدنى، وجاء نظم القرآن بمقتضى الحكمة الإلهية مسايراً لعرض الموضوعات وسوف نزيد القول تفصيلاً ووضوحًا بتقديم الموضوعات والشواهد التالية :

أولاً: عقيدة الإيمان بالله :

كانت العقيدة وجوهرها توحيد الله والإقرار بالألوهية والعبودية هى لب القرآن وغايته حتى ليمكننا القول - بكل موضوعية ويقين - إن القرآن الكريم فى كل سوره تحدث عن العقيدة الإسلامية بصورة مباشرة أو غير مباشرة، إيجازاً أو تفصيلاً.

وقد حفلت السور المكية بقضية العقيدة وهى كما قلنا جوهر القرآن فكان ذلك شاهداً وبرهانًا على جهالة المبطلين القائلين بالتفوق الموضوعى للسور المدنية على السور المكية، وأصبحت الجهالة مركبة، وسذاجة القول واضحة، من القائلين بالهبوط المكي في سور القرآن، وصارت (العقيدة) فى أقصر السور المكية على أعظم درجات الفكر شمولاً وعمقًا، وأخيراً انكشفت نوايا الحاقدين والأعداء فى الماضى والحاضر بتجاهلهم للحقيقة وإصرارهم على موقفهم من السور المكية، يتشابه فى ذلك السابقون واللاحقون ممن تصدوا لمباحث علوم القرآن، وتحاملوا بكل جهالة ومكابرة على القرآن وهم دون المستوى فهمًا وأخلاقًا.

ونكتفى بتقديم شاهد واحد من أصغر سور القرآن وهى «سورة الإخلاص»: بسم

الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ④﴾[1] [الإخلاص: ١-٤].

ونقدم تحليلنا فيما يلى:

١- السورة قصيرة جداً وهى من أربع آيات قصار جداً، وهى ثالثة السور القصار بعد العصر والكوثر (كل منهما ثلاث آيات)، وترتيبها فى التنزل رقم (٢٢) فهى من أوائل السور المكية.

٢- ومع أنها من أوائل السور المكية تنزلاً، ومن أصغر سور القرآن وأقصرها آيات إلاّ أنها جاءت تحمل أعظم قضية فى الفكر البشرى وهى قضية الألوهية والتوحيد التى يعلم أصحاب الفلسفات أنها أدق القضايا الفكرية وأعظم الإدراكات العقلية.

٣- تم عرض القضية بعمق فلسفى ، وذلك من «خلال بيان حقيقة الذات الأقدس»[2] والسورة فى مجموعها تعلن بإحكام ودقة عن وجود إله كامل، ونعنى بالإله الكامل أنه واحد أحد لا شريك له فى طبيعته وصفاته.

٤- ومَنْ يتأمل هذه السورة المكية القصيرة جداً، يدرك عظمها وعلو قدرها وإعجازها فى النظم والبيان حتى وصلت إلى منتهى التركيز البيانى مع الوفاء بالمعنى بشمولية ودقة وسرعة مع جزالة الجرس وعذوبة النغم.

ومن حيث الموضوع فقد ألمت بكل جوانب الألوهية والتوحيد، وتركز ذلك فى طرفى السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

٥- ولو اجتمع فلاسفة الأديان ودعاة الإيمان بالله الواحد لصياغة قضية الألوهية والتوحيد فى قاعدة أصولية وفى مبحث تفصيلى لما استطاعوا أن يصلوا إلى مستوى هذه السورة القصيرة فى الصياغة والبيان فهى بمثابة (قانون إيمانى عام) وإن شئت فقل دستور إيمانى.

---

(١) كفواً: مكافئاً، ومماثلاً، ونظيراً.

(٢) الأصلان فى علوم القرآن ص ٢٥١.

٦- بل إن آية واحدة من هذه السورة وهى آية ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]. ونظيرها فى قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] تعتبران أعظم وأقوى ضوابط العقل عند التفكير فى حقيقة الذات الإلهية، ولم ولن يصل إلى هذه الصياغة أحد من البشر فى مجال محاولة التعرف على ذات الله.

هذه الآية القصيرة من سورة الإخلاص ومعها هذا الجزء من الآية القرآنية يعبران بانضباط فكرى عن «حقيقة الذات الإلهية» والإيمان «بالله الواحد»، فلا يزيغ المؤمن ولا ينجرف إلى متاهات الفكر الفلسفى المجرد عن المحسوس، ولا ينزلق إلى الفكر المادى المرتبط بالمحسوس والتجسيد.

ولا تدخل قضية الألوهية والذات الإلهية فى متاهات الجدل الكلامى حتى ولو على سبيل التصورات الذهنية أو التأويلات الكلامية فهو سبحانه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] وهو سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]». وبهذا يصبح المسلم سليما فى عقيدته وفى إيمانه «بالله الواحد» بعيداً عن سوء الفهم وعن الشرك وتعدد الإله والتجسيد والتشبيه أو حتى إلى محاولة وضع تصور ذهنى لله سبحانه وتعالى فى المخيلة، وهذا هو منتهى الكمال العقلى والفكر الفلسفى الناضج لمعرفة حقيقة الذات الإلهية.

٧- وهذه الآية القصيرة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] مع جزء الآية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] حجة قوية فى مواجهة أولئك الماديين الذين يحاولون مناقشة حقيقة الذات الإلهية، وقضية الألوهية كما يناقشون أية قضية قائمة على الحس والمشاهدة أو التصور والافتراض، ولقد جاءتهم الحجة من كتاب الله بأقصر بيان وأقوى برهان منطقى فى تلكما الجملتين السابقتين، وقد جمع الرد كل مقولات التوحيد والتنزيه لله سبحانه وتعالى خالصة من الشرك والتصورات الذهنية المختلفة.

وبعد هذا التحليل لهذه السورة المكية التى تعتبر ثالث سورة فى الصغر وقصر الآيات وما ظهر من جوانب العظمة والإعجاز فى نظمها وموضوعها، فهل يرعوى الجهال والمبطلون ويعودون إلى صوابهم العقلى ويتوقفون عن قولهم بانحطاط السور

المكية، آخذين عليها صغرها وقصر آياتها جهلاً وبهتانًا ، ويدركون عظمة القرآن وإعجازه فى كل سوره وآياته ويقولون آمنا به كل من عند ربنا ... أم أنهم يستمرون فى ضلالهم وجهالتهم، وبطلانهم ؟ !!

ثانياً : الفطرة والسلوك والأخلاق:

لقد جاء القرآن حافلاً بالموضوعات التى تبين فطرة الإنسان التى فطره الله عليها وحقيقة حاله فى الدنيا والسلوك القويم والخلق المستقيم الذى يجب أن يكون عليه الإنسان فى هذه الحياة الدنيا.

كما أبان القرآن الكريم عن حقيقة النفس البشرية، وكشف عن أعماقها حتى يكون الإنسان على بينة من أمره ويقوم بإصلاح نفسه الأمارة بالسوء ويبعدها عما يفسدها من الفحش .

ونختار شاهداً من سورة (الشمس): وهى أيضا من السور المكية القصار (١٥ آية قصيرة)، ومن أوائل السور التى تنزلت ورقمها فى ترتيب التنزل (٢٦). ونكتفى منها بأربع آيات من أقصر آيات القرآن الكريم وهن قوله تعالى ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]. ونقدم تحليلنا المختصر فيما يلى:

١- تناولت هذه الآيات الأربع فى إحاطة شاملة ودقة كاملة جانبًا من أهم جوانب التكوين الإنسانى وهى « النفس » ولا يخفى ما للنفس من أهمية فى التكوين الإنسانى حتى شغلت الفلاسفة والعلماء والباحثين ، وفى العصور الحديثة أصبحت دراسة النفس هى الشغل الشاغل لكثير من العلماء فى عدة تخصصات، وأصبحت علوم النفس من أهم العلوم الطبية فى مجال الصحة والمرض.

٢- يدرك علماء النفس عظمة هذه الآيات التى كشفت عن طبيعة النفس وبما أودعه الله فيها من الفجور والتقوى، كما أخبرت عن عوامل المرض وعوامل الصحة بأدق التعبيرات السلوكية ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩، ١٠] فانظر إلى (زكاها) وانظر إلى (دساها) من حيث دقة التعبير وعظمته وجمال النظم وحلاوة الأسلوب.

وليس المجال هنا للحديث المفصل عن كشف جوانب الإعجاز العلمي، والتفوق الموضوعي في هذه الآيات. فالأمر يحتاج إلى علوم النفس لاستيعاب معنى ومدلول هذه الآيات. وأقل ما يقال عنها أنها تعتبر بمثابة «دستور العلوم النفسية» وأنها مجموعة من الحقائق النفسية تكوّن حقيقة شمولية، ومن يرغب في المزيد فليرجع إلى مباحث علم النفس الإسلامي.

٣- اخترنا الشاهد من سورة مكية من قصار السور، وعرضنا باختصار شديد ما بها من أعظم المعارف في أعلى درجات الفكر والبيان في مجال الدراسات النفسية، لنقيمه حجة وبرهانًا على جهالة القائلين بأن السور المكية والقصيرة منها بصفة خاصة متأثرة بالأوساط المكية المنحطة، كما نقذف رداً حاسمًا في وجوه الخبثاء والحاقدين والمتطفلين على علوم القرآن ممن يقولون بأن القرآن المكي جاء خاليًا من العلوم والمعارف العالية ، متأثراً بالأميين من العرب ، فهل بعد ذلك يستمرون في ضلالهم ويواصلون نشر أحقادهم، أم أنهم يعالجون عقولهم، ويصلحون من آليات تفكيرهم، ويحترمون الحقيقة ويلتزلون بالصدق والصواب؟!!.

ثالثا: الموضوعات الكونية والحقائق العلمية:

لقد كثرت العلوم والمعارف المتعلقة بالوجود والكون، بالقرآن الكريم(١)، وتلألأت الحقائق العلمية بين ثنايا الآيات القرآنية حتى أصبح الإعجاز العلمي بالقرآن الكريم حقيقة يسارع الكشف عنه جمهرة من العلماء والباحثين، وكان للسور المكية النصيب الأكبر في عرض قضايا الوجود والكون وتقديم الحقائق العلمية. وكان لقصار السور المكية نصيب وافر في الحديث عن تلكم المعارف، والعلوم، وبالآيات القرآنية إشارات إلى كثير من الحقائق العلمية.

وسأختار شاهداً من سورة مكية من قصار السور وهي (سورة الطارق) وعدد آياتها ١٧، وهي آيات قصيرة جداً، وتنزلت السورة في أوائل الوحي المكي ورقمها (٣٦) في ترتيب السور حسب التنزيل.

---

(١) «وأصحاب العلوم الكونية على اختلاف تخصصاتهم يجدون فيه الإشارات اللماحة إلى بعض الحقائق من غير تعرض للتفصيل» الأصلان في علوم القرآن، ص ١٧٩.

وسأختار قدراً يسيرا من السورة وهى الآيات الثلاث الأول وقد جاءت فى صيغة القسم، وهى قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ١-٣] وأقدم التحليل التالى:

١- فى هذه الآيات القليلة والقصيرة إشارات إلى بعض الحقائق العلمية عن الكون، وهذه الإشارات لا يمكن أن تصدر عن ملاحظات عابرة أو رؤية بالعين المجردة ، ولا يمكن أن تصدر عن شخص يعيش كما يقولون بين جماعة من الأميين.

٢- تكشف هذه الآيات عن ظواهر فلكية ، توصل إليها العلماء حديثًا بما لديهم من أحدث الأجهزة ، وهى أن النجوم تنتهى وتتلاشى كما يموت الإنسان فإذا مات النجم فإنه ينكمش وتزداد جاذبيته بمقدار انكماشه ويشق طريقه فى الفضاء الكونى لينجذب بشدة إلى كوكب آخر بجواره وكأنه يطرقه بهذا الانجذاب، وهو حين ينكمش يزداد ضوؤه وتشتد حركته فى الفضاء فهو نجم ثاقب وهو نجم طارق، وهذه الحقائق الفلكية لم تُعرف إلاَّ حديثًا، ولم يتمكن علماء الفلك من معرفتها إلاَّ بعد توفر الأجهزة الفلكية الحديثة. [وبعد] فهل يحق لأحد أن يتغافل عن الإشارات العلمية فى القرآن الكريم أو أن يتجاهل هذه الحقائق العلمية سواء على سبيل الاحتمال أو على سبيل الترجيح ؟ وهل يستمر المبطلون والجاهلون فى ضلالاتهم ولا يتخلون عن ادعاءاتهم بأن السور المكية جاءت خالية من المعارف العالية وأنها تتميز بالانحطاط ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، فإن أصروا على مواقفهم الفكرية الضالة فقد كشفوا عن نواياهم السيئة وأفصحوا عن مخططاتهم الفكرية، الحاقدة، ولا يسعنا إلاَّ أن نقول لهم: لقد جهلتم وتعاميتم، فلا مرحبًا بكم بين العلماء والباحثين، ولا خير فى علومكم ودراساتكم

رابعاً : البعث والحساب:

لقد توسع القرآن الكريم فى الحديث عن القضايا الغيبية وتنوعت الموضوعات فى سور القرآن، فحياة الإنسان فى هذه الدنيا، تمثل قدراً ضيئلاً جداً من الوجود البشرى أما ما بعد الموت فهو الوجود الدائم بما يشتمل عليه من مراحل متعددة، تنتهى بالبعث والحساب والثواب والعقاب، وإما الجنة وإما النار. وسوف نتحدث عن

القضايا الغيبية وحقيقة الوجود فى موضوع آخر من الكتاب.

وفى هذا الموضوع سنكتفى بالشواهد القرآنية عن الثواب والعقاب، حيث تقتضى العدالة أن يقال للمحسن أحسنت ويلقى الثواب، وأن يقال للمسئ أسأت وينال العقاب. وأفضل أنواع العمل الإيمان بالله اعترافًا بفضله علينا، وأسوأ الأعمال الكفر والشرك، وبهذا جاءت آيات الترغيب فى القرآن لتدعو إلى الإيمان بالله وتبشر المؤمنين وجاءت آيات الترهيب فى القرآن لتحذر من الشرك والكفر وتتوعد المشركين والكفار. وأشد ألوان العقاب هو ما يستحقه الكفار الذين يصدون عن سبيل الله وفى مقدمتهم أولئك الذين تزعموا وقادوا حملات الكفر والخصام ضد الرسل أمثال فرعون وأبو لهب.

الشواهد فى مجال الترغيب نقدمها فيما يلى:

أ- من السور المكية

١- من سورة الغاشية

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً ﴾ [الغاشية: ٨ - ١١].

٢- من سورة فصلت ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٣٣ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٣-٣٥].

٣- من سورة النبأ قوله تعالى ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا ﴾

[النبأ: ٣١-٣٥]

٤- وفى سورة الأنبياء قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ۝١٠٧ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٨ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ

وإنْ أدْرِي أقَرِيبٌ أم بعيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧ - ١٠٩].

ب- ومن السور المدنية :

من سورة الرحمن المدنية قوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٣٦ - ٥٠].

والشواهد فى مجال الترهيب نقدمها فيما يلى:

أ- من السور المدنية:

١- من سورة آل عمران ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [آل عمران: ٨٦ -٨٨].

٢- من سورة النساء ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

٣- من سورة الحج ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩ - ٢٢].

ب- من السور المكية :

نقدم سورة من قصار السور وهى سورة المسد:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑤﴾ [المسد: ١ - ٥] ونقدم تحليلا للسورة فيما يلى.

١- السورة من قصار السور المكية وهى من أوائل السور التى تنزلت بمكة وترتيب تنزلها (٦).

٢- تنزلت السورة بالكامل فى حق زعيم الكفار وأشدهم عداء لرسول الله ﷺ وهو «عبد العزى بن عبد المطلب، وفى حق زوجته وشريكته فى العداوة والبغضاء «أم جميل».

٣- جاءت السورة بمثابة رسالة إنذار إلى عدو جبار، ووعيد بما سيلقاه من عذاب الله جزاءً وفاقًا لما قدمت يداه ونطقت به شفتاه من فحش القول والسباب، حقداً وكراهية وافتراء وعناداً.

٤- جاءت السورة فى موضوعها معبرة أقوى تعبير نظمًا ومعنى، وهى من أقوى رسائل الإنذار والوعيد لتكون على قدر العداء والإيذاء الذى صدر عن زعيم الكفار.

٥- كان للسورة أقوى تأثير وأشد وقع على ذلك الطاغية وعلى زوجته حمَّالة الحطب، التى تملكها الغيظ والفزع، والخوف والهلع فيما تصوره كتب السيرة وتذكره كتب التفسير لهذه السورة بأوضح صورة، وحق لنا أن نصف (سورة المسد) بأنها «رسالة إنذار إلى عدو جبار» و «أنها أقوى إنذار فى أقصر رسالة»[1].

وبعد ... فقد سبق أن ذكرنا أن الترغيب والترهيب مطلبان ضروريان فى مواجهة الإيمان والكفر، وقد أظهرت الشواهد أن القرآن تناول الأمرين فى سُوره المكية والمدنية على سواء وذلك على خلاف ادعاءات الجهال والمبطلين القائلين:

---

(١) كما أنها تعبر أحسن تعبير عن «أسلوب السخرية» بالقرآن الكريم الذى بلغ القمة فى التصوير والتأثير.

«إن القسم المكى قد تفرد بالعنف والشدة»[(١)] ... «إنما اشتمل القرآن الكريم بقسميه المكى والمدنى على الشدة والعنف لأن ضرورة التربية الرشيدة فى إصلاح الأفراد والشعوب وسياسة الأمم والدول تقضى أن يمزج المصلح فى قانون هدايته بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد والشدة واللين»[(٢)].

وقد جانب الجهال والمبطلون الصواب وأخطأوا فى تأويلهم واستشهاداتهم عندما جعلوا شواهدهم على ادعاءاتهم من السور والآيات المكية أمثال سورة «المسد» التى ذكرناها فى شواهدنا عن الترهيب، وسورة العصر : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

وسورة التكاثر: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ١-٤].

وقوله تعالى : ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١٣] الآية « فليس فيما سبق سباب ولا مايشبه السباب، وكل ما عرضت له سورة العصر أنها جعلت الناس قسمين : قسم خاسر وقسم فائز ... وسورة التكاثر : فمبلغ ماتشير إليه أن المخاطبين شغلتهم الدنيا عن الدين، وألهتهم الأموال عن رب الأموال... إلخ»[(٣)]

فهل هذا هو المنهج العلمى فى الدراسة والبحث يا أصحاب القبعات من المستشرقين؟ وهل هذا هو العلم والاجتهاد فى الرأى يا أصحاب العقول الملوثة بتراكمات التفاهة الإلحادية ومزودة بآليات التفكير المادى؟ وهل هذا هو الصواب يا مَنْ خَلَت قلوبكم من أنوار الإيمان وامتلأت بكراهية الإسلام فجاءت انتقاداتكم وشبهاتكم برهانًا وإعلانًا عن بغضكم وعداوتكم وجاء نقدكم للقرآن - الذى حرمكم الله من معرفة إعجازه، وعظمة نظمه ومعناه - بعيداً عن كل تأويل حسن أو فهم سليم؟

---

(١) مناهل العرفان ص ٢٠٠.

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٠.

(٣) المرجع السابق ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

وصدق الله العظيم ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

خامسًا: العبادات والأحكام:

جاء المنهج الإسلامى لتنظيم حياة الإنسان بالقرآن الكريم، فى السور المكية والمدنية وهو وإن جاء فى السور المدنية بالأحكام والتشريعات، فقد جاء فى السور المكية، بالآداب والسلوكيات، وكلا الأسلوبين فى عرض وبيان المنهج الإسلامى يحققان الغرض فى تحديد ذلك المنهج، وفى دعوة المسلمين إلى الالتزام به، طاعة لله ولرسوله وحرصًا على ما فيه من الخير والفلاح أخذًا بالطاعات وتركًا للمعاصى. ،نقدم الشواهد فيما يلى :

أ - من السور المكية ، قوله تعالى :

١- ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٥] وقد ذكرت الآيات بالسورة عنصرين أساسيين من عناصر المنهاج وهما أداء الزكاة واجتناب الزنا . وجاءت السنة المشرفة لتفصل ذلك.

٢ - ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١، ١٥٢].

وقد جمعت الآيات أسس المنهاج الإسلامى وهى بذلك بمثابة الدستور الذى تتفرع عنه الأحكام . ولقد تناولت جملة من الضرورات [١]. التى لاتخرج عنها الأحكام،

---

(١) «القسم المكى لم يخل جملة من التشريع والأحكام بل عرض لها وجاء عليها ولكن بطريقة إجمالية، فإن مقاصد الدين الخمسة هى: (١) الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره (٢) وحفظ النفس (٣) وحفظ العقل (٤) وحفظ النسل (٥) وحفظ المال. وقد تحدث القسم=

وأمرت بجملة من التعاليم والمعاملات، منها : اجتناب الشرك، والمحافظة على مال اليتيم، وقواعد التجارة، واجتناب الفواحش.. إلخ. ثم جاءت آيات أخرى مدنية تفصيلاً لتلك القواعد الكلية، وفى أثناء تنزل آيات الأحكام فى مكة والمدينة كانت السنة النبوية تأتى موضحة ومفسرة ومطبقة للأحكام والتشريعات تحقيقا لقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧] .

وهكذا فإن السور المكية أتت بالكليات فى منهاج الحياة ليكون التفصيل من قِبَل الرسول عليه الصلاة والسلام.

ب - من السور المدنية قوله تعالى :

١ - ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١١] وقد فصلت هذه الآية حقًا من حقوق الوالدين الذى يدخل تحت قوله تعالى: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ البقرة: ٨٣] كما أظهرت حق الأولاد على الآباء فبعد أن كانوا يقتلون أولادهم قبل الإسلام جاءت الأحكام لتفصل حقوق الأولاد فى مال آبائهم.

٢ - ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢].

وهذه الآية المدنية التى تبين الحكم فى حالة الزنا جاءت تفصيلاً للقاعدة الكلية فى المنهج الإسلامى الواردة بالسور المكية فى قوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا

= المكى عنها إجمالاً اقرأ قوله تعالى من سورة الأنعام «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم...» مناهل العرفان، ص ٢١١.

ظهر منها وما بطن﴾ [الأنعام: ١٥١] ونظيرها فى سورة مكية أخرى قوله تعالى ﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢].

وجاءت السنة المشرفة لتزيد أحكام القرآن تفصيلاً بما قام به الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيضاح والحكم والتطبيق.

(وبعد) فقد ظهر بوضوح من الشواهد القرآنية للموضوع الخامس أن التشريع والأحكام التى ترسم منهاج الحياة فى الدين، لم تكن قاصرة على السور المدنية، بل إنها جاءت كذلك فى السور المكية كما ذكرنا. وعلى الجهال وأولئك المتربصين بالإسلام ألا يعيشوا فى أوهام تأويلهم واستنباطاتهم التى يقودهم إليها منهجهم العلمى القائم على الكراهية والحقد وعليهم أن يأخذوا معارفهم من أرباب الفن وأولى العلم وأهل الذكر الذين درسوا القرآن بعقل واعٍ وقلب سليم.

وعليهم ألا يقعوا فى أخطاء أسلافهم من المستشرقين وأعداء الإسلام وألا يقولوا مقالة الجهل والسوء «إن القسم المكى خلا من التشريع والأحكام، بينما القسم المدنى مشحون بتفاصيل التشريع والأحكام» [(١)].

سادسًا : موضوعات فى شئون الحياة:

وإن شئت فاقرأ سورة (قريش) المكية، وهى من أقصر السور (٤ آيات)، ومن أوائل السور نزولاً (رقم ٢٩)، وقفْ عند قوله تعالى : ﴿الذي أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف﴾ [قريش: ٤]. وتأمل كيف أن القرآن تناول أمن المجتمع فى أقصر عبارة وأعظم بيان لتتيقن أنه من الله سبحانه وتعالى [(٢)].

نتيجة : من خلال عرضنا للموضوعات القرآنية بالسور المكية والمدنية فقد ثبت الآتى :

١ - بطلان القول بالتفاوت الموضوعى بين السور المكية والسور المدنية بل إن

---

(١) مناهل العرفان ص ٢١١.

(٢) لقد حدد الله تعالى نعمتين ألفتهما قريش نعمة الإطعام من الجوع وتوفير الأمن من الخوف، والذى يتأمل معنى الأمن فى اللغة لوجده الاطمئنان وعدم الخوف والسلامة من أى مخاطر» وهاتان النعمتان هما من أهم مطالب الحياة لتحقيق الأمن الاجتماعى.

أصغر السور المكية تحتوى على أعظم الموضوعات وأدق المعلومات وتنطوى على حقائق فى مختلف العلوم.

٢ - السور المكية مليئة بالعلوم والمعارف لكافة الموضوعات التى تحدثنا عنها، وقد فاقت السور المدنية فى أكثرها باستثناء بعض الأحكام التى وردت بالسور المدنية بمثابة التى هى التفصيل لما جاء فى السور المكية أضف إلى ذلك البيان والتطبيق الذى تكفل به الرسول صلى الله عليه وسلم، وتضمنته السنة النبوية وهى الأكثر تفصيلاً والأوفر أحكامًا.

٣ - لو فرضنا جدلاً أن الدعوة بدأت فى المدينة ثم انتقلت إلى مكة لما تغير النظم القرآنى ولاتبدل الموضوع ، ولا طرأ أى تبديل على شكل السور وترتيبها، فقد جاء كل ذلك بوحى من الله قطعى الثبوت، كما أن سير الموضوعات وتتابعها تم كما اقتضت الحكمة الإلهية لسير الدعوة نفسها التى بدأت بالعقيدة وانتهت بالأحكام مع وجود التداخل بين كافة الموضوعات التى سبق ذكرها.

والمتأمل للنسق الموضوعى للقرآن الكريم بدءًا من تنزل الآيات حسب ماجاء بالمصحف توقيفًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدرك دقة المطابقة والمسايرة للدعوة مع كتاب الله.

٤ - لجأ المبطلون إلى جملة من المغالطات لدعم آرائهم، منها فساد التأويل والاستنباط ، ومنها ترك شواهد القرآن التى تهدم آراءهم، وتدحض أباطيلهم، فهم عندما يتخذون من سورة «العصر» أو «التكاثر» بفهم خاطئ شاهداً على عنف الآيات بالقِسْم المكى لم يلتفتوا إلى الآيات المكية التى تفيض رحمة ولينًا وعطفًا مثل قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [الجاثية:١٤، ١٥].

وقوله تعالى فى سورة الأنعام المكية : ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢]، وقوله تعالى : ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ

وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٤].

الموضوع الثالث: القسم بالمخلوقات

القرآن الكريم معجز فى أسلوبه ونظمه ومعجز فى موضوعه ومعناه، ومهما طال البحث فى جوانب إعجازه فلن يتحقق للعقل البشرى الإحاطة به أو الوصول إلى منتهى معناه فهو من كلام الله وعلمه ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وعلماء اللغة يعملون جاهدين على دراسة أساليب القرآن البيانية وأساليب التعبير ومن جملتها «وسائل الإقناع» التى يندرج تحتها الأمثال والقسم.

(والقسم) وهو موضوعنا القصد منه تحقيق الخبر وتوكيده «ولايكون القسم إلا بمعظم. وقد أقسم الله بنفسه فى مواضع من الكتاب فقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم: ٦٨]، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

وكما أقسم بذاته أقسم ببعض مخلوقاته - إما للفت النظر إليها، وإما لأنها مربوبة له مع ما اشتملت عليه من سر، كقوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ [التين ١-٣] ومن حقه سبحانه وتعالى أن يقسم بما شاء وليس لنا أن نقسم إلا بالله، وقد أقسم الله بنبيه فى قوله: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢] .. وذلك ليعرف الناس بمكانته صلى الله عليه وسلم.

وأيا ما كان - فالقسم إما بالفاعل الحقيقى - كالقسم بذات الله وإما بالفعل، كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس ٥-٧] بناء على أن (ما) مصدرية.

وأما القسم بالمفعول، وتعظيم المصنوع تعظيم الصانع كقوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ﴾ [التين:١] وإذا أقسم الله على الغيب - فقد أراد بذلك توكيد تحقيقه - كأنه يقسم

به أيضا. وإذا أقسم على ماهو مشاهد ، فقد أراد تعظيمه، لأنه دال عليه، وآية من آياته.

ومن خصائص القرآن مراعاة العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه كقوله تعالى ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[الضحى: ١-٣] فالعلاقة هى تشبيه نور الوحى بالضحى وانقطاعه بظلام الليل (انتهى باختصار)(١).

ونذكر الشواهد التالية من قوله تعالى بالقرآن الكريم :

١ - من سورة القلم المكية (رقم ٢ فى التنزيل) : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

٢ - من سورة الضحى المكية (رقم ١١ فى التنزيل): ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ١-٥].

٣ - من سورة التين المكية (رقم ٢٦ فى التنزيل) : ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ١-٤].

٤ - من سورة الطارق المكية (رقم٣٦ فى التنزيل): ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[الطارق:١-٤].

٥ - من سورة الواقعة المكية (رقم٤٦ فى التنزيل): ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة:٧٥-٧٨].

٦ - من سورة الطور المكية (رقم٧٦ فى التنزيل): ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ١-٨].

(١) الأصلان فى علوم القرآن ص ٣٤٨ - ٣٤٩.

٧ - ومن سورة الحاقة (رقم٧٨ فى التنزيل): ﴿فلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) ومَا لا تُبْصِرُونَ (٣٩) إنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٣٨-٤٠].

٨ - ومن سورة القيامة (رقم ٣١ فى التنزيل) : ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ١-٤] هذه الآيات وردت بها صيغة القسم، وحولها نقدم التحليل التالى :

أولاً : لقد اهتم أساطين اللغة العربية وعلماء البلاغة بالأمة الإسلامية على مدى القرون منذ تنزل القرآن - بالسليقة تارة كما هو فى صدر الإسلام ، والصنعة والفن تارة أخرى على توالى العصور - اهتموا وعكفوا على معرفة جوانب الإعجاز البيانى فى كتاب الله العزيز، ومما استرعى انتباههم أسلوب القسم كواحد من وسائل الإقناع وبهذا يكون أسلوب القسم ، أسلوبًا بليغًا. ولقد جاء فى القرآن على أوجه متعددة. ومن الواجب على من يجهل أسلوب القسم فى القرآن أن يعود إلى التراث البلاغى وأمهات التصانيف فى علوم القرآن البلاغية، ليرفع عن عقله الجهل ويزيل عن نفسه العداوة والبغضاء نحو كتاب الله.

ثانياً : ورد أسلوب القسم بكثرة فى السور المكية - خاصة القصار ذات الإيقاع السريع حيث اهتم الوحى المكى كثيراً بالعقيدة، والغيبيات، واليوم الآخر وتثبيت أركان الدعوة بين صفوف المسلمين، وإشاعة الخوف بين صفوف الخصوم والأعداء، وكل ذلك يحتاج إلى أسلوب حازم فى الدعوة والتحقيق والتأكيد للخبر، ويكون القسم مطلوبًا كواحد من الأساليب البلاغية ووسائل الإقناع الكلامية.

ثالثًا : إذا نظرنا إلى مجموعة الشواهد التى ذكرناها - دون حصر لباقى عبارات القسم بالقرآن الكريم - نرى تنوع المقسم به وتنوع أجناسه وهو لا يقتصرعلى الأشياء المحسوسة فحسب بل يشتمل أيضًا على المعنويات فى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١] كما يشتمل على الأمور الخفية كالنفس، فى قوله تعالى: ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢] بل جاء القسم بالغيبيات : كيوم القيامة،

والبيت المعمور، بل إنه تشمل كافة المخلوقات والموجودات ما نبصره ونعلم به وما لا نبصره ولا نعلم به وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩] ... بل إنه سبحانه وتعالى أقسم بذاته وذلك فى وقله تعالى : «فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يفعلون» وأقسم بنبيه صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]،مما يدل على أهمية القسم فى الأسلوب والتعبير القرآنى.

وعلى الجهال والمبطلين من أدعياء العلم المتطفلين على دراسة علوم القرآن أن يصححوا معلوماتهم عن القسم بالقرآن الكريم، وأن يصلحوا من نواياهم نحو دراسة القرآن : فالقسم فى القرآن وفى السور المكية بخاصة لم يكن بالأشياء الحسية فحسب ولكنه جاء بكل شيء فى الوجود وما هو أسمى من المخلوقات، كما أن القسم لم يكن بالمحسات العادية التى يقولون عنها بأنها أشياء بسيطة كالتين والزيتون حسب فهمهم الساذج والسطحى والذى سنبطله فيما بعد، بل إنه كان بأعلى المعنويات، وبأدق الحقائق الكونية : كالبحر المسجور، ومواقع النجوم، والنجم الثاقب ... إلخ.

رابعًا : «إن فى مضامين تلك الأقسام بالحسيات أسرار تنأى بها عن السذاجة والبساطة وتشهد ببراعة المخاطبين بها وتفوقهم فى الفهم والذكاء والفصاحة والبيان... أقسم الله سبحانه بالضحى والليل فى سورة الضحى، وسبب نزول الآيات: أن النبى ﷺ فتر عنه الوحى مرة لاينزل بقرآن فرماه أعداؤه بأن ربه ودَّعه وقلاه، أى تركه وأبغضه فنزلت (سورة الضحى مصدرة بالقسم...) فمن هذا نعلم أن الحلف بالضحى والليل فى هذا المقام ليس مجرد تذكير بآياته ونعمه فحسب، بل هو أيضًا إقامة دليل على أن تنزل الوحى أشبه بضحوة النهار، وأن فترة الوحى أشبه بهدأة الليل، فإذا كانوا يتقبلون الضحى والليل بالرضا والتسليم، لما فيهما من نفع الإنسان بالسعى والحركة والحياة بالنهار والنوم والاستجمام بالليل، يجب أن يتقبلوا أيضًا مايجرى على محمد صلى الله عليه وسلم من نزول الوحى وفترته للمعنى الذى سلف» [١] وكما قلنا من قبل فإن من خصائص القرآن مراعاة العلاقة بين المقسم به

---

(١) مناهل العرفان ص ٢١٦، ٢١٧.

والمقسم عليه، وهذا ماتحقق بأسلوب بلاغى رائع فى قوله تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۞ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى: ١-٣] فالعلاقة هى تشبيه نور الوحى بالضحى وانقطاعه بظلام الليل، وهذا من أوجه البلاغة التى يشق على المتطفلين على دراسة علوم القرآن فهمه وإدراكه.

خامسًا : لقد أودع الله سبحانه وتعالى فيما أقسم به من الأشياء الحسية أسراراً عظيمة، فجاء القسم بها كإشارة إلى تلك الأسرار. وقد قام العلماء بأبحاث علمية وحديثة كشفت عن بعض هذه الأسرار، وقدموا دراسات فى كثير من المؤتمرات العلمية تتناول جوانب الإعجاز العلمى بالقرآن الكريم[1]:

ففى سورة الطور يجىء المقسم به فى قوله : ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ [الطور: ٦] وقد اكتشفت الأبحاث الحديثة بعد توفر أجهزة الغوص العميقة إلى قاع المحيطات والبحار العميقة وجود بعض البحار الملتهبة فى أعماقها وكانت هذه الاكتشافات إظهاراً لحقيقة القسم فى قوله تعالى ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ [الطور: ٦] بعد مضى أكثر من أربعة عشر قرنًا.

وفى سورة الطارق يجىء المقسم به فى قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۞ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ [الطارق: ١-٣]، وقد اكتشف العلماء فى العصر الحديث وبعد اختراع المراصد الضخمة وبعد مايزيد على أربعة عشر قرنًا ذلك «النجم الثاقب» الذى يطرق الكواكب المجاورة له، وقد تحدثنا عن ذلك.

وفى سورة الواقعة المكية يجىء المقسم به فى قوله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۞ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦] وقد عرف العلماء المتخصصون فى العلوم الفلكية وأبحاث الفضاء مواقع النجوم وهى تبعد عن الأرض بمسافات ذات أرقام فلكية غاية فى الضخامة قد تبلغ بلايين السنوات الضوئية وبهذا ظهر السر العظيم فيما أقسم به الحق سبحانه وتعالى كإشارة إلى هذه الأسرار، وفى ذلك دلالة على ما فى القرآن من حقائق علمية لم تكن فى مقدور أى شخص معرفتها وقت تنزل هذه الآيات.

---

(١) انظر الإعجاز العلمى بالقرآن الكريم فى الباب الثانى.

سادسًا : القسم بالأشياء الحسية كالتين والزيتون التى يتوهم السطحيون أصحاب المنهج الإلحادى من مستشرقين وخلافهم أنها أشياء تافهة، والقسم بها يدل على البساطة والسذاجة وتأثر القرآن بالبيئة.

فإنها فضلاً عن كونها من مخلوقات الله وكل منها يمثل جنسًا من أجناس المخلوقات التى تحمل لمجرد خلقها وتواجدها دلائل القدرة وبديع الصنع وعظمة الخالق سبحانه وتعالى، وفضلاً عن الجوانب البلاغية وعلاقة القسم بالمقسم عليه كما هو الحال فى القسم ﴿ وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ [الضحى: ١، ٢] على المقسم عليه ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى: ٣] وقد أشرنا آنفًا إلى هذه العلاقة وفضلاً عن الأسرار الكونية التى تشير إليها الأشياء المقسم بها ... فضلاً عن ذلك كله، فإن هناك «حقيقة إيمانية» يغفل عنها أصحاب المنهج الإلحادى وذلك بسبب آليات تفكيرهم المادية الضيقة التى تخلو من المنطق الإيمانى.

وعن هذه (الحقيقة الإيمانية)، التى يتضمنها القسم بتلك الأشياء الحسية – التى قد يراها بعض السطحيين من أصحاب المنهج الإلحادى أشياء تافهة تناسب أميين سذج وبسطاء بُلْه نقدم الشرح التالى :

إن عظمة الخالق وقدرته اللانهائية، تمحو النسبية بين المخلوقات ، وهو سبحانه خالق كل شىء من السموات بضخامتها إلى النملة بضآلتها . وهو سبحانه الخالق للتين والزيتون وجنس الزروع قاطبة، وهو سبحانه الموجد للضحى والليل وكل الأفعال الصادرة عن كافة المخلوقات.

فهو سبحانه وتعالى الخالق لكافة المخلوقات من أكبرها إلى الصغير منها والمدبر لكل أفعال المخلوقات من أقواها إلى أضعفها، وكلها فى قدرة الله سواء دون تفاوت فى إمكانيات الخلق والإيجاد، ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] فالنسبية فى قدرة الله معدومة، ولا يوجد تفاوت فى إمكانيات الخلق والتدبير بين الأشياء، فإذا انمحت النسبية بين المخلوقات عند الخالق سبحانه وتعالى فقد أصبح شأن التين والزيتون وهو من الزروع والمطعومات، كشأن الجبال الراسيات والشموس الساطعات، بل كشأن الكون بأسره فى قدرة الله الخالق، وهذه القاعدة الفكرية الأصولية القائمة على بديهيات المنطق العقلى والتى تضعنا أمام (الحقيقة

الإيمانيـة) تقرب لأفـهامنا وإدراكنا حقيـقـة القسم بالتين والزيتـون والليل والنهار، والضحى والليـل ، والطور وغير ذلك من الأشياء الحسية، والأفعال وغيرها مما خلقه الله وأراده بقدرته ومشيئته ولهذا فإن عظمة القسم بما يراه المبطلون ضئيلاً وهينًا كالتين والزيتـون الذى هو رمـز للمطعومات والزروع تمامًا كعظمـة القسم بأضخم الأشياء وأكبرها.

ولايخفى علينا أن انعدام النسبيـة بين المخلوقات فى قدرة الله سبحانه وتعالى ليس فيـه تعظيم للضئيل أو تحقير للكبير بل هو برهان على قدرة الله العلى القدير، التى تتلاءم فيها النسبية والسببية وتصبح الموجودات سواء بسواء بل حتى خالية من طبـائع الأشيـاء لتكون مـجـرد معنى ينحصـر فى كلمـة (كن) ولمجـرد أن يتـصـورها الإنسان تصوراً ذهنيًا.

هذا ما أردنـا أن نشرحه عـن تلك (الحقيـقة الإيمانيـة)، ولعل أصحـاب التـفكير العقلانى بآلياتهم الفكرية يستطيعون أن يدركوا هذه الحقيقة الإيمانية من خلال مفهوم النسبـية التى يعرفونها جيداً وطالما يستخدمونهاو لتكريس ثقافتهم المادية، ولعلهم فى هذه المناسبة يستخدمونها لفهم تلك الحقيقة الإيمانيـة، حتى يتمكنوا من تصحيح آرائهم ويتـراجعوا عن جهالتـهم فيـما يقولونه عن القسم بالأشيـاء البسيـطة كالتين والزيتـون ، ولعل أولئك المتطفلين على دراسة علوم القرآن والمتـعالمين من أصحـاب الفكر الاستـشراقى يدركون مافى القسم بالضئيل من المخلوقات من إبراز لحقيـقة القدرة بإسقاط النسبية بين المخلوقات وإظهار لعظمة الخالق بتساوى الضئيل والكبير فى مشيئته ولعل فى هذا الإيضاح القدر الكافى لإقامة الحجة وقطع المعاندة وانفتاح العقول على عظمة القرآن وإعجازه فى نظمه وموضوعه.

ومما سبق ذكره عن القسم فى القرآن نخلص بالآتى :

١ - (القسم) وسيلة من وسائل الإقناع وقد أفاض علمـاء اللغـة فى دراسـتـه والحديث عنه (انظر الأصلان فى علوم القرآن ص ٣٤٨)

٢ - القسم فى القرآن الكريم بشقيه المقسم به والمقسم عليه يمثل جانبًا من جوانب الإعجاز البيـانى كمـا يمثل جانبًـا من جوانب الإعجاز الموضوعى والعلمى ، ويبرز حقيقة إيمانية حسبما ذكرنا.

---

(١) انظر الأصلان فى علوم القرآن ص ٣٤٨.

الموضوع الرابع: افتتاح السور بحروف التهجى (١)

من المعلوم والمقطوع به أن القرآن الكريم كتاب معجز، وهو يمثل المعجزة العقلية التى تناسب الفكر والعقل لكافة البشر، والتى تظل باقية ومتحدية الإنس والجن، لتبقى حجة قائمة عليهم على مدى الوجود الإنسانى : بأن الإسلام هو الدين الموحى به من الله سبحانه وتعالى إلى خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد ثبت أن الإعجاز القرآنى متعدد الوجوه، ومن أبرز هذه الوجوه هو «الإعجاز البيانى» وكتاب هذا شأنه لايستطيع أحد مهما أوتى من البراعة والفقه باللغة أن يرد أو يعارض شيئًا من أسلوبه أو يوجه نقداً أو انتقاداً أو أن يفترض فيه لغواً فى الأسلوب أو أن يحاول حصره فى نطاق القواعد العربية النحوية أو البيانية بالقياس على أشعار العرب وأقوالهم وقت تنزل القرآن، وأن يصنف كلامه إلى عربى معروف وشائع وغير عربى مجهول أو أعجمى، فكل هذه الأقوال والآراء تنم عن قصور فى التعرف على إعجاز القرآن وعظمته وبلاغته وهى محاولات فاشلة (٢) وكل مَنْ يفعل ذلك فهو يحاول أن يجعل القرآن فى مستوى كلام البشر وأن يحصره فى نطاق علمه بما يرتكبه من حماقات فى إخضاع القرآن للدراسات القائمة على التقعيد اللغوى الذى هو من الاجتهاد البشرى.

ومن هذه المحاولات الساذجة التى قام بها بعض الباحثين رد حروف الهجاء التى جاءت فى أوائل بعض السور القرآنية، ومازالت حتى الآن خارج نطاق المعرفة ، ولم تعرف معانيها توقيفًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبقيت من المتشابهات إلى أن يفتح الله على بعض الباحثين فيعرفونها اجتهاداً لايقينًا ، ليظل القرآن الكريم متجدد العطاء دون حصر أو انتهاء، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وصفه للقرآن الكريم بقوله : «لايشبع منه العلماء . ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه..» الحديث.

ونقدم دراستنا عن الموضوع فيما يلى :

---

(١) وتسمى أيضًا : الحروف المقطعة - الفواتح - الحروف المفردة.

(٢) سوف نناقش ذلك فى باب الإعجاز البيانى بمشيئة الله.

أولاً: جدول حروف التهجى الموجودة بأوائل السور

حروف التهجى	السورة	الوحى	ترتيب السورة بالمصحف	ترتيب تنزيل السورة	التكرار	الآية التالية لحروف التهجى
آلم	البقرة	مدنى	٢	١	٦	﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) ﴾
–	آل عمران	مدنى	٣	٣		﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) ﴾
–	العنكبوت	مكى	٢٩	٨٥		﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) ﴾
–	الروم	مكى	٣٠	٨٤		﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) ﴾
–	لقمان	مكى	٣١	٥٧		﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) ﴾
–	السجدة	مكى	٣٢	٧٥	١	﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾
المص	الأعراف	مكى	٧	٣٩		﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾
آلر	يونس	مكى	١٠	٥١	٥	﴿ آلر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) ﴾
–	هود	مكى	١١	٥٢		﴿ آلر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) ﴾
–	يوسف	مكى	١٢	٥٣		﴿ آلر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) ﴾
آلر	إبراهيم	مكى	١٤	٧٢	١	﴿ آلر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) ﴾
آلر	الحجر	مكى	١٥	٥٤	١	﴿ آلر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ (١) ﴾

حروف التهجى	السورة	الوحى	ترتيب السورة بالمصحف	ترتيب تنزيل السورة	التكرار	الآية التالية لحروف التهجى
المر	الرعد	مكى	١٣	١٠	٢	﴿ الْمر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١) ﴾
كهيعص	مريم	مكى	٢٦	٤٧	١	﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) ﴾
طسم	الشعراء	مكى	١٩	٤٤	١	﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) ﴾
طسم	القصص	مكى	٢٨	٤٩	٧	﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) ﴾
طس	النمل	مكى	٢٧	٤٨	١	﴿ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾
ص	ص	مكى	٣٨	٣٨	١	﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) ﴾
حم	غافر	مكى	٤٠	٦٠		﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) ﴾
-	فصلت	مكى	٤١	٦١		﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) ﴾
-	الشورى	مكى	٤٢	٦٢		﴿ عسق (٢) كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ﴾
-	الزخرف	مكى	٤٣	٦٣	١	﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) ﴾
-	الدخان	مكى	٤٤	٦٤	١	﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) ﴾
-	الجاثية	مكى	٤٥	٦٥		﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) ﴾
-	الأحقاف	مكى	٤٦	٦٦		﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) ﴾
ق	ق	مكى	٥٠	٣٤		﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾
ن	القلم		٦٨	٢		﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾

ثانيا: تحليل البيانات الواردة بالجدول:

١- عدد السور التى افتتحت بحروف التهجى[١] سبع وعشرون سورة، منها ثلاث سور مدنية[٢] وأربع وعشرون سورة مكية.

٢- حروف التهجى هى: الم، المص، الر، المر، كهيعص، طسم، طس، ص ، حم، عسق، ق، ن.

٣- أكثر حروف التهجى تكراراً هى (حم): جاءت فى أوائل سبع سور مكية، تليها (الم)، وجاءت فى أوائل ست سور اثنتان مدنيتان وأربع مكيتان، تليها (المر) وجاءت فى أوائل خمس سور مكية.

٤- كل السور بدأت بصيغة واحدة من حروف التهجى، ما عدا سورة الشورى فقد بدأت بصيغتين هما: حم - عسق.

٥- هناك كلمتان يعتبرهمابعض العلماء من الحروف المقطعة ويعتبرهما البعض كلمتين ذواتى معنى وهما «طه»،و «يس»، ولهذا لم ندرجهما مع حروف التهجى.

٦- أعقبت حروف التهجى، آيات بها ذكر للكتاب أو الآيات أو إشارة لذلك، وكان ذلك فى جميع السور ما عدا ثلاث سور وهى : مريم، والعنكبوت والروم.

وكذلك فى سورة طه وسورة يس أعقب الحروف المتقطعة ذكر للقرآن الكريم ففى سورة طه، قوله تعالى: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ② إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٢-٣] وفى سورة يس قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ٢].

وهناك سور ثلاث بدأت بذكر القرآن ولم تكن مبتدأة بحروف التهجى وهى: سورة الكهف وقد بدأت بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١].

---

(١) تسمى حروف التهجى أحيانا "الحروف المقطعة"

(٢) السور المدنية هى: سورة البقرة، وسورة آل عمران، أما الثالثة فهى (سورة الرعد) وترتيبها فى التنزل (رقم ١٠) فهى لا تعتبر من السور المدنية المبكرة، كما أنها جاءت بعد تنزل جزء كبير من الوحى المدنى على ثلاث سور طوال :البقرة وآل عمران والنساء ، بالإضافة إلى عدد من السور المثانى.

وسورة الفرقان بقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وسورة الزمر بقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١].

٧- يلاحظ أن الحروف المقطعة جاءت فى أوائل سور من الطوال والمئين والمثانى وسورتين من طوال المفصل، ولم تأت فى أوائل السور القصيرة.

٨- السور التى افتتحت بالحروف المقطعة ليست من السور المتقدمة التنزل باستثناء سورة القلم وترتيبها فى التنزل (رقم ٢).

ثالثا: أقوال العلماء فى الحروف:

أقوال العلماء فى فواتح السور اجتهادية أو منقولة بروايات ضعيفة، ويمكننا حصر هذه الآراء فيما يلى:

١- «المعنى المقصود غير معلوم لنا (حتى الآن)، وهو من الأسرار التى استأثر الله بعلمها، ولم يطلع عليها أحد من خلقه وذلك لحكمة من حِكَمه تعالى، وهى ابتلاؤه سبحانه وتمحيصه لعباده، حتى يميز صادق الإيمان من ضعيفه، بعد أن أقام لهم أعلام بيانه، ودلائل هدايته، وشواهد رحمته، فى غير تلك الفواتح من كتابه، بين آيات وسور كثيرة، لا تعتبر تلك الفواتح فى جانبها إلا قطرة من بحر أو غيضا من فيض»[١].

«وهو قول الشعبى والثورى وجماعة من المحدثين قالوا: هو سر فى القرآن وهو من المتشابه...»[٢].

٢- «يقول العلامة ابن كثير رحمه الله: إنما ذكرت هذه الحروف فى أوائل السور بيانًا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التى يتخاطبون بها، وهو قول جمع من المحققين، وقد قرره الزمخشرى فى تفسيره الكشاف، ونصره أتم نصر، وإليه ذهب الإمام «ابن تيمية»

---

(١) مناهل العرفان ص ٢١٩.
(٢) الإعجاز البيانى للقرآن ص ١٥٠.

ثم قال: ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلابد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته مثل (الم، ذلك الكتاب) (المص، كتاب أنزل إليك) (الم، تلك آيات الكتاب الحكيم) (حم. والكتاب المبين. إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين) وغير ذلك من الآيات الدالة على إعجاز القرآن»[١] انتهى.

٣- «ومنهم من قال: إن المقصود منها هو تنبيه السامعين وإيقاظهم، وذلك أن قرع السمع فى أول الكلام بما يعيى النفوس فهمه أو بالأمر الغريب، دافع لها أن تصغى وتتيقظ وتتأمل وتزداد إقبالاً: فهى كوسائل التشويق التى تعرض فى مقدمة الدرس على منهج التربية الحديثة فى التعليم»[٢].

وفى تعبير آخر «قيل هى أصوات للتنبيه كما فى النداء، عمد إليها القرآن ليكون فى غرابتها ما يثير الالتفات، وقد ترك ما ألفوا من ألفاظ التنبيه إلى ما لم يألفوا، لأنه لا يشبه كلام البشر، ولكى يكون أبلغ فى قرع الأسماع.... وذلك المنبه «قد يكون كلامًا له معنى مفهومًا كقول القائل: اسمع، واجعل بالك إلىَّ... وقد يكون شيئًا فى معنى الكلام المفهوم كقول القائل أزيد، ويازيد، و ... ألا يازيد. وقد يكون صوتًا غير مفهوم كالصفير بالفم والتصفيق باليد..... ثم إن تلك الحروف بحيث تكون أتم فى إفادة المقصود الذى هو التنبيه، من تقديم الحروف التى لها معنى لأن المقدم إذا كان كلامًا منظومًا وقولاً مفهومًا، فربما يظن السامع أنه كل المقصود ولا كلام بعد ذلك، فيقطع الالتفات عنه. أما إذا سمع صوتًا بلا معنى، فإنه يقبل لا يقطع نظره عنه ما لم مايسمع غيره، لجزمه بأن ما سمعه ليس هو المقصود. فإذن تقديم الحروف التى لا معنى لها فى هذا الموضع، على الكلام المقصود، فيه حكمة بالغة (انتهى باختصار)[٣].

٤- وقيل هى من حروف الجُمَّل ... ونقل السيوطى تأويل الفواتح بهذا الحساب، فيما جمع من أقوال السلف فى هذه الحروف.

ونقل معه قول شيخ الإسلام الحافظ «ابن حجر»: «وهذا باطل لا يعتمد عليه...

---

(١) صفوة التفاسير حـ ١ ص ٣١، ٣٢.

(٢) مناهل العرفان ص ٢٢٢.

(٣) الإعجاز البيانى للقرآن ص ١٤٤، ١٤٥.

وكذلك رفضه الحافظ ابن كثير» من أئمة القرن الثامن للهجرة، قال: «وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم، فقد ادعى ماليس له وطار فى غير مطاره... وقد استسخفه الشيخ الإمام محمد عبده وقال فيه: «إن أضعف ما قيل فى هذه الحروف وأسخفه، أن المراد بها الإشارة بأعدادها فى حساب الجمل إلى مدة هذه الأمة أو ما يشابه ذلك...» انتهى باختصار[١].

٥- وقولهم هذه الحروف مقتطعات من أسماء الله، كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: الألف آلاء الله، واللام لطفه، والميم ملكه[٢]. وعنه أن "الر، حم، ن" مجموعها الرحمن، وعنه أن «الم" معناه أنا الله أعلم، ونحو ذلك فى سائر الفواتح... ويرجع الأمر إلى أنها أسماء مرموز لها بالحروف»[٣]. انتهى باختصار.

٦- «وقيل إن الحروف فى مفتتح السور تشير إلى غلبة مجيئها فى كلمات هذه السورة، ذكره "الزركشى" بمزيد تفصيل فى (البرهان)، بيانًا لوجه اختصاص كل سورة بما بدئت به.... قال: «وكل سورة بدئت بالحروف المفردة، فإن أكثر كلماتها وحروفها مماثلة له، فحق لكل سورة منها ألا يناسبها غير الواردة فيها، فلو وضع (ق) فى موضع (ن) لم يكن...[٤]» ا هـ باختصار.

٧- وشبيه بالقول الخامس، قولهم: «هى حروف يتألف منها اسم الله الأعظم ورووا عن سعيد بن جبير أنها أسماء الله تعالى مقطعة، لو عرف الناس تأليفها تعلموا اسم الله الأعظم[٥].

[وبعد] فهذه مجموعة من أقوال العلماء فى معانى الحروف ويتبين لنا كثرة هذه المعانى، وأنها أقوال اجتهادية كما سبق أن قلنا، والمستند منها إلى روايات عن ابن عباس وغيره من الصحابة، فإن الروايات ضعيفة.

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٥ - ١٤٨.

(٢) وذلك فى بيان معنى (الم).

(٣) مناهل العرفان ص ٢٢٥.

(٤) الإعجاز البيانى للقرآن ص ١٤٣

(٥) المرجع السابق ص ١٤٨ - ١٤٩.

وقد أراد بعض العلماء أن يكون بعيداً عن ذلك الجدل المثار حول الحروف واختلاف الأقوال في تأويلها، وفهم القاضي «أبو بكر بن العربي» الذي قال فيما نقل السيوطي من كلامه في فوائد رحلته: «ومن الباطل علم الحروف المقطعة في أوائل السور. وقد تحصل لي فيها عشرون قولاً وأزيد ولا أعرف أحداً يحكم عليها بعلم ولا يصل فيها إلى فهم. والذي أقوله أنه لولا أن العرب كانوا يعرفون لها متداولاً عنهم لكانوا أول من أنكر ذلك على النبي ﷺ..»(١).

رابعاً: أباطيل:

لقد كان من نتيجة الجدل المثار حول معاني الحروف المقطعة، والتمادي في التأويل، وانشغال المفسرين بها من قديم، أن تسلل إلى ساحة الجدل. دخلاء على علوم القرآن، فاضت صدورهم بالعداء والحقد على دين الإسلام، مستهدفين القرآن ونبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه، فجاءت مباحثهم خليطًا من الجهل الفاضح والتأويل الفاسد والبهتان الكالح ومما قالوه في مباحثهم عن الحروف المقطعة: «إن القسم المكي من القرآن قد اشتمل على لغو من الكلام في كثير من فواتح السور مثل «الم، كهيعص»...

هذه الألفاظ من وضع كتبة محمد ﷺ من اليهود تنبيهًا على انقطاع كلام واستئناف آخر، ومعناها (أو عز إليّ محمد) أو (أمرني محمد) يشيرون بذلك إلى براءتهم من الإيمان بما يأمرهم بكتابته. وقد كشف هذا القول عن جهالتهم بالتاريخ وشططهم في الافتراض وخاصة المستشرقين منهم وتشير إلى ذلك المقولات المعاصرة فيما ننصح من الحذر منه وكشفه وذلك يتطلب «التنبيه إلى ما وقع فيه بعضهم من أخطاء لغوية أو علمية أو تاريخية عن جهل أو عن سوء فهم وضيق نظر أو عن شطط في الافتراضات كادعاء بعضهم أن النبي ﷺ متأثر في فواتح السور باليهودية. وكأن القرآن من تأليفه هو. وقد فاتهم أن هذه عددها سبع وعشرون ولا تقصد سورة مدنية بهذه الفواتح سوى البقرة وآل عمران [مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية ص ٢٣ حـ ١].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: ١/ ٣٥.

ويزعم بعضهم بأن الحروف العربية غير المفهومة المفتتح بها أوائل بعض السور، إما أن يكون قصد بها التعمية أو التهويل أو إظهار القرآن فى مظهر عميق مخيف .أو هى رموز للتمييز بين المصاحف المختلفة ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآنا[١] انتهى بتصرف.

وهذه السخافات والأباطيل، لا تستحق رداً أو نقاشًا، ولا تحتاج إلى كشف فسادها، فأمرها واضح وبطلانها مفضوح[٢]، غير أنه من باب الحوار الموضوعى بقصد إظهار الحق وإزهاق الباطل فسوف نتعرض لهذه المزاعم ونكشف عن هذه الجهالات .

خامساً: الرد والإيضاح:

مما سبق ذكره وعرضه عن حروف التهجى - أى المقطعة - الموجودة بأوائل بعض السور، نرى من المناسب أن نشارك بالرأى من باب التوضيح والترجيح - فى هذا الموضوع الذى كثر فيه الكلام وطال حوله الجدل واختلفت الآراء فى تأويله، كما خاضت فيه أقلام بالباطل وتعامت عن حقيقته عقول يملؤها الهوى والحقد. ويعتمد منهجنا على ثلاثة عناصر:

١- التحليل والاستقراء ناظرين فى جدول حروف التهجى السابق الذكر.

٢- التوفيق بين آراء العلماء وأقوالهم باعتبارهاآراء اجتهادية تعتمد على العقل ولا تعتمد على النقل المرفوع إلى رسول الله ﷺ أو إلى صحابته صارفين النظرعن الروايات الضعيفة عن ابن عباس وآخرين من الصحابة رضوان الله عليهم.

٣- الأخذ بالمنطق المعقول القائم على ثوابت التاريخ ومسلمات الأخبار فى رد الأقوال المختلقة والتأويلات الفاسدة والاستنباطات الباطلة.

---

(١) مناهل العرفان ص ١٢٨/ حـ ١.

(٢) وقد أحسن القول فى تعليقه على أمثال تلك السخافات والأباطيل من قال عن واحد منهم «فالرجل لم يقدم آراء تقبل المناقشة بل هلوسة مخمور ربِّى على خرافات وعداوات كتبها حثالات المبشرين والاستعماريين عن الإسلام ويتلقفها الجهلة «جلال كشك - جريدة الوفد ص ٧ فى ١٩٩١/١/٥.

ونقدم رأينا فيما يلى:

أ- الحروف توجد بالسور المكية والمدنية:

وبالنظر فى جدول الحروف المقطعة وتحليلنا للبيانات الواردة به نلاحظ الآتى:

١- وردت الحروف المقطعة فى الوحى المكى كما وردت فى الوحى المدنى فهى لم تكن قاصرة على السور المكية. وجاءت فى افتتاح أربع وعشرين سورة مكية من ست وثمانين سورة مكية بما يعادل الربع وبذلك بطل قول الجهال القائلين «إن القسم المكى من القرآن قد اشتمل على لغو من الكلام فى كثير من فواتح السور مثل « آلم، كهيعص»[١] جهلاً أو إيهامًا منهم بأن فواتح السور بالحروف المقطعه كثيرة وأنها قاصرة على القسم المكى، حتى ينتقلوا بعد ذلك إلى استقراء فاسد وتسلسل منطقى خاطئ.

٢- جاءت الحروف المقطعة موزعة على بعض سور القرآن الكريم بدءاً من سورة القلم المكية وترتيب نزولها الثانية إلى سورة الروم وسورة العنكبوت المكيتين وترتيب نزولهما الرابعة والثمانون، والخامسة والثمانون أى أنها توزعت على القسم المكى من بدئه إلى قبل ختامه الذى انتهى بسورة المطففين وترتيب نزولها السادسة والثمانون.

وفى القسم المدنى جاءت الحروف المقطعة بدءاً من أول سورة مدنية وهى سورة البقرة تليها سورة آل عمران وأخيراً جاءت فى افتتاح سورة الرعد وترتيب نزولها العاشرة بالقسم المدنى من هذا نلاحظ أن هذه الحروف المقطعة فى أوائل السور، لم يكن مجيئها قاصراً على فترة من فترات الوحى بل جاءت على مدى الوحى القرآنى تقريبًا مما يُبطل استنباطات الجاهلين الذين يربطون بين الأسلوب القرآنى وبين فترات التنزيل حتى ينتقلون إلى ظنون وأباطيل بوجود مستويات فكرية متفاوتة لها تأثير على النظم القرآنى بقولهم الباطل «إن الباحث الناقد يلاحظ أن فى القرآن أسلوبين متعارضين لا تربط الأول بالثانى صلة ولا علاقة.

---

(١) مناهل العرفان ص ٢١٨.

٣- جاءت الحروف المقطعة افتتاحًا لسور من الطوال والمئين والمثانى ولم تأت فى سور المفصل المكية القصيرة : وهذا شاهد على بطلان ادعاءات الجاهلين الذين يفرقون بين السور من حيث الطول والقصر ويرون أن السور الطويلة ذات الآيات الطويلة ذات مستوى عال وعكسها السور القصيرة، ويقولون بأن الحروف المقطعة هى لغو من الكلام... وإما أن يكون قُصِد منها التعمية أو التهويل أو إظهار القرآن فى مظهر عميق، الشاهد على اضطراب منهجهم الإلحادى فى الاستقراء و الاستنباط ، هو أنه إذا كان الأمر كما يقولون عن الحروف المقطعة لكان من اللازم أن تكون فى افتتاح السور الصغيرة - الهابطة فى نظرهم -، ملازمة للغو مع الهابط، أو لأنها أولى بالتعمية والمظهرية ليرتفع مستواها فى نظر الكفار، وما كانت تأتى فى أوائل السور ذات الموضوعات والصياغة والأسلوب الراقى من المكى والمدنى فكفاها تلك المميزات كما يلزم الابتعاد عن لغو الكلام وهكذا فإن الجهلة من خصوم الإسلام على مر العصور يجانبهم المنهج الاستقرائى السليم ويحالفهم المنهج الاستنباطى اللئيم والسقيم.

٤- بدأت الفواتح بحرف واحد فى سور ثلاث وهى حروف ن، ق ، ص، فى سورة القلم، وسورة ق، وسورة ص، وترتيب نزولها ٢ ، ٣٤، ٣٨ ثم أعقبتها سورة الأعراف وترتيب نزولها (٣٩) وقد بدأت بحروف مقطعة عددها أربعة وهى «المص» ثم تلتها سورة مريم وترتيب نزولها (٤) وبدأت بحروف مقطعة عددها خمسة وهى «كهيعص»، ثم سورة الشعراء ورقم نزولها (٤٧) وبدأت بحروف مقطعة عددها ثلاثة وهى «طسم» ثم تلتها سورة النمل ورقم نزولها (٤٨) والحروف المقطعة «طس» وعددها اثنان وبعدها مباشرة سورة القصص (٤٩) والحروف المقطعة «طسم» وعددها ثلاثة ، ومما سبق نلاحظ عدم التدرج فى عدد الحروف التى بدأت بها السور لا تصاعديًا ولا تنازليًا، ونلاحظ أن الحروف المقطعة يتزايد عدد حروفها ويتناقص دون قاعدة ولا يمكن الخروج باستقراء عن هذا الاختلاف يؤدى إلى ملاحظات ونتائج تقود الخصوم إلى استنباطات توافق هواهم.

٥- نقر ملحظ مجئ الفواتح فى أوائل السور التى جاءت آيتها الأولى أو الثانية

وفيها ذكر أو إشارة أو انتصار للقرآن، غير أن الأقوال المترتبة على هذا الاستقراء وتلك الملاحظة والتى تمثل آراء لبعض الباحثين فى بيان معانى ودلالات هذه الحروف المقطعة لا يمكن القول بها على سبيل القطع، بل هى تدخل فى جملة الآراء الاجتهادية كقولهم فى مجىء هذه الحروف: «بيانًا لإعجاز القرآن بأن هذه الحروف المقطعة هى التى يتكون منها القرآن» وقولهم «إنها بمثابة منبهات فى كل سورة أولها ذكر القرآن...».

ولنا تحفظ على قولهم: «وكل سورة أوائلها حروف التهجى فإن فى أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن»[١] إذ أن هناك سور بدأت بحروف مقطعة ولم يرد فى أوائلها ذلك الذكر وهى سور: مريم والعنكبوت والروم.

وهناك سور بدأت بذكر القرآن ولكنها لم تبدأ بالحروف المقطعة وهى سور: الكهف، والفرقان، والزمر.

ب - الأقوال عن حروف التهجى ليست توقيفية.

بالنظر فى أقوال وآراء العلماء نرى أنها اجتهادية أو كما قال القاضى «أبوبكر ابن العربى» «ولا أعرف أحداً يحكم عليها بعلم ولا يصل فيها إلى فهم»[٢] ولكن رغم ذلك فمن المقطوع به أن الحروف المقطعة كان لها مدلول يعرفه العرب بل إنه مدلول شائع ومألوف وهو معروف من اللغة بالضرورة وإلا لثارت الاعتراضات من جانب الكفار والتساؤلات من جانب الصحابة بما كان يتحتم إيضاحه من قِبَل الرسول عليه الصلاة والسلام ويحرص على نقله الصحابة والتابعون إلى أن تصلنا هذه المدلولات متواترة وموقوفة، وفى هذا المعنى يقول القاضى أبو بكر ابن العربى «والذى أقوله إنه لولا أن العرب كانوا يعرفون لها مدلولا متداولاً عنهم لكانوا أول من أنكر ذلك على النبى ﷺ، بل تلا عليهم (حم)، (ص) وغيرها فلم ينكروا ذلك»[٣]

---

(١) الإعجاز البيانى للقرآن ص ١٥٢.

(٢، ٣) المرجع السابق ص ١٥١.

١- أن الحروف المقطعة هى من حروف الجُمل، وهى ترمز إلى معانٍ، ومنها بيان أجل الأمة الإسلامية وأنه واحد وسبعون عامًا (باعتبار الألف واحدة، واللام ثلاثون والميم أربعون). وهذا التأويل هو من علوم اليهود وإسرائلياتهم التى تسربت إلى التراث الإسلامى وتناقلها المفسرون إما لغفلة فيهم أو وفقًا لمنهجهم الموسوعى فى ذكر الروايات الصحيح منها والضعيف. وقد قال ببطلانها العلماء ويكفينا قول شيخ الإسلام ابن حجر: وهذا باطل لا يعتمد عليه، فقد ثبت عن ابن عباس الزجر عن (أبى جاد)، والإشارة أن ذلك من جملة السحر وكذلك قول الشيخ محمد عبده «إن أضعف ما قيل فى هذه الحروف وأسخفه : إن المراد بها الإشارة بأعدادها فى حساب الجمل إلى مدة هذه الأمة أو ما يشابه ذلك» ونضيف إلى أقوال أفاضل العلماء عن الحروف المقطعة وعلاقتها بحساب الجمل قولنا: إن الإسلام بعقيدة التوحيد وتشريعاته وتعاليمه قد أبعد المسلمين عن الاعتقاد أو التعلق بأعمال الشعوذة والتنجيم والسحر، وجاء القرآن الكريم على أعلى مستويات الفكر وحيًا إلهيًا، فلا بد أن يكون مترفعًا عن كل مشابهة لكافة الأعمال التى ذكرناها. وحساب الجمل فكر ساذج يدخل فى مجال الألغاز والرمزية التى شاعت فى الوسط اليهودى وتراثه الخرافى وفكره الأسطورى، ولم يكن الإسلام كذلك. وليس من المعقول أن يتعامل القرآن مع الرمزية الساذجة فى الوقت الذى بلغ حد الإعجاز بيانًا وتفرد بأضخم القضايا الفكريه وأدق المعارف والحقائق. فهل يعتقد أى باحث ومفكر أن هذا القرآن الذى يهدى للتى هى أقوم، والذى بلغ الذروة من الكمال نظمًا وموضوعًا أن ينشغل بهذه الرموز الساذجة التى يمكن أن نطلق عليها اصطلاحًا (علم الركاكة)؟ وهل تتوقع من المسلمين فى عصر تنزل الوحى وقد غمرت قلوبهم عقيدة التوحيد، وأصبح فكرهم قائمًا على التجريد، وآمنوا بحقائق الغيبيات، أن تهوى نفوسهم أو تنجذب عقولهم إلى هذه التراهات من المعارف التى شاعت فى أوساط اليهود الذين استحوذت عليهم غيبيات من لون آخر كالسحر، والتنجيم وحساب الجُمل؟

إذن لابد لكل باحث أن ينظر إلى المفارقات وأن يعقد المقارنات بين الفكر

الإسلامى القائم على التوحيد والتشريع الإسلامى الرافض للسحر والتنجيم وكل خرافات الحياة وبين الفكر اليهودى الغارق فى أعمال السحر والشعوذة والتنجيم وحساب الجمَّل وغيرها من الأمور التى تضفى على الفكر اليهودى ظلال السرية والباطنية وهى منبوذة ومرفوضة فى الإسلام.

لابد أن يلجأ الباحث إلى هذا الأسلوب المقارن بين العقلية الإسلامية والعقلية اليهودية عندما يبحث فى الحروف المقطعة وتأويلها وفهمها على ضوء حساب الجمَّل، وأن يقف على حقيقة الفكر الإسلامى من خلال العقيدة الإسلامية والتشريع الإسلامى، حتى لا يخرج عن الصواب وينجرف إلى الخطأ ويسقط فى أوحال الرأى والاختلاق .

٢- أن تكون هذه الحروف المقطعة من أسماء الله ونسبوا ذلك من خلال التلفيق التاريخى وتمرير الروايات الضعيفة «كما روُى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى (الم): (الألف) آلاء الله، (واللام) لطفه، (والميم) ملكه، وعنه أن «آلر، حم، ن» مجموعها الرحمن»[1].

جـ- دوام الإعجاز القرآنى:

من منطلق الإيمان بذلك فإننا ننظر إلى الحروف المقطعة بالقرآن ولابد أن يكون من صفاته أن يعجز البشر على أن يحيطوا به علماً ليظل دائم الإعجاز متجدد العطاء مناسبا لكل زمان ومكان بنصه الثابت، وما يترتب عليه من التنوع والتوسع والاستمرار فى الفهم بالمعطيات العقلية التى ينعم الله بها على الأجيال المتعاقبة من بنى الإنسان. ولو تمت الإحاطة بالقرآن لطائفة من البشر أو لعصر من العصور أو لفريق من الباحثين كما يحدث لكافة المؤلفات البشرية، لتوقف عن استمرارية التجديد والعطاء ولأصبح مرجعًا تاريخيًا فحسب مهما كانت أهميتة وعظمته.

وشاهدنا على أن القرآن الكريم ستظل الإحاطة به أمراً مستحيلاً وسيحصل منه كل عصر على قدر جديد بالإضافة إلى ما سبق إدراكه ومعرفته هو ما نشاهده من تجدد العطاء من وقت تنزله فى عصر النبوة حتى يومنا هذا. وليكون القرآن معجزة

(١) مناهل العرفان ص ٢٢٥.

عقلية فهو يتميز بالخلود والأبدية ولهذا فيلزم كما قلنا أن يكون دائم العطاء، وكاشفًا ومهيمنًا على أساسيات كل معقول وكل معلوم. ولاضير أن يعلم منه المتأخرون ما خفى على المتقدمين وأن يظل على الدوام معلومًا فى بعضه ومجهولاً فى أكثره فذلك دليل عظمته وبرهان إعجازه حيث إنه لم يأت لعصر واحد فيعرف عنه كل شئ بل هو لكل العصور وللبشرية كافة يعرفون منه بقدر ما أراد الله لهم أن يعرفوه. ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فقد عرف العلماء منه على عهد رسول الله ﷺ أكبر قدر من التشريع والتعاليم خاصة فيما يتعلق بالحلال والحرام، ولكنهم وقفوا عند ظاهر القرآن فى العلوم الكونية، وكان حظهم فى معرفة الحقائق والسنن الكونية ضئيلاً، ثم جاء المتأخرون خاصة فى عصرنا هذا وعرفوا بعض الحقائق الكونية وفهموها من الآيات القرآنية من غير تعرض للتفاصيل. ولم يكن عدم وقوف الصحابة على هذه الحقائق الكونية من الإشارات القرآنية جهلاً منهم أو قصوراً فى فهم القرآن أو انغلاق الآيات القرآنية عن عقولهم أو لا نبهام أجزاء من القرآن باعتباره كتاب واجب الفهم، فإن الأمر لا يعدو كما قلنا أن يكون متعلقًا بطبيعة القرآن المعجزة وعدم القدرة على الإحاطة به، واستمرار الفهم والعطاء المتجدد على الدوام، وقياسًا على ما قلناه عن صفة الإعجاز فى العطاء الدائم المتجدد فإن الحروف المقطعة وإن ظلت مجهولة فشأنها شأن الكثير من خبايا المعانى القرآنية التى لم تعرف بعد. ولا يظن الجاهلون بعظمة القرآن وإعجازه أن هذه الحروف هى ضرب من الإبهام أو لغو الكلام لم يستطع أحد من المسلمين إدراك معانيها ، وبذلك انعكست المفاهيم فى عقولهم وأفهامهم، فما هو إلا شواهد إعجاز وعظمة جعله أولئك الجاهلون مطاعن وشبهات وعليهم أن يدركوا جيداً أن القرآن بإعجازه نظمًا ومعنى - كما أجمع الدارسون لعلوم القرآن من علماء الأمة الإسلامية - سيظل الكثير منه ضمن خزائن علم الله وغير معلوم على وجه الحقيقة إلى أن تأتى أجيال متعاقبة من العلماء المشتغلين بعلوم القرآن يبحثون ويدرسون وربما يصلون إلى معرفة معانٍ لبعض الحروف المقطعة على وجه الحقيقة أو يدركون معانى لها على وجه التأويل، ولربما تظل هذه الحروف مستعصية على الفهم لتبقى سراً من أسرار العلوم إلى أن يشاء الله إظهارها.

د - رأى اجتهادى

ليس هذا القول منا هو على سبيل القطع أو من باب التأويل، بل هو محاولة للاتجاه نحو معرفة الحقيقة بقصد التعرف على معانى الحروف المقطعه طالما أنها واردة بالقرآن وكل ما فى القرآن له معان ومقاصد ونطالب بالبحث عنها ضمن تدبر القرآن كما قال تعالى ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [محمد:٢٤] ولسنا مع الذين تأولوا هذه الحروف كما أشرنا سابقًا إلى ما نسب إلى ابن عباس رضى الله عنه فى تأويله لمعنى (الم) (الألف) آلاء الله (واللام) لطفه (والميم) ملكه ولكنى أطرح تصوراً وهو أن هذه الحروف فى كل فاتحة للسور هى اختصار لكلمات ، وكل حرف هو بمثابة اختصار لكلمة وهو عبارة عن أول الكلمة.

وهذه الكلمات لها معان، والأمر يحتاج إلى محاولات لمعرفة هذه الكلمات من خلال الدارسة الدقيقة لمضمون السور ومقاصدها، وهذا يحتاج أيضًا إلى دراسات منهجية تقوم على الاستقراء الدقيق والنظر فى عدة جوانب عند دراسة السورة التى تصدرتها هذه الحروف المقطعة.

ولابأس من اختيار أكثر من كلمة يرمز إليها الحرف الواحد، حتى لا يكون القول على سبيل القطع، ولكنه يأتى على سبيل الاحتمال والتوسعة فى الفهم، وهذا ما يجب أن يكون فى كل رأى اجتهادى لم يكن مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ أو منقولاً عن صحابته رضوان الله عليهم وفق الضمانات اللازمة للنقل سنداً ومتنًا.

وقد أصبح اختصار العبارات من أفضل أساليب التعبير والكتابة، وأصبحنا نشاهد ونقرأ أهم العبارات وقد كتبت بالحروف الأولى للكلمات، وأصبح ذلك شائعًا فى الكتابات العلمية بصفة خاصة، وكثيراً ما تكتب المصطلحات والعبارات بالحروف الأولى لكل كلمة. والأمثلة على ذلك لا تحصى مما يعرفه المتخصصون فى كل علم وكل فن ونذكر على سبيل المثال العبارات التالية:

١- الأمم المتحدة UN = United Nations

٢- إدارة الأغذية والدواء FDA

٣- الإدارة القومية للملاحة الجوية والفضاء (ناسا) NASA

٤- المؤسسة القومية للعلوم NSF

٥- منظمة الصحة العالمية WHO

٦- السنة الميلادية A. D = Anno Domini

٧- السنة الهجرية A. H = Anno Hegirea

٨- دستور الأدوية المصرى. EP

والقرآن الكريم وهو معجز إعجازاً مطلقًا فى نظمه وموضوعه وقد جعله الله حجة على الناس كافة، لا يخلو من الإشارات الدالة على إعجازه، والإيحاءات التى تُذكِّر الناس بهذا الإعجاز، ويضرب الله الأمثال فى كتابة العزيز ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الإسراء:٨٩] وربما تكون الحروف المقطعة هى اختصار لكلمات وعبارات، سبق بها القرآن هذا الأسلوب الحضارى فى كتابة العبارات بأحرفها الأولى خاصة تلك العبارات الخاصة بالمصطلحات الشهيرة أو العبارات العلمية الهامة، وقد شاع ذلك الأسلوب فى الكتابة فى العصر الحديث فإذا عاب الجهال وجود هذه الحروف المقطعة فى أوائل السور، فمن حقنا أن نقول لهم: أفمن هذا الحديث تعجبون وتسخرون أيها الجاهلون !! ومن حقنا أن نقول لهم انطلاقًا من الإيمان واليقين بالإعجاز القرآنى نظمًا وموضوعًا: إن الإعجاز لا يحمل لغواً، وإن القياس يلزمنا جميعًا بأن لا نتصور نقصًا فى هذا الكتاب الذى أقر العلماء بإعجازه بل نقول كل من عند الله، وأقل ما يجب علينا فهمه لهذه الحروف المقطعة أن نفترض لها معانى ومقاصد. ولعل من بين هذه المقاصد الاختصار فى كتابة بعض العبارات وتدوين كلمات بالحروف الأولى لعلها مسميات هامة مازالت من أسرار القرآن الكريم، شأنها شأن الأسرار والحِكَم المنبثة فى القرآن التى مازالت خافية على العقول، وهى تظهر قدْراً بعد قدْر حتى يظل القرآن متجدداً ودائم العطاء وحتى لا يفتن الناس بوفرة العطاء دفعة واحدة ويعميهم البطر بوفرة النعم تأكيداً لقوله تعالى ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ [الشورى:٢٧] وليعلم أولئك الجاهلون أنه ليس فى مقدور أى مخلوق مهما بلغت قدراته العقلية والدراسية أن يقتحم أسرار علم الله ولا يملك أن يعرفها إلا إذا كان الله قد قدَّر وأراد، وأذن

ويسر، وليفقهوا قوله تعالى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

هـ- رد على المزاعم

يقول العلماء في معرض الجدل مع الجاهلين: ما ناقشني جاهل إلا وغلبني» ونقول لأولئك الجاهلين: الحق يعلو ولا يعلى عليه، كما نقول لهم : يبقى الباطل ساعة، ويظل الحق إلى قيام الساعة، ونقول لهم أيضًا كما قال غيرنا: إذا لم تستح فقل ما شئت..

هذا هو حالنا مع أولئك الجاهلين الذين لا يفقهون، ويركبون أمواج الباطل فيما يقولون، ويرتدون مسوح العلم والمعرفة فيما يقدمون وقد ذكرنا طرفًا من أباطيلهم وسخافاتهم فيما يقولون عن الحروف المقطعة ولا يسعني إلا أن أبرز الحقائق التالية وأضعها أمام كل من يعقل وينصف لينظر فيما يقوله خصوم الإسلام ويحكم عليهم من خلال تلفيقاتهم :

١- الحروف المقطعة في أوائل السور، لها مدلولها وتأويلاتها حسبما اجتهد العلماء، كما أن لها أسرارها ومقاصدها والله أعلم بمراده.

وقد بلغنا الغاية في التوضيح. ومن يقول بلغو الكلام فهو يجهل عظمة القرآن وإعجازه نظمًا وموضوعًا. وإصراره وعدم اقتناعه هو ضرب من المكابرة والعناد، ومنهجه هو ضرب من المغالطات، ومناقشته هو ضرب من مناقشة الجاهل الشقي، كما أنه ليس بعد الكفر ضلال .

٢- من الثابت أن كتبة الوحي كانوا فئة متميزة من الصحابة وقد اختارهم الرسول ﷺ من بين المسلمين المقربين الذين كانوا يعرفون الكتابة. وقد نقلت الروايات الصحيحة أسماء كتبة الوحي بمكة والمدينة، وقد ذكرنا ذلك في مباحث سابقة عن الوحي وكتبة الوحي.

ولم يثبت على الإطلاق أن من بينهم من كان على ملة اليهود. ولو كان من بينهم كتبة من اليهود لما أغفلت الروايات الصحيحة ذكر أسمائهم وقد رأينا في كتب السيرة ذكر« عبد الله بن الأُرَيقِطْ» الدليل غير المسلم الذى استعان به الرسول ﷺ عند الهجرة من مكة إلى المدينة، وقد التزم السرية والأمانة فلم ينقل الخبر إلى قريش

وكان فى مقدوره أن يفعل ذلك ولكن الله سبحانه وتعالى عصم نبيه بأن أودع الإخلاص فى قلب ذلك اليهودى. فلو أن يهوديًا كان يشارك فى كتابة الوحى لجاء ذلك فى الروايات الصحيحة بالسيرة. وخلاصة القول «أنه لم يكن للرسول ﷺ كتبة من اليهود أبداً وها هو التاريخ حاكم عدل لا يرحم ولا يحابى، فليسألوه إن كانوا صادقين»[(١)].

كما أن تأويلهم لبعض هذه الحروف المقطعة بمعانٍ - بعد أن أولوا الفواتح بحساب الجمَّل الذى شاع بينهم من باب السرية والباطنية - ليس لها وجود فى أساليب التعبير «وأنه لا دليل لهم أيضًا على أن فواتح هذه السور تستعمل فى تلك المعانى التى زعموها وهى (أو عز إلىَّ محمد) أو (أمرنى محمد) لا عند اليهود ولا عند غيرهم فى أية لغة من لغات البشر»[(٢)].

ولا ندرى شيئًا عن أباطيلهم : أهذه الحروف المقطعة كتبها اليهود وقت مشاركتهم التى ادعوا أنهم قاموا بها ؟، أم بعد ذلك فى عصور متأخرة ؟! فإذا كانت الكتابة حين تنزلت آيات القرآن، فكيف تركهم الرسول ﷺ ليكتبوا شيئًا لم يوح به، وكيف يقرهم على كتابة كلمات لا يفهمها صلوات الله وسلامه عليه، وهو الذى كان حريصًا على أن يدون آيات الوحى بكل دقة؟ وإذا كان اليهود المتخصصون فى تحريف كتب الله (التوراة والإنجيل) قد حاولوا وضع تلك الحروف فيما بعد، فكيف تركهم المسلمون من جيل الصحابة والتابعين ومن جاءوا بعدهم يرتكبون هذا العمل الفاحش فى كتاب الله بعد أن استقر فى المصحف وحفظه المسلمون فى الصدور منذ أن تنزل آيات متفرقات ؟... إنه الادعاء فى القول والخبال فى العقل والفساد فى الفكر..!!!

٣- ومن الثابت أن المصحف الإمام الذى نسخته لجنة من أكابر الحفاظ على عهد سيدنا عثمان، قد نقلوه عن الصحف البكرية المنسوخة عن الصحف النبوية، وتم ذلك كله توقيفًا عن رسول الله ومطابقًا لما هو محفوظ فى الصدور لدى جميع الصحابة، فكيف تسربت إليه هذه الحروف المقطعة باعتبارها كما يقول الجاهلون «هى رموز

---

(١) مناهل العرفان ص ٢١٩.

(٢) المرجع السابق ٢١٩.

للتمييز بين المصاحف المختلفة ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآنًا»[١].

فهل رأيتم بهتانًا أسخف من هذا البهتان، وهل شاهدتم خبالاً فى الفكر مثل هذا الخبال؟! وليس فيما قاله الجاهلون ما يستحق المناقشة أو الرد[٢].

و - اجتهادات مستمرة

سوف يظل القرآن كما قلنا مراراً متجدد العطاء. ولقد أتاح البيان المعجز للقرآن عن طريق المتشابه الذى يحتمل التأويل والاجتهاد فى الرأى، وعن طريق الإشارات اللماحة إلى بعض الحقائق من غير تعرض للتفصيل، إلى غير ذلك من أساليب البيان، أتاح كل هذا الإعجاز فى التعبير لأن يواصل العلماء اغترافهم من فيوض المعانى القرآنية ما وسعهم العقل، وساعدهم الفكر، وأعانهم الإخلاص، وسيظل العلماء فى كل فن وعلم يواصلون الاغتراف ما بقى الإنسان العاقل على وجه الأرض.

وكانت الحروف المقطعة فى أوائل السور موضع اهتمام السلف «فما يخلو كتاب تفسير من التعرض لها. وغالبا ما يأتى كلامهم فيها عند تفسير فاتحة سورة البقرة (الم) إذ هى أول سورة فى ترتيب المصحف مفتتحة، بالحروف»[٣] ولكون الفواتح من المتشابهات[٤] فقد كثرت الاجتهادات حول التعرف على معانيها ولم تتوقف حتى الآن وبعضها مقبول وبعضها غير مقبول .

(١) المرجع السابق ص ٢١٨.

(٢) من هذا القبيل وما سبقه من سخافات وخبال ما يصدر من أبحاث فى البلاد غير الإسلامية وبعضها مقدم لنيل درجات علمية «وهناك رسالة دكتوراه من جامعة بريطانية تقول: إن الإسلام لم يظهر إلا فى عهد عبد الملك، وأن النبى كان يبشر بالمسيح وأن أتباع النبى ظلوا يهوداً إلى أيام عبد الملك بن مروان وأن لقب المهاجرين ليس من الهجرة إلى المدينة بل من هاجر أم إسماعيل» العدد فى ١٩٩١/١/٥ جلال كشك - الوفد - ص ٧.

(٣) الإعجاز البيانى للقرآن ص ١٤٢.

(٤) «ويبدو أن القول بأنها من المتشابه هو ما غلب على المتأخرين بحيث ساغ للسيوطى أن يضع الأقوال المختلفة فى هذه الحروف فى نوع المتشابه، وإن لم يقصره عليها، بل أضاف إليها غيرها مما قيل إنه من متشابه القرآن. وقد بدأ الفصل الخامس من نوع المتشابه بقوله: «ومن المتشابه أوائل السور. والمختار فيها أنها من الأسرار التى لا يعلمها إلا الله تعالى» الإعجاز البيانى للقرآن ص ١٥٠-١٥١.

ومن الاجتهادات فى العصر الحديث ما ذكره الشيخ طنطاوى جوهرى، فى تفسيره لسورة آل عمران، ونقطف منه الآتى: « ... فهكذا هنا فى القرآن جاءت الحروف العربية مقسمة قسمين، قسم منها أربعة عشر منطوق به فى أوائل السور وقسم منها أربعة عشر غير منطوق به فى أوائلها وكأنه تعالى يقول:«أى عبادى إن منازل القمر ثمان وعشرون وهى قسمان .ومفاصل الكف ثمانية وعشرون وهى قسمان، وهكذا . والحروف التى تدغم فى حرف التعريف والتى هى معلمة كل منها أربعة عشر. وضدها أربعة عشر، فلتعلموا أن هذا القرآن هو تنزيل منى، لأنى نظمت حروفه على هذا النمط الذى اخترته فى صنع المنازل والأجسام الإنسانية والأجسام الحيوانية ونظام الحروف الهجائية، فمن أين لبشر كمحمد أو غيره أن ينظم هذا النظام، ويجعل هذه الأعداد موافقة للنظام الذى وضعته، والسنن الذى رسمته والمنهج الذى سلكته ؟ إن القرآن تنزيل منى وقد وضعت هذه الحروف فى أوائل السور لتستخرجوا منها ذلك فتعلموا أنى ما خلقت السموات والأرض وما بينهما باطلاً، بل جعلت النظام فى العالم وفى الوحى متناسبًا... » (مناهل العرفان ٢٢٨، ٢٢٩).

وفى دراسة حديثة بعنوان (التفسير العلمى لحروف أوائل السور فى القرآن الكريم) نقتبس ما يلى :

«جميع لغات العالم لها أربعة مستويات: مستوى الحرف ثم الكلمة، ثم الجملة ثم المعنى، أما اللغة العربية نجد بها مستوى خامسًا هو مستوى الرموز الصوتية . هذا المستوى الذى تنفرد به اللغة العربية هو أصل الكلام... تتكون اللغة العربية من ٢٨ حرفًا ثابتًا و ثلاثة أحرف متحركة (ضمة، فتحة، كسرة)... كل حرف من هذه الأحرف له معناه كرمز، وهذا المعنى يتوقف على مخرجه من أدوات الصوت فى الإنسان - (ص٥).

حرف (ر): ينطق عن طريق تحريك اللسان داخل الفم حركة متكررة، لذلك فهو رمز لكل ما يتكرر وكل عملية تعمل على مراحل أو بالإعادة والتكرار ونجد أن أفعال اللغة التى تبدأ بحرف (ر) تدل دائما على حركة إعادة أو تكرار أو تتابع أو تقسيم عمل على مراحل مثل: رجع ردم ردف ردًّ وبما أن حركة المطر حركة فيها تكرار نجد أنها كثيراً ما تعبر عن ذلك مثل : رخ - رذ - رش...

أما إذا جاء حرف (ر) فى آخر الكلمة فكثيراً ما تدل على تصعيد فى حركة معينة مع التكرار مثل: خرَّ فرَّ - (ص ١٦).

(س) ، (ص):

إن هذين الحرفين من حروف الصفير ولكن (س) تنطق عند طرف اللسان والثنايا العليا، أما (ص) تنطق واللسان في الحلق وعند أصول الثنايا العليا وهما من الأضداد.

فكل حسب مخرجه (س) تدل على السهولة فى الحركة واليسر فى طريق ومنهج مستو سهل. (مثل): سار ساب سرح سافر سقط أما (ص) فهى تدل على كل ما هو قوى شديد مثابر (مثل):

صمد صلد صلب صبر صعد.

ومن الأصوات القوية الشديدة: (مثل) : صرخ صاح، صفق ومن الأعمال القوية : (مثل) صهر صنديد .... (ص ٢٨).

إن القرآن الكريم يستعمل اللغة العربية لاعلى مستوى الكلمة فحسب بل على مستوى الرموز الصوتية، فالكلمة مبنية من هذه الرموز وتخضع لمعانيها وأوزانها... وهذه الطريقة تعطى الكلمات أعماقًا وتأثيرات على المشاعر أعظم وألطف مما تعطيه الكلمات التى لا تأخذ فى الاعتبار معنى الأصوات الرمزية فيها: (مثال ذلك):

(بكة) و (مكة):

نجد أن ذكر مكة المكرمة فى القرآن العظيم فى سورة آل عمران باسم (بكة) فى الآية التالية: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٦].

ونجد أن فى الآيات التى تذكر فيها بعد ذلك تسمى (مكة) فما السبب ؟

يرجع السبب فى ذلك إلى معنى الرمز (ب) ومعنى الرمز (م)

فالباء كما وضحنا هى رمز للبداية ولعمل أو بناء أو خلق لم يكن له وجود من قبل ولذلك حينما يقرن ذكر مكة بأنها أول بيت وضع للناس تسمى (بكة) لأنه أول

بناء شيد لنفع الإنسان على الأرض. والباء تشير إلى ذلك وتعطيها الأولوية والسبق في الوجود.

أما حرف الميم وهو ما يدل على الثبات والمكث والبقاء الطويل فهو لها أيضًا لأنها بنيت لتبقى في قرون كثيرة وستبقى إن شاء الله حتى يرث الله الأرض ومن عليها. ولو وضعت (م) في أول ذكر لها لكان خطأ على مستوى الرموز الصوتية والله سبحانه معصوم من ذلك. ولو وضعت (ب) واستمرت فيما يليها من آيات لدل ذلك على أنها بدأت ولكن بقاءها غير مأمون أو غير طويل، والحمد لله أن هذا لم يحدث» اهـ باختصار [(١)].

الحوت ، النون : إذا نظرنا إلى الآيتين التاليتين :

(١) ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم:٤٨].

(٢) ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧] نجد في الآية الأولى كلمة (حوت) وفي الثانية كلمة (نون)[(٢)] وهو الحوت أيضًا فلماذا اختيرت كلمة حوت لآية (١) وكلمة نون للثانية؟

السر موجود في هذه الكلمات نفسها وصلتها بما حولها. فكلمة حوت تبدأ بـ (ح) رمز الحدة والأثر العميق، وتنتهي (بالتاء) وهي رمز وقع أو المشي الخفيف وهي عكس حرف (ط) ذو الحركة العالية القوية.

إذاً هذا شئ يمشي تاركًا أثراً قويًا يتلاشى أو يخف وهذا وصف لحركة الحوت في الماء وهو كناية عن حركة الشعور في صاحب الحوت نفسه فهو كان غاضبًا ثائراً ثم بدأت ثورته تضعف ثم تزول ولذلك يذكر هنا على أنه صاحب الحوت أو مثله في الحركة.

---

(١) التفسير العلمي لحروف أوائل السور في القرآن الكريم ص ٣١، ٣٢.

(٢) ذا النون: هو يونس عليه السلام.

أما كلمة (نون) مكونه من (ن) التى تدل على عائق ثم (و) توسع ثم (ن) أخرى أى عائق آخر فهو فى باطن الحوت فى سجن محكم ثم لا يرى أى مخرج أو أى اتجاه من الظلام المحيط به.

ونجد أن الآية الكريمة تقوى فكرة الظلام وعمقه بتكرار حرف (ظ) الذى يشير إليه فيها: ظن الظلمات الظالمين - كلها تبدأ بالظاء و (ظ) رمز الظلام، ونلاحظ هنا أنها ليست ظلمة واحدة بل ظلمات وهذا ما ترمز إليه كلمة نون» ١ هـ[١].

حروف أوائل السور فى القرآن الكريم

يوجد فى القرآن الكريم ١١٤ سورة تحمل ٢٩ منها حروفًا فى أولها وهذه الحروف عبارة عن رموز، والرمز هو قانون عام أو سنة من سنن الله. هذا الرمز أو القانون التجريدى هو ناصية السورة ومفتاحها من فهمه فهم علاقة آيات السور ببعض وفهم خط سير ومصير كل شئ ينطبق عليه الرمز... »[٢].

سورة ص

لقد تناولنا حرف الصاد كرمز وبينا أنه رمز القوة والصمود والصبر ونجد فى هذه السورة الكريمة (ص) تتصدر أولها وكأنها مفتاحها. فصاد على أعلى مستوى هى رمز الصبر والصمود والصمد، والصبور هو الله سبحانه، فلا صبر بعد صبره ولا صامد أبد الدهر سواه، وطبيعى أن يكون فى هذه الحالة الرمز فوق إدراك البشر فسبحانه ليس كمثله شئ.

أما على مستوى البشر فهى صبر الأنبياء والصبر هو صفة من صفات قوة الإيمان، فكلما كان إيمان المرء أعظم كلما طال صبره فهو الثقة فى الله عز وجل ولذلك نجد فى هذه السورة قصة سيدنا أيوب عليه السلام وهو مثال للصبر، ثم نجد ذكر الأنبياء فى الآيات التالية: ٤٥ ، ٤٦ .

---

(١) التفسير العلمى لحروف أوائل سور القرآن.

(٢) المرجع السابق ص٥٧.

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٥، ٤٧].

ووصف سيدنا أيوب بأنه :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص:٤٤].

وممكن أن يكون الصبر فى الضلال مثل ما قال الكفار (فيما رواه القرآن)

﴿ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ [ص:٦].

ونجد أن حرف (ص) يستعمل بسخاء فى هذه السورة دون غيرها[1]، ونجد الكلمات الآتية تستعمل ومنها ما يكرر:

مناص - اصبروا - أصحاب - صيحة - اصبر - فصل - خصمان - الصراط - الصالحات (مكررة) الصافنات - أصاب - غواص - الأصفاد - صابراً - الأبصار - أخلصناهم - المصطفين - قاصرات - يصلونها - صالوا - الأبصار - تخاصم - يختصمون - المخلصين.

وهذه الكلمات ليست صدفة فلا يوجد صُدَف فى القرآن الكريم..

وهذه السورة تواسى النبى ﷺ وتحثه على الصبر بأمثال الصبر فيها وبالقول:

﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص:١٧] ا هـ باختصار[2].

*****

(١) «وقيل إن الحروف فى مفتتح السور تشير إلى غلبة مجيئها فى كلمات هذه السورة .ذكره «الزركشى» بمزيد تفصيل فى (البرهان): بيانًا لوجه اختصاص كل سورة بما بدئت به، حتى لم تكن لترد (الم) فى موضع (الر) ولا (حم) فى موضع (طس) قال: «وكل سورة بدئت بالحروف المفردة فإن أكثر كلماتها وحروفها مماثل له...»

(٢) التفسير العلمى لحروف أوائل سور القرآن الكريم ٥٨ - ٦١.

الفصل الخامس

نزول القرآن على سبعة أحرف

وقراءات القرآن

مقدمة:

لا يخفى أن الموضوع هام وخطير والبحث فيه شاق وعسير فهو «مبحث طريف وشائق، غير أنه مخيف وشائك... وأما مخافة هذا المبحث فلأنه كثر فيه القيل والقال إلى حد كاد يطمس أنوار الحقيقة حتى استعصى فهمه على بعض العلماء ولاذ بالفرار منه، وقال إنه مشكل وحتى اضطر جماعة من كبار المحققين أن يفردوه بالتأليف قديمًا وحديثًا... أضف إلى ذلك أن الخطأ فى هذا الباب قد يتخذ منه أعداء الإسلام سبيلاً عوجًا إلى توجيه المطاعن الخبيثة إلى القرآن، كما وقعت أو وقع على كُتَّاب لمن يدعون أنفسهم مبشرين، وأسموه مباحث قرآنية، وتصيدوا فيه من الآراء المزيفة ما الحق منه برئ»[1] ١ هـ باختصار وكان من الأفضل أن يستقر موضوع «نزول القرآن على سبعة أحرف» كما استقر القرآن الكريم فى نصوصه، وأن يصبح الموضوع بعيداً عن المحاورات والاجتهادات وألا يكون سجالاً بين العقول، وساحة للرأى تمرح فيها الأفكار وتصول، خاصة وأن «الأحرف السبعة» هى فى الأصل مستقرة لأن الصحابة قرءوا القرآن بها على عهد رسول الله ﷺ، وتناقلها المسلمون قراءة بالتواتر حيث إنها تمثل الأسلوب العملى لانتقال القرآن بالقراءة والتلاوة.

وسوف نراعى فى المبحث الخاص بالأحرف السبعة هدفين أساسيين:

الهدف الأول: توضيح الموضوع بقدر ما وسعنا الجهد.

الهدف الثانى: الابتعاد ما أمكن عن خضم الآراء ومتاهات الأقوال، وتناطح الأفكار، وذلك بحصر دراسة الموضوع داخل أطر ثلاثة:

---

(١) مناهل العرفان ص ١٣٠ - ١٣١.

١- مفهوم السبعة أحرف على ضوء الأحاديث الصحيحة دون تأويل مخل أو فهم يتعارض مع الواقع.

٢- ما تجيزه الكتابة بالمصاحف العثمانية.

٣- تواتر التلاوة للقراءات بعيداً عن القراءات غير المتواترة.

المبحث الأول
أدلة وبيان الأحرف السبعة

من الحقائق الثابتة والمجمع عليها أن القرآن الكريم تواترت قراءته كما تواترت كتابته مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ ، كما أن القراءة بالأحرف السبعة للقرآن الكريم قد تواترت مرفوعة باعتبارها الجانب التطبيقى للقراءة التى قرأ بها رسول الله ﷺ ، وهذه جملة من الحقائق يلزمنا مراعاتها حين التحدث عن الأحرف السبعة التى شاعت واستقرت على عهد رسول الله ﷺ .

الموضوع الأول: أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف:

الدليل الأول: الأحاديث النبوية:

وردت أحاديث صحيحة تفيد أن القرآن تنزل على سبعة أحرف. وقد رواها جمع كبير من الصحابه منهم: عمر ، وعثمان، وابن مسعود، وابن عباس، وأبو هريرة، وأبو بكر، وأبو سعيد الخدرى، وأبى بن كعب، وزيد بن أرقم وسمرة ابن جندب، وعبد الرحمن بن عوف، وعمرو بن العاص، ومعاذ بن جبل، وأنس وحذيفة... رضى الله عنهم أجمعين.

ونذكر بعض هذه الأحاديث فيما يلى:

(١) روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ : أقرأنى جبريل على حرف، فراجعته، فلم أزل أستزيده، ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف .

(٢) روى البخارى ومسلم - (واللفظ للبخارى) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: «سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول الله ﷺ

فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة، لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أساوره في الصلاة فانتظرته حتى سلَّم، ثم لببته بردائه أو بردائى، فقلت من أقرأك هذه السورة؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ. قلت له: كذبت فوالله إن رسول الله ﷺ أقرأنى هذه السورة التى سمعتك تقرؤها، فانطلقت أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت يا رسول الله: إنى سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، وأنت أقرأتنى سورة الفرقان. فقال رسول الله ﷺ : أرسله يا عمر، اقرأ يا هشام، فقرأ هذه القراءة التى سمعته يقرؤها. قال رسول الله ﷺ : هكذا أنزلت. ثم قال رسول الله ﷺ : «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه».

(٣) روى مسلم بسنده عن أبى بن كعب قال: «كنت فى المسجد فدخل رجل يصلى، فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر، فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعًا على رسول الله ﷺ، فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه. فأمرهما رسول الله ﷺ فقرآ، فحسَّن النبى ﷺ شأنهما...» (من الحديث).

(٤) أخرج البخارى عن عبد الله بن مسعود، أنه سمع رجلاً يقرأ آية سمع النبى ﷺ يقرأ خلافها. قال: «فأخذت بيده فانطلقت إلى النبى ﷺ فقال «كلاكما محسن».

٥-أخرج الإمام أحمد بسنده عن أبى قيس مولى عمرو بن العاص عن عمرو أن رجلاً قرأ آية من القرآن، فقال له عمرو: إنما هى كذا وكذا، فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فأى ذلك قرأتم أصبتم، فلا تماروا»[1].

٦- أخرج ابن جرير الطبرى عن أبى هريرة أنه قال" قال رسول ﷺ : «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرءوا ولا حرج ولكن لا تختموا ذكر رحمة بعذاب، ولا ذكر عذاب برحمة» الحديث.

استنباط

١- ثبوت تنزل القرآن على سبعة أحرف بكثرة الأحاديث الصحيحة التى رواها جمع كبير من الصحابة، وتعدد الروايات لهذه الأحاديث.

---

(١) ما راه مماراةً ومراء امترى فيه وتمارى: شك، والمرية بالكسر والضم الشك والجدل.

٢- كان الصحابة يتعلمون القرآن من رسول الله ﷺ، ويقرءونه عليه، ولم يكونوا يقرءونه على رسول الله ﷺ أو يسمعونه منه بالأحرف السبعة استيعابًا لها كلها ولكن ينال كل منهم حظه من هذه الأوجه السبعة بقدرمايُقْرئه رسول الله ﷺ. لهذا فقد كان الواحد من الصحابة يعرف بعضًا من هذه الأحرف ويجهل البعض، وقد تبين ذلك من إنكار بعضهم على بعض فيما لم يكن قد قرأه على رسول الله ﷺ أو سمعه عنه، وكان إنكارهم على بعض فى القدر اليسير كالآية من القرآن .

٣- أن الصحابة كانوا يحرصون على حفظ القرآن بالوجه الذى قرأه عليهم الرسول عليه الصلاة والسلام، ويتثبتون إذا سمعوا قراءة بوجه مخالف بالرجوع إلى رسول الله ﷺ ولو كان آية.

وما دام أنهم كانوا حريصين على أن يرد بعضهم البعض فيما يسمعونه من الاختلاف فى قراءة بعض الآيات، فلابد أنهم قد اجتمعوا على الأوجه السبعة موقوفة عن رسول الله ولم يتركوا لبعض فرصة الاختلاف حولها فى حياة النبى ﷺ وقبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى، ويكون الاختلاف الذى ظهر بين المسلمين فيما بعد هو بسبب خروج بعضهم من المدينة وبقائهم بعيداً عن رسول الله ﷺ فى حياته، ولم يكونوا على علم ببعض الأوجه السبعة لبعض آيات القرآن التى قرأ بها الرسول ﷺ.

٤- لم يرد فى الأحاديث شواهد أو أمثلة على وجه القراءة التى كان الصحابى ينكرها على أخيه إذا سمعها منه، ولم يكن الاختلاف كما قلنا فى الكثير بل كان فى الآية كما تبين من حديث ابن مسعود أنه سمع رجلا يقرأ آية. وكذلك حديث عمرو بن العاص «أن رجلاً قرأ آية من القرآن»، ومن هذا يتكشف قدر الاختلاف الذى ينكره الصحابى إذا سمعه من آخر ولم يكن قرأه على رسول الله ﷺ بنفس الوجه الذى سمعه من الآخرين.

٥- حرص الصحابة على سرعة مراجعة بعضهم البعض وإنكار بعضهم على بعض فيما يسمعونه من أوجه القراءة التى يكون الواحد منهم لم يسمعها من رسول الله ﷺ ، وهذا الحرص من جانب الصحابة الذى صورته لنا الأحاديث لابد أن تكون ثمرته لدى الصحابة المقيمين حول رسول الله ﷺ هى المعرفة التامة بالأوجه السبعة التى تنزل بها القرآن واستقرار هذه الأوجه فى حياة الرسول ﷺ، وهذا ما نريد أن تؤكد عليه.

الدليل الثانى: تدوين القرآن بالأحرف السبعة وتواتر التلاوة بها:

تحمل النصوص القرآنية بالصحف النبوية أوجه القراءة بالأحرف السبعة فقد «كانت الأحرف السبعة فى الرقاع»[1] حيث كانت كلمات القرآن بالصحف النبوية غير منقوطة وغير مشكلة ولهذا فقد كانت تتسع للقراءة بالأحرف السبعة.

ثم نسخت صحف القرآن على عهد أبى بكر رضى الله عنه من الصحف النبوية وكانت طبق الأصل فى نصوصها ولهذا فقد كانت كذلك مقروءة بالأحرف السبعة.

وأخيراً تم نسخ المصاحف على عهد عثمان رضى الله عنه، من الصحف السابقة فكانت أيضًا تتسع للقراءة بالأحرف السبعة.

وبهذا فقد جاءت الأحرف السبعة مقروءة بالمصاحف، ومتواترة عن الصحف النبوية، وقد تبين لنا من الأحاديث أن الصحابة كانوا يلحظونها ويتداركونها وذهب جماهير العلماء من السلف والخلف إلى أن المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة ومتضمنة ما ثبت من القراءات المتواترة فى العرضة الأخيرة، لأن المصاحف - كما علمت - كانت خالية من النقط والشكل، فكانت محتملة للأحرف السبعة...

والمصاحف العثمانية قد نُسخت من الصحف التى أمر الصديق بجمع القرآن فيها، وقد أجمع العلماء على أن هذه الصحف قد سجل فيها ما تواتر ثبوته عن النبى ﷺ من الأحرف السبعة واستقر فى العرضة الأخيرة»[2] ا هـ باختصار.

وبجانب التدوين الثابت والمتواتر بالمصاحف العثمانية، فإن القراءة وهى الأصل الثانى فى نقل القرآن وتواتره قد اشتملت على الأحرف السبعة وقد شاعت القراءة بالأحرف السبعة، على أوسع نطاق حسب تفرق القراء من الصحابة وممن جاءوا بعدهم فى سائر الأمصار. وتواترت القراءة بالأحرف السبعة حفظة عن حفظة على مدى العصور وحتى وقتنا هذا، وأصبحت القراءات المتواترة على درجة الثبوت واليقين دون اعتبار لأية قراءات شاذة ومرفوضة والتى هى شأنها شأن أى تدوين لمصحف به

---

(١) مناهل العرفان ص ٢٤٧.

(٢) تاريخ المصحف ص ٦٣- ٦٤.

أخطاء ويقرأ فيه مَنْ يقتنيه فلا يمكن له أن يحتج به بدعوة كونه مصحفًا مكتوبًا كسائر المصاحف فالعبرة هى بمطابقة ما جاء فى هذا المصحف لما جاء بالمصاحف الصحيحة من القرآن المضبوط بالتواتر السليم: وهذا شأن الأحرف السبعة فالعبرة بمطابقتها للأحرف التى توفرت لها الضوابط كما سنذكر فيما بعد .

وقد سبق أن قلنا بأن عثمان رضى الله عنه أرسل إلى الأمصار مع كل مصحف من المصاحف المعتمدة إمامًا عدلاً ضابطًا يعلِّم المسلمين القرآن وقراءته على وجه من الأحرف السبعة. ثم تفرغ جماعة للقراءة والإقراء والتعلم والتعليم حتى صاروا أئمة يُقتدَى بهم ويُؤخذ عنهم ، وأجمع أهل بلدهم على تلقى قراءتهم واعتماد روايتهم ، ومن هنا نسبت القراءات إليهم. وأسرع المسلمون فى الأمصار إلى الالتفاف حول الحفظة، وحفظ القرآن عنهم بما يقرئهم الحفظة من الأحرف السبعة ، وتواترت القراءات الصحيحة بالأحرف السبعة مع تفاوت شيوعها فى كل مصر من الأمصار حسب المدرسة القرآنية الأولى التى أسسها الأوائل من الصحابة والتابعين الذين نزحوا إلى هذه الأمصار.

وبهذا استقرت قراءة القرآن بالأحرف السبعة على أوفق وأسلم حال وأصبحت كل قراءة فيما عدا القراءات غير المتواترة يشك فيها، وتعتبر قراءات شاذة ومرفوضة تمامًا كأى تدوين للمصحف يظهر وهو مخالف للقرآن المتواتر.

وما يحدث الآن فى مجال تعلم القرآن وحفظه، وما نراه من عشرات الآلاف بل عشرات الملايين من المسلمين الذين يحفظون القرآن بدقة متناهية بالأحرف السبعة، لهو أكبر شاهد وأعظم دليل على ما تفرد به القرآن من الحفظ، عبر القرون منذ عصر النبوة وصدر الإسلام ومازال حتى الآن، وفى هذا الواقع نشاهد بما لايدع مجالا للقول شدة إقبال المسلمين على حفظ القرآن وتنوع الحفظ والقراءة بالأحرف السبعة. وذلك الواقع فى حد ذاته، يكفى دون دخول فى متاهات الأقوال والآراء كشاهد على أن كل شئ عن القرآن الكريم نصًا وتلاوة مازال غضًا طريًا كما نقل عن فم الرسول ﷺ. ولا حاجة - ولو على سبيل الحجة والبرهان لجهود الباحثين فى علوم القرآن لكى

---

(١) تاريخ المصحف ص ٦٣، ٦٤.

يبرهنوا على عدم تعرض القرآن للتحريف، وعن تواتر الأحرف السبعة، ولا مجال لأية شبهات أو افتراءات تخرج من أفواه وأقلام الجاهلين والحاقدين لتحوم حول القرآن الكريم الذى تكفل الله بحفظه، وسخر له كل وسائل الحفظ وصدق الله العظيم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] ويقوم الواقع فى كل عصر شاهداً على دقة تواتر حفظ القرآن، وشيوع حفظه بغاية من الدقة والإتقان.

الموضوع الثانى: معنى نزول القرآن على سبعة أحرف

أما القرآن فهو معروف. وأما السبعة فسواء كان المقصود بها حقيقة العدد أو الكثرة فى الآحاد، فهذا يدل على وجه العموم على وجود بعض ألفاظ القرآن متعددة وليست بواحدة. وأما الأحرف، فجمع حرف، وفى اللغة يطلق على معانى كثيرة ومنها حروف التهجى. وعند النحاة ما جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل.

والمراد بالأحرف السبعه عدة أوجه للكلمة الواحدة يكون الاختلاف فيما بينها بالمعنى الذى سنذكره مفصلاً فيما بعد على أن تكون الأوجه موافقة لرسم المصحف حال خلوه من التنقيط والتشكيل، «فالمراد بالأحرف فى الأحاديث السابقة وجوه «فى الألفاظ وحدها» [(١)].

وهذه الأوجه حكمتها أنها تؤدى إلى « تنوع القراءات لتقوم مقام تعدد الآيات وذلك ضرب من ضروب البلاغة يبتدئ من جمال هذا الإيجاز وينتهى إلى كمال الإعجاز» [(٢)].

«والأحرف هى الأوجه التى يرجع إليها الاختلاف [(٣)] فى قراءة ألفاظ القرآن» [(٤)].

ويدخل فى هذه «وجوه ترجع إلى كيفية النطق بالتلاوة من إدغام وإظهار وتفخيم وترقيق وإمالة وإشباع ومد وقصر وتشديد وتخفيف وتليين» [(٥)].

---

(١) مناهل الغرفان ص ١٤٥.

(٢) المرجع السابق ١٤٢.

(٣) نفضل استخدام كلمة «التعدد» بدلا من كلمة الاختلاف .

(٤) مناهل العرفان ١٦٥.

(٥) المرجع السابق ١٦٧.

والأحرف السبعة تؤدى إلى التنويع فى طرق أداء القرآن والنطق بألفاظه فى نطاق ما يؤديه رسم الكلمة الخالية من التنقيط والتشكيل كما وردت بالمصاحف العثمانية المنقولة أصلاً عن الصحف النبوية بشرط تلقيها من رسول الله ﷺ. وهذه الأحرف السبعة تؤدى إلى تنويع القراءة مع ثبات حروف الكلمة واحتمالات عدة أوجه للقراءة، وذلك لا يؤدى إلى الاختلاف الذى نفاه القرآن فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. وهذا الذى ينفيه القرآن هو التناقض والتدافع بين معانى القرآن وتعاليمه، مما يؤدى إلى التخاذل بين مدلولات القرآن ومعانيه وتعاليمه ومراميه، وهو ما لم يحدث فى التنوع الذى أثبتته الأحاديث بنزول القرآن على سبعة أحرف بمعنى التنويع فى طرق أداء القرآن والنطق بالألفاظ كما ذكرنا آنفًا وكما سنذكر بالتفصيل فى المبحث القادم بمشيئة الله.

أقوال حول الموضوع

إن موضوع «نزول القرآن على سبعة أحرف» يجب أن يكون مستقراً استقرار القرآن الكريم وأن يكون بمنأى عن الجدل والخلاف، وما كان الأمر يحتاج إلى التنافس فى الرأى وتكوين عشرات المذاهب حول ذلك الموضوع. حدث ذلك من جراء تناوله من خلال الفكر النظرى ودون التقيد بالضوابط التى سنذكرها فيما بعد مما أخرج الموضوع من مجال التواتر والانضباط والواقع إلى مجال الرأى والاجتهاد والافتراض حتى وصل الحال بالبعض لدعم وجهة نظرهم إلى الرجوع والاستشهاد بالضعيف والشاذ من الروايات.

ونلقى الضوء على ما حدث من جدل وخلاف وتجاوزات فى هذه الموضوع الحساس من واقع ما قاله بعض الذين دخلوا فى حلبة الصراع الفكرى وتسببوا فى خروج هذا الموضوع المستقر والمنضبط والمتواتر إلى خارج دائرة الاستقرار، ونقدم النقول التالية:

القول الأول: « وأما مخافة هذا المبحث وشوكه، فلأنه كثر فيه القيل والقال إلى حد كاد يطمس أنوار الحقيقة، حتى استعصى فهمه على بعض العلماء ولاذ بالفرار منه وقال إنه مشكل..... ونحن نستعين بالله ونستهديه أن يخلص لنا الورد

من الشوك فى هذا الموضوع الشائك، «وأن يهيئ لنا من أمرنا رشدا»[١].

القول الثانى: «ويذهب بعض الجهابذة إلى القول بالاتحاد بين هذه المذاهب الثلاثة[٢] ومذهب الرازى، بل بينها جميعًا وبين ما يشبهها، ويجعل الخلاف بينها كلها لفظيًا لا حقيقيًا، وذلك تكلف بعيد فيما أرى...[٣].

القول الثالث: «وأما ابن الجزرى فيقول:

«قد تتبعت صحيح القراءات وشاذها وضعيفها ومنكرها، فإذا هى يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه لا يخرج عنها»[٤].

ومن هذا نرى أن ابن الجزرى فى تعرفه على الأوجه السبعة وتكوينه لرأيه ومذهبه يرجع إلى الشاذ والضعيف والمنكر من القراءات مع الصحيح منها وما كان ينبغى له ذلك. ولهذا فإن ما يذكره من أوجه لا يخلو من هذه المصادر غير الصحيحة، مما يوقعه فى الخطأ ويجعله مُرَوِّجًا للشاذ من الأحرف السبعة ومن القراءات المترتبة عليها.

القول الرابع: «فهذا ابن قتيبة يقول: وأما نحو اختلاف الإظهار والإدغام والروم والإشمام والتخفيف والتسهيل ونحو ذلك فهذا ليس من الاختلاف الذى يتنوع فى اللفظ والمعنى لأن هذه الصفات المتنوعة فى أدائه، لا تخرجه عن أن يكون لفظًا واحداً»...

ولكنى أرى أن هذا العذر الذى قدمه ابن قتيبه لإهمال هذا الوجه لا يسوغ ذلك الإهمال»[٥].

---

(١) مناهل العرفان ص ١٣٠، ١٣١.

(٢) المذاهب هى جملة الآراء عن تنزل القرآن على سبعة أحرف، والثلاثة المعنية هى: مذهب ابن قتيبه، وابن الجزرى وابن الطيب.

(٣) مناهل العرفان ص ١٥٤.

(٤) مناهل العرفان ص ١٥٢.

(٥) المرجع السابق ١٥٤.

القول الخامس: «وذهب العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين إلى أن المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط جامعة للعرضة الأخيرة التى عرضها النبى ﷺ على جبريل متضمنة لها. وذهب ابن جرير ومن لف لفه إلى أن المصاحف العثمانية لم تشتمل إلا على حرف واحد من الحروف السبعة، وتأثروا فى هذا الرأى بمذهبهم فى معنى الحروف السبعة.... وسيأتى بيان هذا المذهب وماورد عليه من توهين»[١]. ا هـ باختصار.

القول السادس: «إن هذا الحديث مشكل لا سبيل إلى معرفة معناه المقصود. وشبهته أن لفظ «أحرف» فيه جمع حرف. والحرف مشترك لفظى بين معانٍ كثيرة. والمشترك اللفظى لا يدرى أى معانيه هو المقصود»[٢].

وقد خفى على أصحاب هذا القول أن سياق الروايات يدل على أن المراد بالحرف معنى من معانيه وهو الوجه، وأن الأحرف هى الأوجه التى يرجع إليها التنوع فى قراءة ألفاظ القرآن - حسب رسم المصحف - لا معانيه.

القول السابع: «أن المراد بالأحرف السبعة وجوه ترجع إلى كيفية النطق بالتلاوة من إدغام وإظهار وتفخيم وترقيق وإمالة وإشباع ومد وقصر وتشديد وتخفيف وتليين[٣]. وهو مدفوع بأنه قد زاد فيما بعد على سبعة ... ثم إن الأوجه التى ذكرها واحداً ترجع كلها إلى نوع واحد هو اختلاف اللهجات وكيفيات النطق وحدها فلا تشمل القراءات التى ترجع إلى اختلاف نفس الألفاظ، بالإبدال والتقديم والتأخير أو النقص والزيادة ونحو ذلك. وفى هذا القصور ما فيه، على أكثر مما أسلفنا فى رد تلك الآراء القاصرة» مناهل العرفان ١٦٧جـ ١.

القول الثامن: «وهو أن المراد بالأحرف السبعة أوجه من الألفاظ المختلفة فى كلمة واحدة ومعنى واحد وإن شئت فقل: سبع لغات من لغات العرب المشهورة فى كلمة واحدة ومعنى واحد، نحو: هلم، وأقبل وتعال وعجل وأسرع وقصدى، ونحوى،

---

(١) المرجع السابق ١٦١.

(٢) مناهل العرفان ص ١٥٢.

(٣) المرجع السابق ١٦٧.

فهذه ألفاظ سبعة معناها واحد وهو طلب الإقبال»[١].

ترى من أين جاءوا بهذا القول والمصحف الذى بين أيدينا يقوم شاهداً على بطلان قولهم. وربما قد استندوا إلى روايات ضعيفة لا يجوز الأخذ بها كقولهم بأن «أبى بن كعب كان يقرأ «كلما أضاء لهم مشوا فيه، مروا سعوا فيه»[٢] أو قولهم بأن ابن مسعود كان يقرأ «للذين آمنوا أنظرونا، أمهلونا، أخرونا»[٣]. ا هـ بتصرف.

فهل قراءات ابن مسعود وأبى بن كعب التى انقرضت وهل صحفهم التى تلاشت تكون حجة على المتواتر تدوينًا وقراءة ؟ أليس هذا هو عين الجدل والخلاف؟... وبعد فهذه جملة من المذاهب وقدر من الأقوال يسير، وغيره الكثير وقد أردنا أن نشير بهذا القدر اليسير إلى الجدل حول موضوع استقر بكل مقومات الاستقرار بما فيه التواتر العملى والواقع المشاهد، فلماذا الجدل؟!

الموضوع الثالث: الأقسام السبعة للأحرف السبعة

سواء كان المقصود «بالسبعة» حقيقة العدد أو كان المقصود هو الكثرة فى الآحاد، فإننا نعرض الوجوه - بما يليق بالقرآن الكريم وكماله وإعجازه وبما يوافق رسم المصحف العثمانى - وذلك فى الأقسام التالية:

القسم الأول: اختلاف الأسماء من إفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث: (مثال): قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨] قرئ هكذا «لأماناتهم» جمعا، وقرئ «لأمانتهم» بالإفراد.

وهاتان القراءتان تتمشيان مع رسم المصحف الذى جاء خاليا من الجمع مع وجود ألف صغيرة فوق النون يمكن النطق بها عند القراءة بالجمع.

القسم الثانى : اختلاف تصريف الأفعال من ماض، ومضارع وأمر: (مثال): قوله تعالى «فقالوا ربنا بعد بين أسفارنا» وكانت كلمة «بعد» غير مشكلة فى الرسم العثمانى. فقرئت بالأوجه التالية فيما تسمى بالأحرف السبعة»

(١) المرجع السابق ١٦٧.
(٢) المرجع السابق ١٦٧، ١٦٨.
(٣) المرجع السابق ١٦٧

(١) قراءة يعقوب ﴿رَبُّنَا بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩] وذلك برفع (ربُّ) و(باعد) بألف بعد الباء وفتح العين والدال.

(٢) قراءة ابن كثير وأبو عمرو وهشام ﴿رَبَّنَا بَعِّدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ وذلك بنصب (رب)، و(بعد) بكسر العين مشددة وسكون الدال .

(٣) قراءة الباقين من القراء العشر وهى ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾. وذلك بنصب (رب) ، وباعد) بكسر العين مخففه قبلها ألف.

وكل هذه القراءات تأتى متمشية مع كتابة المصحف بالرسم العثمانى الخالى من الإعجام والتشكيل .

القسم الثالث : اختلاف وجوه الإعراب:

(مثال): قوله تعالى ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥] قرئ برفع لفظ (المجيد) على أنه نعت كلمة (ذو) وقرئ بجر (المجيد) على أنه نعت لكلمة (العرش).

(مثال): قوله تعالى ﴿وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

قرئ (يضار) بفتح الراء على أن لا ناهية فالفعل مجزوم بعدها والفتحة الظاهرة على الراء هى فتحة إدغام المثلين. وقرئ (يضار) بالضم على أن (لا) نافية والفعل مرفوع بعدها.

والقراءات المذكورة فى المثالين هى ضمن ما يعبر عنه بالأحرف السبعة، وهذه القراءات تأتى متمشية مع رسم المصحف العثمانى الذى هو منسوخ عن الصحف النبوية، وكان خاليًا كما قلنا من الإعجام والتشكيل.

ومما يقع فى اختلاف الحركات «يحسَبُ، ويحسِبُ»[١].

القسم الرابع : الاختلاف بالنقص والزيادة:

(مثال ذلك:) (أوصى) و (وصَّى) - (يذَّكَّر) و (يذكر) فى قوله تعالى ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

---

(١) مناهل العرفان ص ١٥٣.

القسم الخامس: الاختلاف بالتقديم والتأخير:

(مثال): قوله تعالى ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١].

قرئ «فيَقتلون ويُقتلون» وقرئ «فيقتلون ويَقتلون» «فتح ياء المضارعة مع بناء الفعل للفاعل فى إحدى الكلمتين، وبضمها مع بناء الفعل للمفعول فى الكلمة الأخرى[١] والعكس فى القراءة الأخرى. وذلك ليتمشى مع كتابة المصحف بالرسم العثمانى الخالى من التشكيل، والمطابق لكتابة المصحف بالصحف النبوية.

القسم السادس: الاختلاف بالإبدال

(مثال): قوله تعالى ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة:٢٥٩].

قرئ «ننشرها[٢] بالراء، وقرئ «ننشزها» بالزاى والقراءتان تتمشيان مع رسم المصحف العثمانى الخالى من التنقيط والتشكيل ولا تضارب فى المعنى بل هو من باب الإعجاز القرآنى حيث تتنوع المعانى لتعطى اتساعًا بيانيًا فى قدر وجيز من الكلمات وحتى فى الكلمة الواحدة (مثال آخر) «تبينوا» و«تثبتوا فى قوله تعالى: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦].

القسم السابع: اختلاف اللغات بمعنى اللهجات

كالفتح والإمالة والترقيق والتفخيم والإظهار والإدغام والإشمام، والتخفيف والتسهيل، أو بمعنى آخر كيفية النطق والتلاوة.

واختلاف القبائل العربية فيما مضى كان يدور على اللهجات فى كثير من الحالات.

(مثال): قوله تعالى ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩] تقرأ (أتى) بالفتح والإمالة وكذلك لفظ (موسى)، لا فرق فى ذلك الوجه بين الفعل والاسم والحرف وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ﴾ [القيامة: ٤] قرئ لفظ (بلى) بالفتح والإمالة «والأسدى مثلا، يقرأ بكسر حروف المضارع «يِعلمون» «وتِسود وجوه».

(١) ننشرها: أى تركيب العظام بعضها فوق بعض..

(٢) مناهل العرفان ص ١٥٥ . ١٥٦.

والتميمى يهمز والقرشى لا يهمز. والآخر يقرأ «قيل لهم، وغيض الماء» بإشمام الضم مع الكسر، و «بضاعتناردت إلينا» بإشمام الكسر مع الضم. و «مالك لا تأمنَّا» بإشمام الضم مع الإدغام....

وكذلك نجد العلامة ابن الجزرى، يعترف بهذا الاختلاف فى اللهجات ويقول مانصه: وهذا يقرأ «عليهم وفيُهم بضم الهاء، والآخر يقرأ «عليهموُ ومنهمو بالصلة، والآخر يقرأ عيسى وموسى» بالإمالة، وغيره يلطف. وهذا يقرأ «خبيراً بصيراً» بترقيق الراء، والأخر يقرأ «الصلاة والطلاق» بالتضخيم إلى غير ذلك... »[1].

والاختلاف بسبب تباين اللهجات فإنه يوافق رسم المصحف موافقة تامة لأنه اختلاف شكلى لا يترتب عليه تغيير فى جوهر الكلمة ومثال ذلك قوله تعالى ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴾ [طه: ٩] فإنها رسمت بياء فى الفعل بعد التاء، «أتيك» ويقلب ألف موسى ياء، من غير شكل ولا إعجام.

تعقيب : هذه التقسيمات الخاصة بوجود الأحرف السبعة التى ذكرناها والتقسيمات الأخرى التى اختارها كل صاحب مذهب كالرازى، وابن قتيبة وابن الجزرى وغيرهم، هى مجرد اجتهادات ومحاولات لوضع تقسيمات وقواعد للحروف السبعة تمامًا كما لجأ العلماء إلى عمليات التقعيد فى قواعد اللغة. والأحرف السبعة بتواترها وانتشارها وشيوعها هى أسبق من القواعد والتقسيم ، تمامًا كاللغة العربية فهى أسبق من قواعد اللغة والنحو والصرف وخلافه. وعلينا أن ننظر إلى جهود العلماء بقصد التعرف على الأحرف السبعة ووضع القواعد والتقسيمات لها على أن ذلك من باب التقعيد لخدمة القرآن وتسهيل معرفة وجوه التلاوة وحسن قراءة القرآن الكريم، لا من باب إثبات تنزل القرآن على سبعة أحرف، ولا من باب الجدل والتناطح وإدارة المعارك الفكرية حول الوجوه السبعة، وحول القراءات. فالأحرف السبعة والقراءة بها هو أمر محسوم، وواقع مستقر بفضل التواتر الذى تحقق للقرآن الكريم تدوينًا وقراءة، وكل ما يخرج عن ذلك التواتر فهو شاذ ومرفوض احتكامًا إلى النقل والعقل، ولخروجه عن الواقع ومعارضته للعقيدة التى تؤكد حفظ الله سبحانه وتعالى لكتابه العزيز ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

ولنعلم جميعاً أن الأحرف السبعة التى يتنافس العلماء والباحثون على التعرف

---

(١) مناهل العرفان ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

عليها هى من البساطة واليسر والوضوح لأنها تشكل جانباً من جوانب التلاوة ، والله تعالى يقول ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧] ، فما يسره الله سبحانه وتعالى لا يجب علينا أن نعقده أو ندخله فى دائرة الإبهام والجدل والكلام.

وليعلم الجاهلون والحاقدون أن الأحرف السبعة التى تناقلها المسلمون بالتواتر عن رسول الله ﷺ ، جيلاً بعد جيل، تبرز جانبًا من جوانب الإعجاز البيانى باعتبارها أوجه متعددة لمعانى القرآن فى الكلمة الواحدة أو الآية الواحدة مما يزيد المعنى اتساعًا دون اضطراب أو تناقض، ويضع العقل أمام مفهوم متعدد تؤديه الكلمة بعدة وجوه ويجعل الفكر أمام معنى الكلمة بنظرة شمولية.

ومثال ذلك: عندما تقرأ قوله تعالى: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ [التوبة : ١١١] فالتقديم والتأخير فى قوله تعالى « يقتلون ويقتلون » الذى ذكرناه فى القسم الخامس، يجعلنا أمام المعنى الشمولى الذى يحدث فى القتال، فإما أن تكون الغلبة للمسلمين فينتصرون ويقتلون عدوهم ابتداء ويلحق بهم الاستشهاد كأثر من آثار القتال أو أنهم يقاتلون عدواً أقوى منهم فيقع عليهم القتل ابتداء ثم تكون لهم الكرّة على أعدائهم فيتمكنون من إعمال القتل فيهم. وبهذا التقديم والتأخير يعايش قارئ القرآن صور الكر والفر والغلبة والانهزام، والإقدام والاستشهاد إلى غير ذلك مما لو لم يكن هناك وجه للتقديم والتأخير ما عايش القارئ هذا.

(ومثال آخر) وهو قوله تعالى ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥] فكما ذكرنا جاءت قراءة برفع (المجيد) فكانت وصفًا للحق سبحانه وتعالى، وجاءت بجر (المجيد) فكانت نعتًا (للعرش)، وبذلك أعطى الوجهان اللذان هما من الأحرف السبعة والواقعان فى قسم اختلاف وجوه الإعراب اتساعًا فى المعنى ، وهكذا الإعجاز فى تنزل القرآن على سبعة أحرف، فليدرك ذلك الحاقدون وليحرص على معرفته الجاهلون، وليأخذوا بالموعظة الإسلامية فى قوله تعالى : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

(ومثال ثالث): (ننشرها، وننشزها): فهما يعبران عن صورتين من صور إحياء الموتى .

الموضوع الرابع: ضوابط يجب مراعاتها

فى هذا المبحث نركز على الضوابط التى يجب مراعاتها والأخذ بها، وما يجب اجتنابه والحذر منه حتى تأتى الأحرف السبعة على أكمل وجه وتتمشى مع تلاوة القرآن التلاوة الصحيحة التى تتناسب مع النص القرآنى المكتوب والمقروء كما وصلنا بالتواتر مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ .

ومن خلال الضوابط تحقق أيضًا - هدفين أساسيين هما:

١- توضيح الموضوع توضيحًا كاملاً ومانعاً ما أمكن ذلك.

٢- تحاشى متاهات الفكر، وصراعات الجدل والخلافات فى الرأى، المترتبة على الافتتان بالاستقصاء والتفصيل مما يدفع إلى إضافة السقيم إلى السليم والاستناد والاستشهاد بأضعف الروايات، والأخبار الباطلة.

وللعلماء فى القراءات ضوابط محكمة يجب التمسك بها وعدم الخروج عنها، فالقراءات التى يُقرأ بها هى القسم الذى اجتمعت فيه ثلاث خلال: «وهن أن ينقل عن الثقات عن النبى ﷺ، ويكون وجهه فى العربية التى تنزل بها القرآن سائغًا، ويكون موافقًا لخط المصحف"[1] واسترشاداً بهذه الضوابط التى وضعها العلماء وللقراءات التى يُقرأ بها وعلى ضوئها فقد اخترت مجموعة من الضوابط التى يجب مراعاتها عند التعرف على الأحرف السبعة وتميزها عن تلك الأقوال المرفوضة.

وتقوم الضوابط على ثلاثة أسس هى:

١- الفهم السليم للأحاديث التى اختارها العلماء كشواهد على تنزل القرآن على سبعة أحرف .

٢- مطابقة الأحرف التى نزل بها القرآن للرسم العثمانى خاليًا من الإعجام والتشكيل، والذى كتب القرآن به، بشرط أن تكون موافقة للبيان القرآنى.

٣- أن تكون مستخدمة وشائعة فى القراءات المتواترة والمنقولة عن الثقات عن رسول الله ﷺ .

---

(١) مناهل العرفان ص٤١٧.

ونقدم الضوابط فيما يلى :

أولاً : «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف» :

هذه الجملة الشريفة التى وردت بالأحاديث التى قامت دليلاً على تنزل القرآن على سبعة أحرف، يجب فهمها جيداً ومعرفة معناها ومدلولها، والالتفاف حول مفهوم مشترك واضح ومحدد، حتى يختفى الجدل والخلاف فى معنى هذه الجملة الشريفة التى تمثل جوهر الأحاديث الواردة فى موضوع الأحرف السبعة. ونركز من جانبنا على النقاط التالية:

١- أنسب المعانى بالمقام هنا فى إطلاقات لفظ "أحرف" هى الأوجه «فإن سياق الروايات السابقة يدل على أن المراد بالحرف معنى من معانيها السابقة على التعيين وهو الوجه وأن الأحرف هى الأوجه التى يرجع إليها الاختلاف فى قراءة ألفاظ القرآن لا معانيه»[1] فالمراد بالأحرف فى الأحاديث وجوه فى الألفاظ وحدها. بدليل أن الخلاف الذى صورته لنا الروايات المذكورة كان دائراً حول قراءة الألفاظ لا تفسير المعانى.

٢- أنزل القرآن موسعاً فيه بأن جاءت بعض ألفاظه على عدة أوجه قد تصل إلى سبعة، وليس المراد أن كل كلمة من القرآن تقرأ على سبعة أوجه «إذ لقال ﷺ: إن هذا القرآن أنزل سبعة أحرف بحذف لفظ (على)[2].

٣- من قرأ حرفا من هذه الحروف فقد أصاب، كما يدل عليه قول الرسول ﷺ: «فأيما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا».

ثانيًا : مطابقة الأحرف لرسم المصحف العثمانى : الذى كان خاليًا من الإعجام (التنقيط)، والتشكيل، وهو نفس الرسم الذى كان مكتوبًا به: الصحف النبوية وصحف أبى بكر. وقد ذكرنا الأوجه السبعة فى مبحث سابق، واستبعاد الحالات التى لا توافق الرسم العثمانى، ولم ترد بالمصاحف العثمانية شأنها كاستبعاد أى خطأ يطرأ على التدوين بالمصحف .

---

(١) مناهل العرفان ص ١٦٥/ جـ١.

(٢) المرجع السابق ص ١٤٧/جـ١.

ومن الأمثلة:

١- بالتقديم والتأخير نحو «وجاءت سكرة الحق بالموت فى قوله تعالى ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق:١٩] فإن ذلك الوجه لا يوافق رسم المصحف ولا تصح القراءة به.

وشبيه بذلك «إذا جاء فتح الله والنصر» فهى لم توافق رسم المصحف، ولا تصح القراءة بها أيضًا.

٢- بالزيادة: نحو «له تسع وتسعون نعجة أنثى» أى بزيادة لفظ «أنثى» ونحو «يأخذ كل سفينة صالحة غصبًا» أى بزيادة لفظ «صالحة». وذلك ما لا يوافق رسم المصحف، فهو مرفوض ولا تصح القراءة بها.

٣- بالإبدال : نحو «إذا نودى للصلاة فامضوا إلى ذكر الله» أى باستخدام كلمة «فامضوا» بدلاً من كلمة «فاسعوا» الواردة بالقرآن ونحو «وتكون الجبال كالصوف المنفوش» أى باستخدام كلمة «الصوف» بدلاً من «العهن» الواردة بالقرآن، وذلك مالا يوافق رسم المصحف، ولا يصح القراءة به.

إلى غير ذلك من الحالات التى لا توافق رسم المصحف، وينسبونها إلى صحف كانت موجودة عند بعض الصحابة، وذلك استناداً إلى روايات ضعيفة. ولم يكن لهذه الصحف الفردية المنسوبة إلى بعض الصحابة أية قيمة عامة كما لم تستمر عند أصحابها بعد إجماع الصحابة على المصحف الإمام الذى تحدثنا عنه سابقًا، ولم يبق لها وجود . وكل ما يقال عنها منقول كما قلنا عن أخبار وروايات ضعيفة توجد ببعض كتب التراث التى جمعت بين الصحيح والضعيف. وعليه فإنه من الخطأ الفاحش الذى قد يعرض من يقول به إلى الجهل أو سوء القصد، أن يظل الأخذ بهذه الأخبار كشواهد على الأحرف السبعة[١].

(١) والقسم الثانى: ماوضح نقله عن الآحاد وصحَّ وجهه فى العربية وخالف لفظ خط المصحف وهذا يقبل ولا يقرأ به (ومعنى هذا أنه يقبل على اعتبار أنه خبر شرعى يصح الاحتجاج به عند من يرى ذلك وهم الحنفية دون الشافعية ولا يقرأ به على أنه قرآن) انظر مناهل العرفان ص ٤١٧، ٤١٨ حـ/١.

ثالثًا : أن يكون الوجه موافقًا للعربية : فإن لم يكن موافقًا فلا يقبل وإن وافق خط المصحف.

وقد جاء القول فى معرض الحديث عن القراءات التى هى الصورة التطبيقية للأحرف السبعة «والقسم الثالث: هو ما نقله غير ثقة أو نقله ثقة ولا وجه له فى العربية فهذا لا يقبل وإن وافق خط المصحف .... ومثال ما نقله ثقة ولا وجه له فى العربية - ولا يصدر هذا إلا على وجه السهو والغلط وعدم الضبط، يعرفه الأئمة المحققون والحفاظ الضابطون، وهو قليل جداً بل لا يكاد يوجد»(١).

ومثال لذلك ما يقال عن رواية خارجة عن نافع «مَعَائشَ» بالهمزة ثم قال: ويدخل فى هذين القسمين ما يذكره بعض المتأخرين من شراح الشاطبية فى وقف حمزة نحو: «أسمائِهِمْ، وأولئكَ» بياء .... مع أنى تتبعت ذلك فلم أجده منصوصًا لحمزة لا بطريق صحيح ولا ضعيف»(٢) ا.هـ باختصار.

ومما لا يكون موافقًا للعربية رغم موافقته لخط المصحف فلا تصح قراءته، ما يكون مشابهًا فى الصورة ويكون اختلافه فى المعنى غير مقبول كأن يكون غير متمشٍ مع سياق الآية. أو يكون المعنى غير معقول وغير جائز شرعًا ومثال ذلك «إنما يخشى اللهُ من عباده العلماء» برفع اسم الجلالة بدلاً من النصب ليكون فاعلاً، ويكون سبحانه هو الذى يخشى العلماء وهذا المعنى لا يليق بعظمة الله وجلاله وأمثلة ذلك كثيرة فى كتب الشواذ مثل: «لمن خَلَفَك آية» بفتح اللام وذلك بدلاً من قوله تعالى «لمن خَلْفك آية» وقولهم «ننحيك ببدنك» بالحاء المهملة بدلاً من قوله تعالى «ننجيك ببدنك».

وهذه البدائل التى نقلها غير ثقاة لا تقبل وهى مردودة ومن قرأها باعتقاد قرآنيتها أو لإيهام قرآنيتها فإن ذلك محرم.

رابعًا : التواتر عن ثقاة: والأحرف السبعة التى تكون مقبولة هى التى يكون معمولاً بها فى القراءات بالتواتر حيث إن التواتر أمر مطلوب وضابط هام، ولابد منه فى تحقيق القرآنية.

---

(١) مناهل العرفان ص ٤١٨، حتى ٤١٩جـ١.

(٢) المرجع السابق ص ٤١٩ جـ١.

ويشترط فى التواتر أن يكون عن ثقاة، كما تكون الرواية مشهورة عند أئمة هذا الشأن الضابطين له، وبهذا تكون الأحرف السبعة مما اشتهر واستفاض موافقًا رسم المصحف، وموافقًا للبيان القرآنى.

ولا يقرأ بالأحرف السبعة المنقولة عن آحاد حيث إن قراءة القرآن عن الآحاد مرفوضة وغير مقبولة «ولا يثبت قرآن يقرأ به بخبر الواحد»(١).

والأكثر رفضًا وأشد تحريمًا هو ما لم ينقل البتة، حتى وإن وافق العربية ورسم المصحف كأن يأتى شخص فى عصرنا ويزعم أن كل ما صح عنده وجه فى العربية بحرف من القرآن يوافق رسم المصحف فقراءته قرآنًا جائزة، ومن يفعل ذلك فهو مرتكب لعظيم الكبائر. وهو ممن يلحدون فى آيات الله، ويبدلون كلام الله.

«ولقد ضل بسبب هذا القول قوم فصاروا يقرءون أحرفًا لا يصح لها سند أصلاً ويقولون التواتر ليس بشرط»(٢).

خامسًا : تحرى عدم وقوع أخطاء فى النسخ :

مما يجب مراعاته كضابط من الضوابط هو استبعاد الأخطاء الكتابية التى يحتمل أن تكون واردة فى كتب التراث التى تؤخذ منها الشواهد والروايات والأخبار والأقوال عن الأحرف السبعة، ويترتب على ذلك الوقوع فى أخطاء واختيار آراء تقوم على شواهد خاطئة والاستشهاد بأمثلة دخلها السهو أو الخطأ أو التلبيس. وهذا ضابط مهم يغفل عنه مَنْ يقوم بالنقل الآلى دون تحقيق أو تدقيق، ويتناقل الخطأ والتباعد الزمنى عن مصادر الخطأ التراثية يصبح ذلك الخطأ حجة ودليلاً وشاهداً يلتزم به البعض ويحاولون إلزام غيرهم به باعتباره تراثًا استقر ولا يقبل المناقشة. ومما يدعم هذه الأخطاء ترديدها على مر العصور فتأخذ إحدى صور التواتر ولكنه تواتر مرحلى وناقص فهو موقوف وليس مرفوعًا، ويكون فى الغالب صادراً عن غير الثقاة، ومنقولاً عن مؤلفاتهم بعد أن يكون التزييف قد حل بها، وهذا يتطلب مزيداً من الجهد فى كشف هذه الأخطاء والوقوف فى وجهها ورفضها ورفض الآراء والأقوال

---

(١) مناهل العرفان ص ٤١٧ جـ١.

(٢) المرجع السابق ص ٤٢١، ٤٢٢ جـ١.

المستندة إليها. ونسوق بعض الأمثلة كشواهد على وجود الخطأ في ما ينقل ويستشهد به تنبيهاً إلى أهمية الضابط المذكور:

١- وذلك كالقراءة المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه والتي جمعها أبو الفضل محمد بن جعفر الخزاعي ونقلها عنه أبو القاسم الهزلي وغيره «إنما يخشى الله من عباده العلماء» برفع الهاء ونصب الهمزة، يعني برفع لفظ الجلالة ونصب لفظ العلماء [عكس المتواتر بالمصاحف]. وقد راج ذلك على أكثر المفسرين ونسبها إليه فتكلف توجيهها، فإنها لا أصل لها - وإن أبا حنيفة لبرىء منها»[١].

٢- «وفي هذين القسمين ما يذكره بعض المتأخرين من شراح الشاطبية في وقف حمزة نحو: «أسمائِهِم» و«أولئِكَ» بياء خالصة، ونحو «شركاؤُهُمْ وأحباؤهم» بواو خالصة .... ونحو «رَا في رأى، وترى في تراءى، واشمزَّت في واشمأزت، فدَّ رتم في فادَّارأتم» بحذف الهمزة في ذلك كله مما يسمونه التخفيف الرسمي، ولا يجوز في وجه من وجوه العربية، فإنه إما أن يكون منقولاً عن ثقة - ولا سبيل إلى ذلك - فهو مما لا يقبل، إذ لا وجه له. وإما أن يكون منقولاً عن غير ثقة، فمنعه أحرى، وردُّه أولى. مع أني تتبعت ذلك فلم أجده منصوصاً لحمزة لا بطريق صحيحة ولا ضعيفة»[٢].

٣- «ومثال ما نقله ثقة ولا وجه له في العربية - ولا يصدر هذا إلاَّ على وجه السهو والغلط وعدم الضبط، يعرفه الأئمة المحققون والحفاظ والضابطون وهو قليل جداً لا يكاد يوجد»[٣].

٤- «وكذا بالأصل الذي نقلت عنه. ولعل الواو في لفظ (وهو) زادتها المطبعة خطأً»[٤].

ومما سبق نرى ضرورة التدقيق والبحث في بعض الأوجه التي يقال إن بها زيادات

---

(١) مناهل العرفان ص٤١٨، ٤١٩جـ١.

(٢) المرجع السابق ٤١٩ جـ١.

(٣) المرجع السابق ص٤١٩ جـ١.

(٤) المرجع السابق ٤٢٥جـ١.

أو نقصًا ويكون ذلك محصوراً في حرف ويقال إن ذلك موجود في مصحف وغير موجود في باقي المصاحف، ويكون من الواضح أن الزيادة أو النقص لا تشكل وجهًا من الوجوه ولا تخدم تنزل القرآن على سبعة أحرف وهو التوسعة أو التيسير وخلافه، ولكن يكون من الواضح أن الزيادة أو النقص قد تندرج تحت الخطأ في النسخ سهواً ببعض النسخ التي وصلتنا منسوخة ولم تكن بالقطع النسخ الأصلية التي تم نسخها بكل دقة وعناية فيكون الخطأ وارداً فيما اطلع عليه القائلون بهذه الزيادات أو النقص وليس من المقطوع به، أن تكون النسخ التي قام بنسخها أفراد خالية من السهو وعدم الضبط أو تكون كتب التراث خالية من الأقوال السقيمة والروايات الباطلة بدليل تواجد تلك القراءات الشاذة والضعيفة والمنقولة إلينا في هذه الكتب التراثية منسوبة إلى بعض أكابر العلماء كالإمام أبي حنيفة. زوراً وبهتانًا. ولهذا فإن ضابط النقل والنسخ يجب أن يكون من أهم الضوابط كما ينظر إلى ما جاء منسوبًا إلى بعض العلماء بحذر واحتراس.

ولقد ذكرنا أمثلة وأقوالاً عما يحدث من سهو وخطأ أو ينسب إلى بعض العلماء وهم منه براء، ونريد أن نشير إلى بعض ما ذكر في الأوجه من الزيادة أو النقص فلعله يكون داخلاً في دائرة السهو والخطأ أو منقولاً بغير تدقيق وداخلاً في القراءات الشاذة، أو ذكر منسوبًا إلى بعض المصاحف العثمانية التي تكون من النسخ غير الأصلية وقد تعرضت للخطأ سهواً، وكلها تدخل في نطاق القراءات الشاذة والضعيفة التي لم تحظ بالضوابط السابقة الذكر وفي مقدمتها التواتر والرسم العثماني، وموافقه وجه من وجوه النحو.

خاتمة:

ونختتم حديثنا عن الأحرف السبعة بالفصل الخامس بنقاط كلية نوردها فيما يلي:

١- الأحرف السبعة تنزلت وحيًا من عند الله سبحانه وتعالى كما ثبت من الأحاديث الصحيحة المتعددة الروايات وهذه الأحرف متواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٢- الأحرف السبعة تمثل جانبًا من جوانب إعجاز القرآن الكريم فى نظمه وبيانه وهى تحقق اتساع المعانى فى غير تناقض أو تعارض وكأن الجملة القرآنية عدة آيات فى وقت واحد.

٣- ضوابط الأحرف السبعة الأساسية: التواتر، موافقة رسم المصحف ، موافقة النظم القرآنى، وما لا يخضع لهذه الضوابط يكون مرفوضًا.

****

المبحث الثاني
القراءات والتجويد

لم ولن يعرف البشر - على مر العصور - كتابًا نال وينال من: الاحترام والتقديس، والشرح والتدريس، والتدوين والتحفيظ، والقول والتطبيق مثل ما حظى كتاب الله «القرآن الكريم».

وهو بطبيعته وإعجازه ومقاصده يلازم المسلم فى كل حياته، بل فى ليله ونهاره: يتلوه ويتعبد به، ويتخلق به ويحكم به، ويطرب له ويفكر به. وكتاب كريم هذا شأنه يستحق كافة الجهود والوسائل لمعرفته حق المعرفة والنطق به على أصح وجه وأدق صورة لتجنب اللحن، والحرص على التلاوة السليمة امتثالاً لقول الله تبارك وتعالى ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل:٤] لهذا فقد عنى المسلمون عناية فائقة ببيان القراءات الصحيحة، وتوضيح قواعد النطق السليم فيما يسمى (علم التجويد) حرصًا على أن يتلو المسلمون كتاب الله غضًا طريًا كما نطق به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذه عنه صحابته رضوان الله عليهم وتناقله المسلمون جيلاً بعد جيل وعصراً بعد عصر إلى يومنا هذا بعناية فائقة ووضوح تام.

وفى هذه العجالة نكتفى بمختصر عن القراءات والتجويد، تاركين التفصيل والبيان للكتب المتخصصة فى هذه العلوم، وهى تعد بالعشرات بل بالمئات، وفيها المزيد لكل من أراد أن يستزيد محبة للقرآن وطاعة للرحمن.

الموضوع الأول القراءات والقراء

علم القراءات: «علم يعرف به كيفية أداء الكلمات القرآنية مفردة لناقلها» وأول من ألف فى علم القراءات بهذا المعنى هو «أبو عبيد القاسم بن سلام» المتوفى سنة ٢٢٤هـ.

أولاً: نشأة علم القراءات:

* القراءات جمع قراءة، وتفيد فى الاصطلاح الطريقة التى قرأ بها المصحف

العثمانى كل صحابى من الحفظة الذين بعثهم عثمان رضى الله عنه إلى الأمصار حسبما استوعبها وأتقنها مشافهة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمذهب فى قراءة القرآن الذى قام على كل طريقة.

* أما عن المصحف العثمانى وتدوينه ورسمه وإجماع الأمة عليه وإرساله إلى الأمصار فقد استوفيناها فى مبحث تدوين المصحف فى عهد عثمان رضى الله عنه.

* وأما عن الطريقة فهى تعنى الوجه أو الأوجه التى تقع ضمن الأحرف السبعة التى نزل بها القران، وقد استوفيناها فى مبحث تنزل القرآن على سبعة أحرف. علمًا بأن المصاحف العثمانية لم تكن منقوطة ولا مشكولة وأن صورة الكلمة فيها كانت محتملة لكل ما يمكن من وجوه القراءات المختلفة، مع ملاحظة أن التعويل كان على المشافهة والتلقى والرواية وذلك هو العمدة فى باب القراءات.

* قال السيوطى عند تقسيم الإسناد إلى عالٍ ونازلٍ ما نصه: «ومما يشبه هذا التقسيم لأهل الحديث، تقسيم القراء أحوال الإسناد إلى قراءة، ورواية، وطريق، ووجه. فالخلاف إن كان لأحد الأئمة السبعة أو العشرة أو نحوهم، واتفقت عليه الروايات والطرق عنه فهو قراءة، وإن كان للراوى عنه، فرواية، أو لمن بعده فنازل فطريق. أو على هذه الصفة مما هو راجع إلى تخيير القارئ فيه، فوجه».

* وكما سبق أن قلنا - فى مبحث تدوين المصحف فى عهد عثمان رضى الله عنه - فإنه حين بعث عثمان المصاحف إلى الآفاق - وعددها ستة على الصحيح[1] - أرسل مع كل مصحف من يوافق قراءته فى الأكثر الأغلب، وهذه القراءة قد تخالف الذائع الشائع فى القطر الآخر عن طريق المبعوث الآخر. وقام كل مصر بالتلقى عن الصحابى الذى كان قد تلقى من قبل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم تجرد للأخذ عنهم قوم تفرغوا لحفظ القرآن وتجويده وتعليمه، وأجمع أهل بلدهم على قبول قراءتهم ولم يختلف عليهم أحد فى صحة روايتهم ودرايتهم. ولتصديهم للقراءة

---

(١) «اختلف العلماء فى عدد المصاحف التى أرسلها الخليفة عثمان إلى الآفاق على أقوال كثيرة أصحها أنها ستة: مصحف للبصرة، وآخر للكوفة، وثالث للشام، ورابع لمكة وخامس للمدينة وهو المدنى العام وسادس حبسه عثمان لنفسه وهو المدنى الخاص، ويسمى «المصحف الإمام - ولعل إطلاق هذا الاسم عليه نظراً لأنه الذى نسخ أولاً ومنه نسخت المصاحف الأخرى» تاريخ المصحف الشريف ص٥٩.

نسبت إليهم وكان المعول فيها عليهم، ثم إن القراء بعد هؤلاء كثروا وانتشروا فى البلاد، وخلفهم أمم بعد أمم، وقد وقع التمحيص والتدقيق حتى تكاملت القراءات وتميزت. واستقرت وشاعت بعد أن تبلورت فى شكل قراءات نسبت كل قراءة كما قلنا إلى أفضل من اشتهر بها وأتقنها أو كان مشهوداً له من علماء عصره واشتهر بينهم بالحفظ والدراية.

وعندئذ أصبح للقراءات مسميات منسوبة كل منها إلى إمام من أئمة القراءات وتكونت فيهم طبقات بين الحفاظ المقرئين. وبهذا دخلت قراءة القرآن مراحل وضع القواعد وتكوين المدارس الفكرية فى القراءات أو ما يسمى بالمذاهب أو القراءات. ثم بعد ذلك مراحل التدوين وظهور (علم القراءات).

ثانيا: طبقات الحفاظ للمقرئين الأوائل:

اشتهر فى كل فترة زمنية جماعة من أفاضل المسلمين بحفظهم للقرآن الكريم، وقد حدث ذلك منذ بدء الدعوة الإسلامية وتنزل القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

* فالمشهورون، من الصحابة بإقراء القرآن: عثمان وعلى وأبىّ بن كعب وزيد بن ثابت وابن مسعود وأبو الدرداء وأبو موسى الأشعرى، وسائر أولئك الذين أرسلهم عثمان بالمصاحف إلى الآفاق الإسلامية.

واشتهر من التابعين: ابن المسيب وعروة وسالم، وعمر بن عبد العزيز، وسليمان بن يسار، وأخوه عطاء وزيد بن أسلم ومسلم بن جندب وابن شهاب الزهرى، وعبد الرحمن بن هرمز ومعاذ بن الحارث المشهور بمعاذ القارئ (وكل هؤلاء كانوا بالمدينة).

وعطاء ومجاهد وطاووس وعكرمة وابن أبى مُلَيْكَةَ وعبيد بن عُمَيَر وغيرهم (وهؤلاء كانوا بمكة)[1] ».

بالإضافة إلى من اشتهر من التابعين بالبصرة والكوفة والشام مما ذكرتهم الروايات، وسجِّلت أسماءهم المدونات.

---

(١) مناهل العرفان ٤٠٧، ٤٠٨.

«ثم تفرغوا للقراءات يضبطونها ويُعنون بها، فكان بالمدينة: أبو جعفر يزيد بن القعقاع، ثم شيبة بن نِصَاح ثم نافع بن أبى نعيم.

وكان بمكة: عبد الله بن كثير، وحُميد بن قيس الأعرج ومحمد بن مُحَيْصن.

وكان بالكوفة يحيى بن وثاب، وعاصم بن أبى النجود، وسليمان الأعمش ثم حمزة ثم الكسائى.

وكان بالبصرة: عبد الله بن إسحاق، وعيسى بن عمر، وأبو عمرو بن العلاء وعاصم الجَحْدَرى، ثم يعقوب الحضرمى.

وكان بالشام: عبد الله بن عامر، وعطية بن قيس الكلابى، وإسماعيل بن عبد الله بن المهاجر، ثم يحيى بن الحارث الذِّمارى، ثم شريح بن يزيد الحضرمى»[1].

* ثم اشتهرت عبارات تحمل أعداد القراءات، فقيل القراءات السبع والقراءات العشر، والقراءات الأربع عشرة.

وأكثرهم قبولاً (القراءات السبعة) وهى القراءات المنسوبة إلى أئمة الحفاظ السبعة وهم: نافع، وعاصم، وحمزة، وعبد الله بن عامر، وعبد الله بن كثير، وأبو عمرو بن العلاء، وعلى الكسائى وبالإضافة إلى هذه القراءات المنسوبة إلى هؤلاء الأئمة توجد ثلاث قراءات تليها فى الشهرة وهذه منسوبة إلى: أبى جعفر ويعقوب وخَلَف، وهذه جميعًا هى التى يطلق عليها (القراءات العشر).

* وتلك القراءات السبعة وغيرها من القراءات لم تكن تندرج تحت عناوين أو مسميات فى زمن أصحابها التى نسبت إليهم. إنما حدث ذلك عندما أهلّ عهد التدوين للقراءات وظهر علم القراءات «وكان أول من صنَّف فى القراءات أمثال أبى عبيد القاسم بن سلاَّم، وأبى حاتم السجستانى وأبى جعفر الطبرى، وإسماعيل القاضى، وقد ذكروا فى القراءات شيئًا كثيراً، وعرضوا روايات تُربى على أضعاف قراءات هؤلاء السبعة. ثم اشتهرت قراءات هؤلاء السبعة بعد ذلك على رأس المائتين فى الأمصار الإسلامية فكان الناس فى البصرة على قراءة أبى عمرو ويعقوب،

(١) المرجع السابق ص٤٠٨، ٤٠٩.

وبالكوفة على قراءة حمزة وعاصم، وبالشام على قراءة ابن عامر، وبمكة على قراءة ابن كثير وبالمدينة على قراءة نافع. ومكثت القراءات السبع على هذه الحال دون أن تأخذ مكانها من التدوين حتى خاتمة القرن الثالث .... »[1] اهـ باختصار.

ويجب أن نلفت النظر بأن القراءات لم تأت متعاقبة لنزول القرآن وقراءته فى العهد النبوى، ولم تكن متأخرة لما بعد عصر النبوة والصحابة، بل أنها ظهرت من بدء تنزل القرآن وتعليم النبى صلى الله عليه وسلم لكل قدر يتنزل من الآيات القرآنية وذلك فيما يعرف بالأحرف السبعة التى تلقاها الصحابة عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وتناقل المسلمون هذه القراءات بالمشافهة والحفظ والتواتر جيلاً بعد جيل، وطبقة بعد طبقة - بالأسلوب الأمثل لتواتر القرآن عن طريق الحفظ فى الصدور، إلى أن جاءت مرحلة التصنيف وقام العلماء بالتصنيف فى القراءات، ثم جاءت مرحلة التدوين فى نهاية القرن الثالث حينما نهض ببغداد الإمام ابن مجاهد أحمد بن موسى بن عباس فجمع قراءات هؤلاء الأئمة السبعة غير أنه أثبت اسم الكسائى وحذف يعقوب.

وجاء اقتصاره على هولاء السبعة مصادفة واتفاقًا، من غير قصد ولا عمد ذلك أنه أخذ على نفسه ألاَّ يروى إلاَّ عمن اشتهر بالضبط والأمانة وطول العمر فى ملازمة القراءة واتفاق الآراء على الأخذ عنه والتلقى منه، فلم يتم له ما أراده هذا إلاَّ عن هؤلاء السبعة وحدهم، وإلاَّ فأئمة القراءة لا يحصون كثرة وفيهم مَنْ هو أجلُّ من هؤلاء قدراً وأعظم شأنًا »[2].

ونلفت النظر مرة أخرى إلى ما يقول ابن السبكى فى جمع الجوامع وشارحه ومحشيه: «القراءات السبع متواترة تواتراًتامًا أى نقلها عن النبى صلى الله عليه وسلم جمع يمتنع عادة تواطؤهم على الكذب لمثلهم، وهلم جراً: ولا يضر كون أسانيد القراء آحاداً، إذ تخصيصها بجماعة لا يمنع مجىء القراءات عن غيرهم، بل هو الواقع فقد تلقاها عن أهل كل بلد بقراءة إمامهم الجمُّ الغفير عن مثلهم؛ وهلم جراً

(١) المرجع السابق ص ٤٠٩، ٤١٠ جـ١.
(٢) المرجع السابق ص ٤١٠ جـ١.

وإنما أسندت إلى الأئمة المذكورين ورواتهم المذكورين فى أسانيدهم، لتصدِّيهم لضبط حروفها وحفظ شيوخهم الكمل فيها »[١] اهـ.

ثالثا: القراء[٢] السبعة

١- ابن عامر

اسمه عبد الله اليحصبى، نسبة إلى يحصُب وهو فَخِذٌ من حِمْيَر، ويكنى أبا نعيم وأبا عمران، وهو تابعى جليل .... وقد أخذ القراءة عن المغيرة بن أبى شهاب المخزومى، عن عثمان بن عفان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى سنة ثمانى عشرة ومائة للهجرة وقد اشتهر برواية قراءته «هشام وابن ذكوان ولكن بواسطة أصحابه.

٢- ابن كثير

هو أبو محمد، وأبو معبد، عبد الله بن كثير الدارى، كان إمام الناس فى القراءة بمكة، تلقى عن الصحابة: عبد الله بن الزبير، وأبى أيوب الأنصارى وأنس ابن مالك.

وروى عن مجاهد عن ابن عباس عن أبىّ بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ على عبد الله بن السائب المخزومى، وقرأ عبد الله هذا على أبىٍّ بن كعب وعمر بن الخطاب، وكلاهما قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وتوفى سنة عشرين ومائة للهجرة بمكة المكرمة.

وقد اشتهر بالرواية عنه - ولكن بواسطة أصحابه - البَزِىٍّ وقُنْبُر.

٣- عاصم

هو أبو بكر عاصم بن أبى النَّجود الأسدى (والنجود بفتح النون وضم الجيم مأخوذ من نجدت الثياب إذا سويت بعضها ببعض). قرأ على زرٍّ بن حبيش على عبد الله بن مسعود على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقرأ أيضًا على أبى عبد الرحمن

---

(١) المرجع السابق ص ٤٢٩، ٤٣٠جـ١.

(٢) القراء جمع قارئ وهو فى اللغة اسم فاعل من قرأ. ويطلق فى الاصطلاح على إمام من الأئمة المعروفين الذين تنسب إليهم القراءات السابقة.

وانظر طبقات القراء لابن الجزرى، وهو المعروف بالمحقق.

عبد الله بن حبيب السلمى، معلم الحسن والحسين. وقرأ عبد الرحمن هذا على الإمام على، وأخذ الإمام على قراءته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. توفى بالكوفة أو بالسماوة سنة سبع وعشرين ومائة للهجرة.

روى عن شعبة[١] وحفص[٢]، وكلاهما بدون واسطة.

٤- أبو عمرو

هو أبو عمرو زَبَّان بن العلا بن عمار البصرى. روى عن مجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، عن ابن عباس عن أُبىّ بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقرأ على جماعة منهم أبو جعفر يزيد بن القعقاع والحسن البصرى. وقرأ الحسن على حطان وأبى العالية، وقرأ أبو العالية على عمر بن الخطاب. توفى سنة أربع وخمسين ومائة للهجرة.

وممن اشتهر بالرواية عنه: الدورى والسوسى، ولكنه بواسطة اليزيدى أبى محمد يحيى بن المبارك العدوى المتوفى سنة اثنتين ومائتين للهجرة.

٥- حمزة

هو أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات الكوفى مولى عكرمة بن ربيع التيمى، قرأ على أبى محمد سليمان بن مهران الأعمش، على يحيى بن وثاب، عن زر بن حبيش، على عثمان وعلى وابن مسعود، على النبى صلى الله عليه وسلم.

توفى بحلوان سنة ست وخمسين ومائة للهجرة.

وممن اشتهر بالرواية عنه: خلف وخلاد، ولكنه بواسطة أبى عيسى سُلَيم بن عيسى الحنفى الكوفى.

٦- نافع

هو أبو رويم نافع بن أبى عبد الرحمن بن أبى نعيم المدنى. أخذ القراءة عن أبى

---

(١) شعبة: هو المشهور عياش بن سالم الأسدى، وقيل اسمه محمد وقيل مطرق، ويكنى أبا بكر لأن شعبة اسم مشترك بينه وبين أبى بسطام شعبة بن الحجاج البصرى.

(٢) حفص: هو أبو عمر حفص بن سليمان بن المغيرة البزاَّر، كان ربيب عاصم تربى فى حجره، وقرأ عليه وتعلم منه كما يتعلم الصبى من معلمه، فلا جرم كان أدق إتقانًا من شعبة.

جعفر القارى وعن سبعين من التابعين، وهم أخذوا عن عبد الله بن عباس وأبى هريرة عن أبى بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتهت إليه رياسة الإقراء بالمدينة المنورة. توفى سنة تسع وستين ومائة للهجرة.

وممن اشتهر بالرواية عنه: قالون(١) وورش(٢)

٧- الكسائى

هو أبو الحسن على بن حمزة الكسائى النحوى. توفى سنة تسع وثمانين ومائة للهجرة وقد اشتهر بالرواية عنه أبو الحارث والدورى.

(أما أبو الحارث) فهو الليث بن خالد المروزى. كان من أجلاء أصحاب الكسائى ثقة وضبطًا توفى سنة أربعين ومائتين للهجرة (وأما الدورى): فهو الذى أشرنا إليه فى الرواية عن أبى عمر.

رابعًا: القراء العشرة – وهم بالإضافة إلى القراء السبعة السابقين:

٨- أبو جعفر

هو يزيد بن القعقاع القارئ. وقد سبق أنه أخذ عن عبد الله بن عباس وأبى هريرة، عن أبى بن كعب، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. توفى أبو جعفر سنة ثلاثين ومائة للهجرة، وكان تابعًا جليل القدر.

٩- يعقوب

هو أبو محمد يعقوب بن إسحاق الحضرمى. قرأ على أبى المنذر سلام بن سليمان الطويل. وقرأ سلام على عاصم وعلى أبى عمرو. توفى يعقوب سنة خمس ومائتين للهجرة.

---

(١) قالون: أبو موسى عيسى بن مينا النحوى، قرأ على نافع واختصَّ به كثيراً، وقال: قرأت على نافع غير مرة، وكتبت عنه.

(٢) ورش: فهو عثمان بن سعيد المصرى، يكنى أبا سعيد ويلقب بورش لشدة بياضه. رحل إلى المدينة فقرأ على نافع ختمات سنة خمس وخمسين ومائة للهجرة ثم رجع إلى مصر فانتهت إليه رياسة الإقراء بها.

١٠- خلف

هو أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب بن خلف بن ثعلب. قرأ عن سليم عن حمزة، وعلى يعقوب بن خليفة الأعشى، وعلى أبى زيد سعيد بن أوس الأنصارى، وعلى أبان العطار، وهم عن عاصم. توفى خلف سنة تسع وعشرين ومائتين للهجرة.

قاعدة هامة:

«ليت المسألة مسألة أشخاص ولا أعداد، بل هى قواعد ومبادئ، فأيما قراءة تحققت فيها الأركان الثلاثة لذلك الضابط المشهور فهى مقبولة وإلاّ فهى مردودة، لا فرق بين قراءات القراء السبع والقراء العشر والقراء الأربعة عشر وغيرهم. فالميزان واحد فى الكل والحق أحقُّ أن يتبع»(١).

الموضوع الثانى: التجويد

هل سمع البشر عن كتاب منذ فجر التاريخ حتى الآن يحرص قراؤه على قراءته بانضباط صوتى سوى القرآن الكريم؟!....

وهل وصل العلماء إلى درجة من درجات التطبيق لعلم الصوتيات تقارب تلاوة القرآن الكريم المنضبطة (بالتجويد) الذى يعتبر بحق قمة العلم والفن فى علم الصوتيات؟!....

فإذا كان الجواب بالنفى، وهو كذلك لدى كل من له أقل دراية أو لديه أقصى دراية بعلم الصوتيات وفنونه ممن يتجهون إلى الصواب ويبحثون دائمًا عن الحقائق فى شتى مجالات العلم والمعرفة ... فما هو السر فى عظمة القرآن الصوتية التى يبرزها علم التجويد؟

السر، هو الإعجاز الصوتى الذى أودعه الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم.

والقرآن بإعجازه لابد أن يكون متميزاً ومتحديًا، وهذا مظهر من مظاهر التحدى الذى يواجه القرآن به كل العقول على مر العصور. كما أن القرآن بعظمته يستوعب كافة الفنون، وهو منبع لكل حقائق العلوم. وله فى كل مجال من مجالات التقدير والتوقير مكان الصدارة، وصدر العلم والحضارة.

---

(١) مناهل العرفان ص ٤٥٩. جـ١.

والتجويد: الذى هو بحق قمة العلم والفن، نشأ وترعرع فى كنف القرآن الكريم، بل إنه وجد لخدمة القرآن الكريم، وهو مفخرة لعلماء المسلمين المشتغلين بعلوم القرآن، وهو يبرز إحدى خصائص الأسلوب القرآنى الهامة وهى (الخاصية الصوتية)[١].

أولاً: تعريف علم التجويد

وتتخلص المبادئ فيما يلى:

١- «حده»: (التجويد) مصدر جود تجويداً، والاسم منه الجودة ضد الرداءة، وهو فى اللغة التحسين، يقال جود الرجل الشىء إذا أتى به جيداً ويستوى فى ذلك القول والفعل.

ويقال لقارئ القرآن الكريم المحسن لتلاوته «مجوِّد» بكسر الواو إذا أتى بالقراءة مجودة الألفاظ، بريئة من الجور والتحريف حال النطق وفى (الاصطلاح): إخراج كل حرف من مخرجه وإعطاؤه حقه ومستحقه - بفتح الحاء - من الصفات.

---

(١) «مسحة القرآن اللفظية فإنها مسحة خلابة عجيبة تتجلى فى نظامه الصوتى وجماله اللغوى: ونريد بنظام القرآن الصوتى، اتساق القرآن وائتلافه فى حركاته وسكناته، ومداته وغناته، واتصالاته وسكتاته، اتساقًا عجيبًا وائتلافًا رائعًا، يسترعى الأسماع ويستهدى النفوس، بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أى كلام آخر من منظوم ومنثور. وبيان ذلك أن مَنْ ألقى سمعه إلى مجموعة القرآن الصوتية، وهى مرسلة على وجه السذاجة فى الهواء مجردة من هيكل الحروف والكلمات، كأن يكون السامع بعيداً عن القارئ «المجود» بحيث لا تبلغ إلى سمعه الحروف والكلمات مميزاً بعضها عن بعض بل يبلغه مجرد الأصوات الساذجة. المؤلفة من المدات والغنات، والحركات والسكنات، والاتصالات والسكتات، نقول إن من ألقى سمعه إلى هذه المجموعة الصوتية الساذجة يشعر من نفسه ولو كان أعجميًا لا يعرف العربية بأنه أمام لحن غريب وتوقيع عجيب يفوق فى حسنه وجماله كل ما عرف من توقيع الموسيقى وترنيم الشعر، لأن الموسيقى تتشابه أجراسها وتتقارب أنغامها فلا يفتأ السمع أن يملها، والطبع أن يمجها، ووزن الشعر تتحد فيه الأوزان وتتشابه القوافى فى القصيدة الواحدة غالبًا وإن طالت، على نمط يورث سامعه السأم والملل، بينما سامع لحن القرآن لا يسأم ولا يمل، لأنه ينتقل فيه دائمًا بين ألحان متنوعة وأنغام متجددة، على أوضاع مختلفة يهز كل منها أوتار القلوب وهذا الجمال الصوتى أو النظام التوقيعى هو أول شىء أحسته الأذن العربية أيام نزول القرآن، ولم تكن عهدت مثله فيما عرفت من منثور الكلام، سواء أكان مرسلاً أو مسجوعًا حتى خيل لهؤلاء العرب أن القرآن شعر، لأنهم أدركوا فى إيقاعه وترجيعه لذة، لكن سرعان ما عادوا على أنفسهم بالتخطئة فيما ظنوا، حتى قال قائلهم - وهو الوليد بن المغيرة «لا وما هو بالشعر» اهـ باختصار مناهل العرفان ص٢٠٥، ٢٠٦ جـ٢.

فحق الحرف من الصفات، أى الصفات اللازمة الثابتة التى لا تنفك عنه بحال: كالجهر والشدة والاستعلاء والاستفال والإطباق والقلقلة إلى غير ذلك مما ذكره العلماء مبسوطًا ومفصلاً فى مؤلفاتهم.

ومستحقه، أى من الصفات العارضة التى تعرض له فى بعض الأحوال وتنفك عنه فى البعض الآخر لسبب من الأسباب كالترقيق والتفخيم فإن الأول ناشئ عن صفة الاستفال والثانى ناشئ عن صفة الاستعلاء، وكالإظهار والإدغام والقلب والإخفاء والمد والقصر إلى غير ذلك مما ذكره العلماء مبسوطًا ومفصلاً فى مؤلفاتهم.

٢- موضوعه: هو الكلمات القرآنية من حيث إعطاء حروفها حقها ومستحقها كما مر من غير تكلف ولا تعسف فى النطق مما يخرج بها عن القواعد المجمع عليها.

٣- ثمرته: هو صون اللسان عن اللحن فى لفظ القرآن الكريم حال الأداء.

٤- فضله: هو من أشرف العلوم وأفضلها لتعلقه بكلام الله تعالى وهو أحد العلوم الشرعية المتعلقة بالقرآن الكريم.

٥- واضعه: الواضع له من الناحية العملية فهو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه نزل عليه القرآن من عند الله تعالى، مجودًا وتلقاه صلوات الله وسلامه عليه من الأمين جبريل عليه السلام كذلك، وتلقته عنه الصحابة وسمعته من فيه الشريف كذلك، وتلقاه من الصحابة التابعون كذلك، وهكذا إلى أن وصل إلينا عن طريق الشيوخ متواتراً ولا ينكر هذا إلاَّ مكابر أو معاند.

وأما الواضع له من ناحية قواعده وقضاياه العلمية هم أئمة القراءة واللغة من سلف الأمة أمثال: أبى الأسود الدؤلى، وأبى القاسم عبيد بن سلام، والخليل ابن أحمد.

وقد جاء استمداده من كيفية قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم من كيفية قراءة الصحابة من بعده والتابعين وأتباعهم وأئمة القراء حتى وصل إلينا بالتواتر».
اهـ باختصار من هداية القارئ إلى تجويد كلام البارى ٣٧، ٣٨.

ثانيا: مراتب التلاوة

يجب على كل مسلم يقرأ القرآن الكريم أن يحرص على تلاوته تلاوة صحيحة خالية من اللحن. وعليه أن يتوخى التجويد؛ حتى أن العلماء يرون «حكم الشارع فى (التجويد) هو الوجوب العينى على كل مكلف من مسلم ومسلمة يحفظان القرآن كله أو بعضه ولو سورة واحدة لثبوت ذلك بالكتاب والسنة وإجماع الأمة»[١].

أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل:٤] أى اتله على تؤدة وطمأنينة وخشوع وتدبر مع مراعاة قواعد التجويد من مد الممدود وقصر المقصور وإظهار المظهر وإدغام المدغم وإخفاء المخفى إلى غير ذلك.

وأما السنة: فكثير منها ما أخرجه الحافظ السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور، وعزاه للطبرانى فى الأوسط وابن مردويه وسعيد بن منصور من حديث موسى بن يزيد الكندى رضى الله عنه قال: «كان عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه يقرئ رجلاً. فقرأ الرجل: «إنما الصدقات للفقراء والمساكين» مرسلة، فقال ابن مسعود ما هكذا أقرأنيها النبى صلى الله عليه وسلم، فقال: وكيف أقرأكها ؟ قال: أقرأنيها «إنما الصدقات للفقراء والمساكين» فمدَّها .... اهـ.

فابن مسعود الذى هو أشبه الناس سمتًا برسول الله صلى الله عليه وسلم أنكر على الرجل أن يقرأ كلمة (الفقراء) من غير مد ولم يرخص له فى تركه، مع أن فعله وتركه سواء من عدم التأثير على دلالة الكلمة ومعناها. ولكن لأن القراءة سنة متبعة يأخذها الآخر عن الأول كما قال زيد بن ثابت رضى الله عنه واستفاض النقل عنه بذلك، وقد أنكر ابن مسعود على الرجل أن يقرأ بغير قراءة النبى صلى الله عليه وسلم التى أقرأ بها أصحابه رضى الله عنهم جميعًا، فدل ذلك على وجوب تعلم التجويد واتباع أحكامه عند التلاوة لدلالة مثل هذا النص بالجزء عن الكل.

«وأما إجماع الأمة فقد قال العلامة الشيخ محمد مكى نصر فى نهاية القول المفيد ما نصه: فقد اجتمعت الأمة المعصومة من الخطأ على وجوب التجويد من زمن

---

(١) هداية القارئ إلى تجويد كلام البارى ص ٣٩.

النبى صلى الله عليه وسلم إلى زماننا ولم يختلف فيه أحد منهم وهذا من أقوى الحجج»[١].

* وحتى لا يَحْرِم الله المسلم من أجر قراءة القرآن على أيَّة درجة من درجات الإجادة، فقد وعد - سبحانه وتعالى - من يقرأ القرآن ويتتعتع فى قراءته بأن له أجراً، وإن كان المطلوب منه أن يقرأ القرآن صحيحًا ومجوداً، وكما قال تعالى فى شأن الصلاة «ويقيمون الصلاة» ومع ذلك فالصلاة مطلوبة ومفروضة على أية حال طالما أنها مستوفية لشروطها وأركانها.

ثالثا: حالات القراءة

القراءة ثلاث: «الترتيل، والحدر والتدوير»:

أما الترتيل: فهو القراءة بتؤدة واطمئنان مع تدبر المعانى ومراعاة أحكام التجويد من إعطاء الحروف حقها من الصفات والمخارج ومد الممدود وقصر المقصور، وترقيق المرقق وتفخيم المفخم مما يتفق وقواعد التجويد وهو أفضل المراتب الثلاث، فقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم جل شأنه: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل:٤].

وأما الحدْر: بسكون الدال، فهو الإسراع فى القراءة مع المحافظة على قواعد التجويد، ومراعاتها بدقة، وليحترز القارئ حينئذ من بتر حروف المد وذهاب صوت الغنة واختلاس أكثر الحركات، ومن التفريط إلى غاية لا تصلح بها القراءة ولا توصف بها التلاوة.

وأما التدوير: فهو القراءة بحالة متوسطة بين مرتبتى الترتيل والحدْر مع المحافظة على قواعد الترتيل ومراعاتها كذلك.

والمراتب الثلاثة فى الأفضلية على النحو التالى: «الترتيل فالتدوير فالحدْر»[٢] اهـ.

---

(١) هداية القارئ إلى تجويد كلام البارى ص ٤٠.

(٢) هداية القارئ إلى تجويد كلام البارى ص٤٣.

رابعًا: اللحن(١)

يرد اللحن(٢) فى لغة العرب على عدة معان والمقصود به هنا الخطأ والميل عن الصواب فى القراءة، وينقسم إلى قسمين: (جلى) أى ظاهر، (وخفى) أى مستتر، ولكل منهما حد يخصه وحقيقة يتميز بها عن الآخر.

فالجلى: هو خلل يطرأ على الألفاظ فيخل بعرف القراءة سواء أخل بالمعنى أم لم يخل.

(فالأول): كتغيير حركة بأخرى كضم التاء أو كسرها من نحو ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧].

(والثانى): كتحريك الدال بالضم من قوله تعالى ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣] وسمى هذا اللحن جليًا، لأنه خلل ظاهر يشترك فى معرفته علماء القراءة وغيرهم، وحكمه التحريم بالإجماع.

والخفى: وهو خلل يطرأ على الألفاظ فيخل بالحرف دون المعنى. وسمى خفيًا لاختصاص معرفته بعلماء القراءة دون غيرهم وهو نوعان:

(الأول): ترك الإدغام وكذلك الإظهار والقلب والإخفاء وترقيق المفخم وعكسه وتخفيف المشدد كذلك وقصر الممدود ومد المقصور إلى غير ذلك مما هو مخالف لقواعد هذا الفن.

(الثانى): وهو لا يعرفه إلا مهرة القراء وحذاقهم ومثاله تكرير الراءات وتطنين النونات وتغليظ اللامات فى غير محله وترقيقها كذلك وترعيد الصوت بالمد وبالغنة وكذلك ترك الغنة أو الزيادة على مقدارها أو النقص عنه وكذلك الزيادة فى مقدار المد أو النقص عنه إلى غير ذلك مما يخل باللفظ ويذهب برونقه وحسن طلاوته وانظر

---

(١) هداية القارئ إلى تجويد كلام البارى ص ٤٧ - ٥١ (باختصار).

(٢) انظر استعمال كلمة «اللحن» فى اللغة العربية الدارجة بمعنى تنغيم الكلام وتطريبه ليصبح الكلام غناء وطربا، وهى دلائل كلمة مدح واستحسان، بينما هى فى اللغة العربية وفى علوم القرآن بمعنى الخطأ المنهى عنه فى قراءة القرآن، فهى كلمة ذم واستنكار وتأمل كيف أن الكلمات العربية ذات المعانى الاصطلاحية، يتجه بها المتأخرون إلى استخدامات تعطى معان واصطلاحات عكسية (المؤلف).

إلى قول الحافظ ابن الجزرى فى النشر: «ولا شك أن هذه الأمة كما هم متعبدون بفهم معانى القرآن وإقامة حدوده متعبدون بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه على الصفة المتلقاة من أئمة القراءة المتصلة بالحضرة النبوية الأفصحية العربية التى لا تجوز مخالفتها ولا العدول عنها إلى غيرها»[١] اهـ «قلت ويؤخذ من عبارة الحافظ ابن الجزرى هذه أنه لابد من الأخذ بجميع أحكام التجويد كاملة حال أداء القرآن ولا يجوز العدول عنها إلى غيرها لأنه وصف إقامة الحروف وتصحيحها بالصفة المتلقاة من أئمة القراءة المتصلة بالحضرة النبوية»[٢].

ويتفق العلماء على حرمة اللحن الجلى، واللحن الخفى مكروه عند الجمهور، ويحرم عند البعض ومنهم ابن الجزرى.

خامساً: عناصر (مكونات) التجويد

يشتمل تجويد القرآن الكريم .. الذى يحتل أقوى درجات الانضباط فى النطق والقراءة - كما قلنا من قبل - على عناصر (مكونات) تتناول أدق التفاصيل الصوتية، مما يضع العقل البشرى قاطبة أمام حقيقة إعجاز القرآن الكريم وحفظه: أمَّا عن ذلك الإعجاز والحفظ فيظهر من تلك الصفات الصوتية للحروف والكلمات القرآنية التى توجد فى تناسق صوتى رائع، يبرزها ويحافظ عليها علم التجويد وفنونه ليظل القرآن متميزاً فى صفاته الصوتية، ومتكامل الحفظ تدويناً ونطقاً وليظل ثابتًا كما تلاه رسول الله صلى الله عليه وسلم على مر العصور. ولتظل قراءته غضة كما سمعها الصحابة عنه صلى الله عليه وسلم.

ونقدم باختصار شديد عناصر التجويد (مكوناته) فيما يلى:

أ- مخارج الحرف[٣]:

١- ومعناه فى الاصطلاح: محل خروج الحرف - أى ظهوره - الذى ينقطع عنده صوت النطق به فيتميز عن غيره. والمراد بالحرف هنا الحروف الهجائية أو حروف التهجى التى هى: أبا تا إلى الياء.

---

(١) انظر النشر للحافظ ابن الجزرى الجزء الأول ص ٢١٠ط المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة.

(٢) هداية القارئ إلى تجويد كلام البارى ص ٤٩.

(٣) المرجع السابق (باختصار) ص ٥٥، ٥٦.

٢- ومن هذه المخارج:

(الجوف): أى جوف الحلق والفم، وفى الاصطلاح، الخلاء الداخل فى الفم. ومنه مخرج واحد وهو مخرج حروف المد الثلاثة، وهى الألف ولا يكون ما قبلها إلاّ مفتوحًا دائمًا كقال، والواو الساكنة المضموم ما قبلها: كقولوا. والياء الساكنة المكسور ما قبلها كقيل ...

(الحلق) : ومنه ثلاثة مخارج لستة أحرف وهى:

أقصاه . أعنى أبعده ويخرج منه حرفان الهمزة فالهاء، (وسطه) ويخرج منه حرفان العين فالحاء المهملتين، أدناه - أعنى أقربه مما يلى الفم ويخرج منه حرفان الغين فالخاء المعجمتان.

وتتعدد المخارج لتصل إلى سبعة عشر - كما هو فى مذهب الخليل بن أحمد شيخ سيبويه ومن تبعه من المحققين الحافظ ابن الجزرى وغيره ومنها:

(اللسان) و(الشفتان): ومنهما مخرجان لأربعة أحرف ... (الخيشوم)، وهو خرق الأنف المنجذب إلى داخل الأنف، وقيل هو أقصى الأنف، ومنه مخرج واحد وهو مخرج الغنة أى صوتها لا حروفها.

ب- صفات الحروف(١):

١- معناه فى الاصطلاح: كيفية عرض الحرف عند النطق به كجريان النفس فى الحروف المهموسة وعدم جريانه فى الحروف المجهورة. وبمعرفة صفات الحروف يمكن تمييز الحروف المشتركة فى المخرج إذ لولاها لكانت تلك الحروف حرفًا واحداً، فمن ذلك الطاء المهملة فلولا انفرادها بالاستعلاء والإطباق والجهر لكانت تاء لاتفاقها فى المخرج. كذلك يمكن تحسين لفظ الحروف ومعرفة قوى الحروف وضعيفها ليعلم ما يجوز فيه الإدغام وما لا يجوز إلى غير ذلك من الفوائد.

٢- وتنقسم الصفات إلى قسمين:

* الصفات الأصلية اللازمة: وهى الصفات التى لا تفارق الحرف بحال من

---

(١) المرجع السابق ص ٧٥ - ١٠١.

الأحوال، كالجهر والاستعلاء والإطباق والقلقلة.

* أما الصفات العرضية فهى التى تعرض للحرف فى بعض الأحوال وتنفك عنه فى البعض الاخر بسبب من الأسباب، كالتخفيم والترقيق والإظهار والإدغام والمد والقصر ....

٣- ولصفات الحروف موضوعات ومباحث كثيرة جداً تتناول جوانب عدة وتحدد فروقًا فى منتهى الدقة ومثال ذلك:

* الصفات ذوات الأضداد: كالجهر وضده الهمس، والرخو وضده الشدة والاستفال وضده الاستعلاء، والانفتاح وضده الإطباق، والإصمات وضده الإذلاق.

* الصفات التى لا ضد لها: كالصفير، والقلقلة، واللين، والاستطالة.

وكل هذه الصفات وغيرها تعرض فى علم التجويد عرضًا مفصلاً ودقيقًا من خلال المباحث والدراسات التى قام بها العلماء الأفاضل بالأمة الإسلامية منذ عصور التدوين ووضع القواعد. حتى أن (القلقلة) مثلاً وهى واحدة من عشرات الصفات التى وضعها علماء التجويد للحروف تناولتها الدراسات وعرضتها فى دقة متناهية وتفاصيل مذهلة وننقل عنهم ذلك باختصار شديد فيما يلى (الصفة الثانية): القلقلة، ومن معانيها فى اللغة التحريك والاضطراب، وفى الاصطلاح: اضطراب اللسان بالحرف عند النطق به ساكنًا حتى يسمع له نبرة قوية وحروفها خمسة جمعها الحافظ ابن الجزرى فى مقدمته وطيبته بقوله (قطب جد) وهى (القاف والطاء والباء الموحدة والجيم والدال المهملة) وسميت بذلك لأنها حال سكونها تقلقل عند خروجها حتى يسمع لها نبرة قوية - أى صوت عالٍ - وذلك لأن من صفاتها الشدة والجهر. فالشدة تمنع الصوت أن يجرى معها والجهر يمنع النفس أن يجرى معها، كذلك فلما امتنع جريان الصوت والنفس مع حروفها احتيج إلى التكلف فى بيانها لإخراجها شبيهة بالمتحرك. والقلقلة صفة لازمة لحروفها المذكورة آنفًا ولا فرق بين أن يكون الساكن منها موصولاً نحو (يقْبل) (يطْبع) أو موقوفًا عليه سواء كان مخففًا أو مشدداً، فالمخفف نحو (فواقْ) (الأحزابْ) والمشدد نحو (الحقُّ) و(تبٌّ). والقلقلة فى الساكن الموقوف عليه بنوعيه أبين من الساكن الموصول.

ثم اعلم أن القلقلة لم تكن قاصرة على ما تقدم من كونها فى الساكن بأنواعه المتقدمة، بل فى المتحرك من حروفها قلقلة كذلك لأنها لا تنفك عنها ساكنة كانت أو متحركة، ولكونها من الصفات اللازمة لها ولتعريضها باجتماع صفتى الشدة والجهر كما تقدم فأصلها ثابت فى المتحرك أيضًا وإن لم تكن ظاهرة إلا أنها أقل من الساكن غير الموقوف عليه .... ومن هذا يتبين أن مراتب القلقلة أربع وهى على النحو التالى:

الأولى: الساكن الموقوف عليه المشدد نحو «بالحقِّ».

الثانية: الساكن الموقوف عليه المخفف نحو «محيطُ».

الثالثة: الساكن المتوسط وهو المعروف بالأصلى نحو «يجْمع»،

الرابعة: المتحرك مطلقًا كالطاء، والباء من نحو «طبع».

فالقلقلة فى الساكن المشدد الموقوف عليه أقوى منها فى الساكن المخفف الموقوف عليه. وفى الساكن المخفف الموقوف عليه أقوى فى الساكن الموصول. وفى الساكن الموصول أقوى منها فى المتحرك الذى فيه أصل القلقلة فقط وإن لم تكن ظاهرة فتأمل مدى الانضباط.

* أقسام القلقلة وكيفية أدائها:

تنقسم القلقلة فى غير المتحرك من حروفها الذى فيه أصل القلقلة فقط ثلاثة أقسام صغيرة وكبيرة وأكبر ....

وبعد .... فإن ما نقلناه عن (القلقلة) وهى واحدة من صفات الحروف - وهو نقل مختصر - نقدمه كمثال على مدى الجهد والاهتمام الذى بذله علماء التجويد فى دراسة صفات الحروف دراسة تفصيلية ودقيقة حتى يتحقق نطق كلمات القرآن نطقًا منضبطًا غاية الانضباط، وليتحقق تجويد القرآن على أحسن وجه ويتحقق ترتيله كما أمر الله سبحانه وتعالى وكما قرأه الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولقد وصلت الدراسات عن صفات الحروف حداً لا يخطر على بال أحد إلاَّ من يقرأ كتب التجويد ويطالع بها عشرات الموضوعات عن الصفات التى هى فى حد ذاتها جزء من أجزاء التجويد وصواب النطق وسلامة التلاوة.

ومن هذه الموضوعات[١]: الصفات الأصلية اللازمة، الصفات التى لا ضد لها، تقسيم الصفات بالنسبة إلى القوة والضعف، معرفة استخراج صفات كل حرف، توزيع الصفات على الحروف الهجائية حسب ترتيب المخارج، الصفات العرضية وضابطها، التفخيم والترقيق [الألف المدية، اللام من لفظ الجلالة، الواو المتحركة فى الوصل والوقوف، الراء الساكنة فى الوصل والوقوف، الراء المتطرفة الساكنة فى الوصل والوقوف]، النون الساكنة والتنوين، فى الغنة وأحكامها [محل الغنة، مخرج الغنة مراتب الغنة، فى كيفية أداء الغنة وما يراعى فى ذلك]، فى أحكام الميم الساكنة [الإخفاء الشفوى، الإدغام الصغير ووجهه وضابطه، الإظهار الشفوى ووجهه وضابطه]، فى اللامات الساكنة وأحكامها.

* المثلين والمتقاربين والمتجانسين والمتباعدين ... إلخ.

* الإدغام وأقسامه وأحكامه [أقسام الإدغام، الإدغام الصغير، الإدغام الواجب فى المثلين وضابطه] فى الإدغام الجائز فى ذال «إذ»، الإدغام الجائز فى دال «قد» .... الخ.

* فى المد والقصر: المد الطبيعى، مقدار المد الطبيعى، المد الفرعى أحكام المد الفرعى، بخصوص اجتماع مدين أو أكثر منفصلين كانا أو متصلين حالة الوصل وما يجب أن يراعى فى هذا الاجتماع حالة الأداء، التقاء المدين معًا (المنفصل والمتصل)، مراتب المد المتصل والمنفصل منفردين أو مجتمعين .... إلخ.

* الوقف والابتداء والقطع والسكت.

* تاء التأنيث المرسومة بالتاء المفتوحة والمرسومة بالتاء المربوطة.

* همزتى الوصل والقطع.

* الوقف على أواخر الكلام .... إلخ.

وبعد فهذا جزء يسير مما نطالعه من موضوعات فى كتب التجويد مما يدل على منتهى انضباط مخارج الحروف القرآنية، وفق قواعد علم التجويد الذى يعتبر بحق كما قلنا قمة الدراسات الصوتية علمًا وفنًا، وأعلى درجات الانضباط فى تحديد صفات ومخارج الحروف التى تحقق منتهى الغاية إلى سلامة نطق حروف القرآن، وحسن تلاوته وترتيله.

---

(١) انظر المباحث والدراسات بكتب التجويد ومنها على سبيل المثال هداية القارئ إلى تجويد كلام البارى.

الخاتمــة

وبعد ... فقد أنهيت - بعد عون الله وتوفيقه - (الجزء الأول) من كتاب «المختار من علوم القرآن» وقد اشتمل على كافة الموضوعات المطلوبة حسب المنهج التقليدى فى دراسة علوم القرآن وقد جعلته وسطًا بين المؤلفات المتخصصة وبين المؤلفات المبسطة ليكون على المستوى الذى يناسب المثقفين الذين يريدون الإلمام بعلوم القرآن بالقدر الكافى لهم.

وإلى الله سبحانه وتعالى الضراعة برجاء قبوله والنفع به وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلاة وسلامًا على سيدنا محمد خاتم الرسل والنبيين.

المؤلف

أبو الوفا عبد الآخـر

الفهـــرس

الفصل الثالث

ترتيب آيات القرآن الكريم وترتيب سوره والمناسبات بين الآيات والمناسبات بين السور

الفصل الخامس

نزول القرآن على سبعة أحرف

وقراءات القرآن



رقــم الإيــداع ١٦٠٥١ / ٢٠٠٢

I.S.B.N. 977-209-083-X الترقيم الدولى

المكتب المصرى الحديث
www.almaktabalmasry.com

الطبعة الأولـــى

٢٠٠٢ م ١٤٢٣ هـ

المكتب المصرى الحديث

almaktabalmasry.com

البريد الإلكتروني :

info@ almaktabalmasry.com

almaktabalmasry@hotmail.com

القـــاهـــرة : ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت : ٣٩٣٤١٢٧

الأسكندريـــة : ٧ شـــارع نوبـــار المنشيـــة ت : ٤٨٤٦٦٠٢

مطبعة الإسراء
ت: ٥٦٣٨٣٢٢